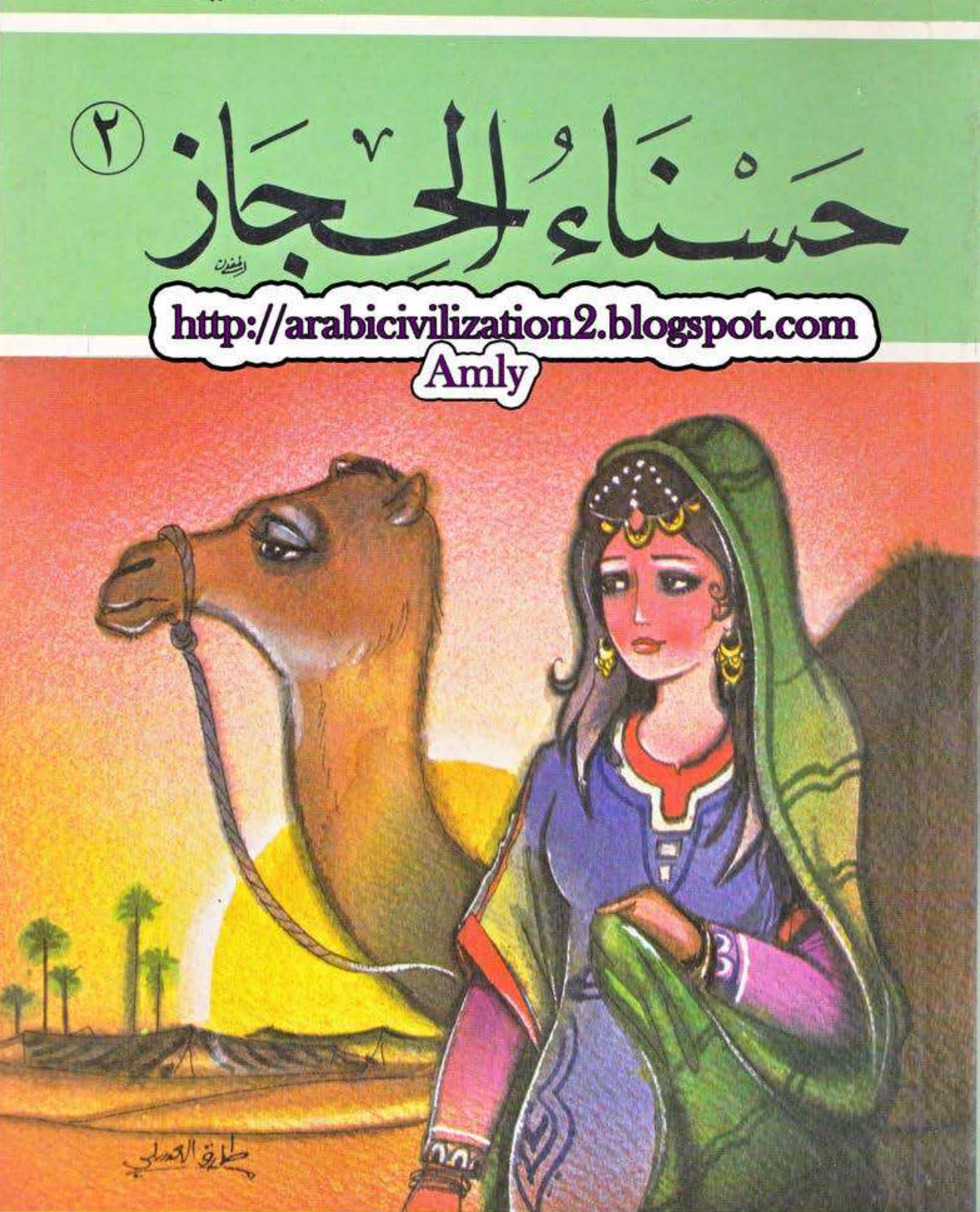
روايات تاريخ العرب والاسلام

اميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز (٢)



دار الأندلس

حسناء الحجاز

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

حسناء الحجاز

الجزء الثاني

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت ، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

- ٩ -

عندما استيقظ صفوان ويزيد في صباح اليوم الثاني كان قصي قد ترك الخيمة وانتقل الى خيمة رزاح فجلس في فراشه.

ورزاح لم ينم . فقد أعجبته تلك الكلمة التي قالهـــا صفوان : ان الرؤوس للنحني لقصي عندما يقول كلمته .

وبات يفكر في ذلك ويستعيد ماضي أخيه في بني عذرة فلا يجـد في ذلك الماضي ما يثبت ذلك القول .

قصي الناعم الهادىء الذي قضى معظم حياته في القفار تنحني له بمثل هـذه السرعة رؤوس قومه في الحجاز ؟

انها كلمة أرسلها صفوان في ساعة جنون ليس لها وزن وليس لها لون .

وفي اي شيء يسود قصي قومه ؟ أفي المال وقد خرج من الشام صفر اليدين لا يملك درهماً أم بتلك النفس الطماحة ، وذلك الدهاء الغريب اللذين ضاقت بهما ارض بني عذرة فراح يستغلها في الشعاب ؟

واية اعجوبة من الاعاجيب صنعها اخوه في الحجاز فبهرت عيون اهله ؟ انه ابن كلاب وقومه اهل الشرف والمفاخر . نعم .. ولكن الشرف وحده لا يجعله نصف إله .

وطلع الصباح وهو مسترسل في تفكيره .

فلما رفع اخوه ستار الخيمة فتح عينيه ؛ ثم لما جلس في فراشه نسي احلامه واستوى بدوره جالساً وهو يرحب به .

فقال قصي وهو يخفض صوته :

رزاح .. أتصغي الى ما اقوله لك ؟

فنظر اليه فإذا عيناه ترسلان شعاعاً ينفذ الى القلوب ويملأها هيبةً فقال : قل ما تشاء ولا تسأل .

– لقد قيل لي انك كثير المال .

ومن قال لك ذلك ؟

– ابو ذهل ..

– اصاب ابو ذهل فالمال عندي كثير وقد جعلت لك فيه نصيباً .

– انا لا أسألك عن مالك لتعطيني منه الآن ، ولكني اريد ان أعلم اية سماء ارسلته اليك ..

قال : ألم تسمع ما يقوله بنو عذرة ؟

– ماحدّثت من بني عذرة احداً غير ابي ذهل ..

– يقولون اني عثرت على كنزٍ من كنوز اسلافنا بني سليح .

– وهم صادقون ؟

– نعم وقد شاءت الاقدار ان يصبح مالي اضعاف ما تملكه العشيرة بعد ذلك الفقر .

ثم قال : وقد خطر لي ان احج هذا العام واحمل اليك منه ما تفاخر به قومك .. اذكر حاجتك يا قصي .

– لا تحدثني بالمال فأنا لا حاجة لي اليه .

– اذن ماذا ؟

قال : أتذكر ماقاله ابو ذهل في الليل الماضي .

– اجل وذلك هو حديث الرجل من عامين ..

– وما رأيك فيه ؟

قالها ورزاح يرى ذلك الشعاع الساحر فيخفق قلبه .. ويضطرب لتلك القوة الخفية تتغلل في نفسه ..

وسكت عن الجواب وهو ذاهل .

فأعاد قصي كلمته وهو يبتسم .

فقال : وأيّ رأي لي في ثورة ينفخ روحها أبو ذهل في الصدور ؟

– ولكني من أجل هذه الثورة وحدها تركت الحجاز في هذا الصيف وقدمت الشام ..

قال : تلك عادة قومك يجيئون الى بصرى في كل عام .

قال : ليس لقومي شأن فيما احدثك به ، أترضى أن يكون سادن الكعبة من ولد كلاب بن مرة ؟

فخيل اليه أن أخاه قد جنّ . فقال :

– نعم ..

– ولكن ليس لكلاب غير زهرة وقصي فأي واحد من الاثنين يتولى أمر الكعبة ويسود الحجاز ؟

فوضع يده على صدره قائلاً : انا ..

فذعر رزاح .. إنها كلمة لا يجسر ان يقولها الحارث الثالث أو النعمان بن امرىء القيس وهما أعز العرب ..

سدانة الكعبة .. وهل أمست سدانة الكعبة ، أجلّ حرمات العرب ، لقمة سائغة تمتد اليها الأيدي ويطمع بها الناس ؟ . ليقل تبع اليمن أنه يريدها وليقل النعمان والحارث أنها أهلٌ لها .. أولئك إذا فعلوا فالسيوف خلفهم وجيشهم الجرار يحطم الكعبة إذا شاء ولا تثبت مكة أمامه .. إنهم أقوياء والقوي يستهين بالحادثات .. وإما أن يقولها قصي بن كلاب أضعف أهل الحجاز وأصغرهم شأناً فذلك ما لا يقبله عقل رزاح ، فقال لأخيه :

أعد ما قلت يا قصي .

فأجابه بكل ما في العظمة من جلال وزهو :

إن أخاك قصياً يريد سدانة الكعبة لنفسه ..

–أما أخوك رزاح فيقوم في ذهنه أنك قضيت النصف الثاني من الليل وأنت تشرب الخمر صرفاً فذهب عقلك .

– بل أنا اليوم أعقل مني بالأمس .

قال : ما رأيتُ جنوناً أغرب من هذا .. أتقذف بنفسك إلى الهاوية ولك عقل ؟ ورب الكعبة لو حدثني غيرك بما تحدثني به الآن لصفعته كما أصفع عبدي وخرجت من هذه الخيمة قائلا لمن حولها من غلمان :

أخرجوا هذا المجنون ..

ثم قال : هل لك أن تقول لي أولاً من أنت ؟

فقطب قصي حـاجبيه وهو يقول : إن لي شخصيتين أذكرهما لك وأنا ثابت العقيدة وواثق بنفسي ..

قال : هات .

قال : أنا الفتى الصغير السن، القليل المال والضعيف الصوت .

قال : أحسنت .

قال : ولكن تلك الشخصية الأخرى التي لا تعرفها هي التي تملي عليّ مـا قلت ومـا سأقول . إسمع يا رزاح ان ذلك الفتى الصغير السن كبير بإرادته وطموحه ؛ والقليل المال غني بإباء نفسه ، وجرأته ، ورباطة جأشه ؛ والضعيف الصوت الخامل الذكر قوي بقومه ونبالة أصله ..

قال : وهذه امور لا ترفعك إلى المقام الاول في مكة .

قال : قد يخلق الزمان ما يرفعني اليه ..

– ولكن الزمان لا يستطيع ان يجعل الحمل ذئباً .

– بل يجعله أسداً يحمي الغاب الذي يأوي اليه . انظر مايفعله هذا الزمان. ان أباك ربيعة بن حرام لم يترك لك غير قطيع من الغنم فيه بعض النوق أليس كذلك ؟

– نعم .

– وكان المال قليلاً وقليلاً جداً بين يديك ..

– نعم .

– غير ان القدر حملك بيديه الاثنتين وحلـّق بك الى الجو الاعلى فأمسيت غنياً تلعب بالذهب كما يلعب الطفل بالرمل .

قال : ذلك شيء والسدانة شيء آخر فماذا أعددت لها ؟

قال : الدهاء الكثير يتبعه السيف ..

– أجاد انت فيما تقول ؟

– وهل تركت قومي في بصرى لأجل المزاح ؟

- اذا كان هذا فأنا أنصح لك بالبقاء بيننا ريثما تستكمل وسائل الظفر بما تطمع به ..

قال : لقد جاوزت الحد باستخفافك .

- كما جاوزت الحد يا قصي باحلامك .

فلمعت عيناه وهو يقول :

إقسم بتربة كلاب انك ستلمس هذا الذي تدعوه حلماً في العام المقبل او العام الذي يليه .

وجعل يتفرس فيه وشفتاه ترتجفان .

فرأى رزاح ما لم يره من قبل .. رأى وجهاً يطفح جلالاً . وعينين تبعثان نوراً .. وملامح هي ملامح الملك الغاضب لشرفه الذي أهين .

وقد أثر فيه ما رآه تأثيراً غريباً كادت تذوب له نفسه وأحس في تلك الساعة ان ذلك الجلال الجذاب يقدر على كل شيء وان حجابة البيت وان عزّت ستمشي صاغرةً الى اخيه .

نعم، ان رزاحاً الهازيء بقصي المستخف بما يسمع أصبح طائعاً مؤمناً بكل ما يقوله اخوه حتى ان قوى التمرد الكائنة بروحه ، تلاشت امام تلك القوة السحرية لا يبين لها اثر ..

وبدأ ينظر الى اخيه كالعبد المضطرب المستسلم الى سيده .

فعرف قصي ان تمرده قد انتهى ، فقال وهو يبتسم : أتريد ان تسمع لي الآن

فتمتم قائلاً : أسمع وأطيع ، ولكن خبرني كيف تبدأ بأمرك .

قال : لقد بدأت .. وضعت يدي بيد حليل بن حبشية سادن الكعبة الذي تخافونه واصبحت ولداً له .

قال : إنها الغاز لا افهمها يا قصي اتضع يدك بيده وانت تريد ان تقوم مقامه بحجابة البيت ؟

- نعم وخير ما ابدأ به الدهاء ..

– ولكنها خيانة لا ارضاها لك .. ان ابن كلاب الذي يطمع بمثل هـــذا المنصب المقدس ، لا يظهر اخلاصاً ويخفي الحقد وراء الإخلاص .

فضحك قصي وهو يقول : انك لا تعلم شيئاً من امر اخيك .

– بل اعلم . الا تقول ان ابن حبشية جعلك ولداً له ؟

– بـــلى .

– ولكن هذا الولد سيعق اباه ويخلعه عن عرشه ..

قال : خير لك ان تقول ان هـــذا الولد سيكون أبرّ الأبناء وسيحفظ الوفاء لأبيه حتى يموت .

– وكيف تصل الى سدانة الكعبة بهذا الوفاء الذي ذكرت وسادن الكعبة حي ؟

قال : ان لحليل ولدين ، المحترش وحبّى .

– نعم .

– وحبـّى تبلغ التاسعة عشرة او العشرين من العمر .

– نعم .

– ولكنها وهي في زهرة صباحا تردّ فتيان العرب النبلاء ولا ترضى ان تزف الى احدهم .

– ومعنى ذلك ؟

– معناه ان سادن الكعبة يخالف العرب جميعها في قضية الزواج فلا يريد ان يكره ابنته عليه .

– تريد ان تقول انّ لها ان تختار من تشاء .

– اجل ولكن من اشراف القوم .

– ثم ماذا ؟

– فلما حجت العرب في العام الماضي رآها فتى من نبلاء مكة فأحبها ثم احبته .. ثم اقبل على ابيها يسأل الرضى به ففعل ، وسيتم الزواج بعد حين .

– واية صلة بين هذا الزواج وبين الأمر الذي تحدثني به ؟

قال : ان زواج حبّى سيغير وجه الحجاز ..

– لماذا ؟

– لأن زوجها نفسه هو الطامع بحجابة البيت ، افهمت الآن ؟

– ومن هو ذلك الزوج ؟

قال : يخيل إليّ انك لا تجسر على ذكر اسمه .. هو أنا ..

فاضطرب . وجعل ينظر لأخيه نظرات البله وهو لا يعلم ماذا يقول .

فقال : أتستغرب يا رزاح زواج اخيك بابنة حاجب البيت ؟

– ليس غريباً ان تزف الأميرة الى فتىً هو من اكرم العرب نسباً واحسنهم وجهاً واطيبهم خلقاً ، ولكن الغريب ان تطلب يد حبّى وانت تعلم انها ترد ابناء الملوك الذين يملكون كل شيء ، في حين انك لا تملك شيئاً .

قال : لم يقم في ذهني ان حاجب البيت يبخل عليّ بابنته، اتعرف لماذا ؟

– لا .

– لأن النظرة الاولى التي ارسلتها الى تلك الفتاة وهي على شرفة القصر ، حملت اطيب ما يبعثه قلب الى قلب من عواطف الحب .

– ولكن الفتاة العربية إذا احبت لا تستطيع ان تستثمر هذا الحب الا اذا وافقها اهلها فيه .

قال : وهذا ايضاً لم اكن اخشاه ، فقد رأيت حليل بن حبشية بباب الكعبة وقدرت ان اقرأ في عينيه إعجابه بي وهو لا يعرفني .

قال : انك مغامر يا قصي وانا خائف .

– على الطامع بحجابة البيت ان يقتحم الأهوال .

– إذن لقد تمّ كل شيء بينك وبين حليل .

– اجل ولم يبق إلا ان اعود الى مكة كما قلت .

قال : لنفرض ان امر الزواج قد انتهى ، فماذا تفعل بعد ذلك ؟

قال : معنى هذا الزواج اني اضع قدمي على الدرجة الاولى من سلم العرش ثم اعمد إلى الصبر .

– حتى يموت حليل ؟..

قال : تسألني الآن عن شيء لا استطيع ان اعرفه . لقد قلت لك ان الزمان يخلق ما لا نعلم ، فلننتظر هذا الزمان ..

قال : ارى ان طموحك الى السيادة سينتهي عندما تزف حبّى اليك .

– بل ليس لهذا الطموح حد ، الا يجوز ان يقوم حليل بعد عـــام فيقول لولده المحترش : لقد تعبت من الحجابة فخذها .

– وإذا فعل ؟

– يعتزل المحترش كما اعتزل ابوه ويفضي الأمر الى حبّى ..

– وعندئذٍ يتولى قصي باسم زوجته امر البيت ..

– نعم ويقوم بامر الحجاز بارادة من حديد ، وعزيمة اشد صلابة من الفولاذ ويسترجع بنو معد ملك ابائهم .

– وانا ارى غير ما تراه .

قال : ماذا ترى ؟

قال : اكاد أرى الآن سيوف الخزاعيين تلمع حول الكعبة .

– ذلك ما ذكرته انا ، لأبي ذهل ، أجل ، ستثور خزاعة وتغضب لعزها الزائل ولكن العرب تخمد نار ثورتها وتعيدها الى الهدى بقوة السيف .

ثم قال : وأنا لأجل هذا وحده قدمت بصرى ثم جئت اليك .

وكانت عيناه تختلجان وهو يقول :

لقد حسبت حساب الحرب وسأتهيأ لها من جميع النواحي فقل لي الآن ألا تكون مع قومك اعواناً لي على بلوغ الغاية ؟

فتردد الفتى في الجواب .

فقال : سيأتي يوم ادعوك فيه الى الدفاع عني في مكة ، فهل يمنعك شيء من ان تكون الى جانب اخيك في ذلك اليوم ؟

قال : اني وجميع من حولي انصار قصي ، ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

– أستشير رؤساء العشيرة قبل ان اعد ، لعلّ لهم ما يقولون .
– أتعني ابا ذهل وابا سليمى وعدياً ؟
« هؤلاء رؤساء بني عذرة » .
– نعم .
قال : ان البحث مع هؤلاء يفضح السر الذي يجب ان يبقى في الصدور .
– ولكنك تعلم يا قصي اني لا استطيع ان اسوق قومي جميعهم الى الحرب في مكة بدون ان اسأل من ذكرت .
قال : دع السؤال الى وقت آخر اذا شئت .
قال : أتركه ولا أبالي ، غير أني اريد ان تعود الى الحجاز وأنت مطمئن وواثق بوعدي .
– اذن نستشير ابا ذهل وحده فروحه روح قصي وهو غاضب مثلي لكرامة قومه .
قال : اما ابو ذهل فلا يكتم حبه امراً .
– سأستحلفه بشرف معدّ ان لا يفعل . أتدعوه الآن ؟
– نعم قبل ان يخرج الى البر مع مواشيه .
ونادى رزاح احد غلمانه وامره بان يدعوه .
ولم تكن الا ساعة حتى اقبل الشيخ العذري الذي تكمن في صدره مروءة الفتيان وهمة الشباب ..
فعرف ان رزاحاً لم يطلبه الا لأمر .
وصدقت ظنونه ، عندما سدل قصي ستار الخيمة وصرف الغلام الذي دعاه قائلاً له :
امنع كل عذري من الدخول على مولاك ..

* * *

لقد فكرت فيما سمعته منك امس يا ابا ذهل .
فأشرق جبين الشيخ قائلاً : اتعني امر الكعبة ؟

– هو ذاك .
– والى اي حد انتهى هذا التفكير ؟
– الى الحد الذي سأبسطه لك الآن وقد اظهرته لرزاح .
قال : هاته يا قصي .
قال : لقد كنت مصيباً في قولك ان الكنانيين تجار سكر وشمع ، لا يبالون الا بالاسفار للبيع والشراء .
قال : اتعترف بهذا ؟
– اجل فلا سبيل الى النكران .
– وماذا ينفع هـذا الاعتراف وهم منصرفون الى تجارتهم لا يغيّرون النهج الذي نهجه الاجداد ؟
قال : ان قصياً الذي يخاطبك الآن لم يكن قط تاجراً ..
– اعرف ذلك .
– بل لم يكن وهو مقيم بأرض بني عذرة،غير غلام من غلمانهم يرعى مواشي ربيعة بن حرام مع اخيه رزاح .
– واعرف ذلك ايضاً .
– ولكنه عندما دخل مكة لمس خمول قومه فأراد ان يستبدله بنهضة تهتز لها العرب .
فراى ابو ذهل ذلك الشعاع الساحر الذي رآه رزاح قبـــله ، فقال : نهضة مباركة ورب الكعبة .
– نعم وقد يرافقها السيف وتشتعل النار .
قال : مرحباً بالحرب ترتفع بعدها رؤوس بني معد .. هات ايضاً ..
قال : وسأكون ، انا ابن كلاب ، قائداً لهم في نهضتهم هـذه فابني لهم عظمة جديدة تبقى ما بقي البيت .
فرقصت لحية ابي ذهل وقال :
ورب الكعبة انك لتستطيع ان تفعل كل ما تقول .

والتفت الى رزاح قائلاً :
الا ترى القوة تنبعث من عينيه الناريتين ؟
فحنى رزاح رأسه وهو يقول :
خلق قصي ليسود الناس .
قال : ولكني لا ابلغ الغاية الا اذا مد الي ابو ذهل يده يدفعني الى الامام ..
قال : اعيد الآن ما قلته امس. ان هذه العشيرة النازلة في ارض الشام تجود بالرجال والمال لتنقذ الحجاز من امرائه المستبدين .. متى تريد يا قصي ان نزحف الى مكة ؟
- اتقول هذا وانت لم تسألني عما اعددت للحرب
- نعم فيكفي ان اعلم ان كنانياً يريد الحجابة لنفسه لأقذف بنفسي وبني قومي الى اشداق الموت ...
قال:لو كان في بني عذرة رجل آخر يقول مثل هذا القول لضمنت الحجابة.
- ومن يخالف ابا ذهل في بني عذرة ؟
- لا ادري فقد يخالفه ابو سليمى وعدي ..
فابتسم قائلا : ان الذي يتصدى لرأي ابي ذهل لم يخلق بعد ..
قال : اواثق انت ؟
- وكيف لا اثق بأهلي وانا سيدهم وحامي ذمارهم يوم يتجهم لهم وجه الزمان ؟
قال : اخشى ان ينكر عليك ذلك احد الرؤساء .
- لا تخشى شيئاً فالكلمة لي وحدي ورزاح يشهد ، ماذاتقول يا رزاح .
قال : لم أشأ ان اعاهد قصياً على امر قبل ان اراك .
- اما انا فاعاهده على كل ما يشاء، ولكن قل لي يا قصي متى يكون ذلك ؟
- لا استطيع ان اجعل للحرب موعداً .. اني سأتزوج الآن وقد تعقب هذا الزواج .
فقال رزاح : وليعلم ابو ذهل ان حبى ابنة سادن الكعبة هي زوجة قصي .

– اذن لست عدواً لحليل .
– لا . بل انا احب اليه من المحترش .
– ولكن أتتزوج ابنته ثم تشهر السيف في وجهه ؟
قال: اما السيف فلأولئك الطامعين بالحجابة من قومه، هم يقولون في انفسهم: ان سادن الكعبة في آخر عمره ، وان المحترش ليس أهلاً للامارة التي يتركها ابوه له ، فاذا كان لا بدّ للبيت من حاجب . فهم احق بهـــذه الحجابة من جميع النـــاس .

– وهل نسوا ان ابن حبشية مطلق التصرف في منصبه يوصي به لمن يشاء ؟
– اذا كانو لم ينسوا ذلك فقد تناسوه ، انهم كالآلهة القائمة في جوف الكعبة يريدون ان تنحني لهم رؤوس الناس في الحجـاز ويخضع لسلطانهم سادات القوم في مكة والنبلاء ..

يحجبون البيت ويسقون الحجـــاج ويرأسون السوق . ويجيرون العرب ، ولهن. اما نحن فننسأ الشهور وليس لنا بعد ذلك رأي. أيرضى بذلك ابناء عدنان؟ فضحك الشيخ قائلاً : لو كان الامر في يدي لمـا رضيت بان ارى خزاعياً واحداً يطوف حول البيت .

ثم قال : ولا تخشَ الحرب يا قصي . ان هؤلاء المتكبرين اصحاب المناصب لا يثبتون امامنا في مجال ، فسعر النار عندمـا يخطر لك ان ترى النار .. سعّرها ولا تخف ولتكن ناراً مجنونة ، طائشة ، آكلة لا ترحم احداً من ابناء اليمن ولا تبقي على شيء. وكلمة واحدة ترسلها الى رزاح وينشرها ابوذهل في قومه، تكفي لأن تجعل هؤلاء القوم صفاً واحداً يزحف الى مكة ، حاملاً الموت لابناء الآلهة الذين يجرون اذيال المجد والعز ..
– وتضمن بني عذرة كما قلت ؟
– اضمنهم جميعاً لا استثني احداً ..
قال : بقي علي ان استحلفك بشرف قومك ان تكتم الناس ما سمعت ، لئلا يفسدوا عليّ الأمر .

– وتخاف هذا ايضاً ؟ ان اخبار بني عذرة لا تنقل الى الحجاز ..
– بل يحملها النسيم اليه وانتم لا تعلمون .
– اذن اعدك بالكتمان . ولكن قل لي . الا يطمع بمـــا تطمع به احد من قومك ؟
– ليس في قومي من يفكر في هذا .
– واذا ندبتهم الى القتال فماذا يفعلون ؟
قال : اذا أردت أن تعلم كل شيء فسل صفوان بن الحارث .
– بل أسألك الآن لئلا يثير سؤالي الظنون ..
قال : اما أهل الشعاب فجميعهم يخضعون لي كأني ولدت سيداً لهم
– وانا أعجب لهذه السيادة تسعى اليك وانت لم تنقل اليها من قبل قدماً ..
فقال رزاح : لقد استعان على قومه . بما استعان علينا . من خلابة في القول وهيبة تملأ النفس . وسحر في العينين ..
قال : أصبت وانا قد عرفت أباه ..
ثم مدّ يده فصافح قصياً وهو يقول :
وهل بقي لك ما تحدثنا به ؟
– لم يبق الا ان تأتي تلك الساعة فنلتقي في فناء الكعبة ونقتحم السيوف .
قـــال : لقد تعاهدنا الآن وسنرسل ابصارنا الى الافق البعيد لنرى اللهب المتصاعد في فضاء الحجاز ..
فابتسم قائلاً : بيننا وبينكم عشرون يوماً على الناقة ..
– ومع ذلك فسنبصر كل شيء .
قال : وستعلمون أيضاً كل شيء ..
ومشى ابو ذهل الى الباب يريد الخروج ثم وقف .
فقال قصي : يظهر انك ستسأل سؤالاً آخر .
– نعم، لقد بحت لي بجميع ما في صدرك ولم تذكر رأي بني كنانة في الأمر.
قال : واي أمر هـذا ؟ اني لم أستشر أحداً منهم بعد الا زهرة أخي وابنة

أخي الكاهنة ..
– ورفيقك صفوان ؟
– لا يعلم من امري الا اني طمّاح الى المجد .
– والآخر ؟
– امـا الآخر فرفيق سفر ، حتى ان الاثنين لا يعلمان اني سأتزوج حبى ابنة حليـــل .
قال : أراك كثير الوثوق بنفسك ، لا تعبأ بمن حولك من اصدقاء وأنصار .
– اذا بحت بسري ذاع هــذا السر وشاع قبل ان أبلغ الغاية فتثور مكة ويضيع الأمــل .
– ولكن الزواج لا يجعلونه سراً .
– نعم ، غير اني عاهدت سادن الكعبة على الكتمان ونسيت الآن، كما نسيت يوم خبّرت زهرة ، اني عاهدته على ذلك .
فأجابه قائلاً : لقد وفيت بوعدك فلم تذكر قضية زواجك الا في أرض الشام.
قال : يجب على من يعد ان لا ينسى ، اما انا فبليتي النسيان ..
وهم ابو ذهل ثانية بالذهاب ثم وقف كما وقف في المرة الاولى قائلاً: وانا مثلك يا قصي فقد نسيت ما يجب ان اقول .. أفي مكة سلاح لأبناء قومك ومن يتبعهم من احياء العرب ؟
– اما السيوف والرماح فعندنا منها الشيء الكثير ..
قال : انك ستبرز للمرة الاولى الى ساحات القتال وانت لا تعلم ما هي الهوة التي تفتحها تلك الساحة .
– بل اعلم انها سوق تباع فيها الحياة ..
– وتتكسر فيها ايضاً تلك السيوف التي تقول انها كثيرة في الشعاب.. عدّ لي قومك واحص سيوفهم ..
قال : اذا عدّت السيوف جاوزت الالفين .
– والرماح ؟
– وكذلك الرماح ..

قال : اذا اردت الحرب فتهيأ لها كما تتهيأ الملوك . متى ترجع الى بصرى ؟
- غداً قبل ان يتنفس الصبح .
- اذن أعود اليك هذا المساء فننظر في هذا .
ورفع ستار الباب واحتجب عن عيون الأخوين .
فقال رزاح : ان أبا ذهل خير من تقلد سيفاً في قضاعة كلها وله في الحروب رأي .
- هذا ما رأيته وسأجعله مرجعاً للجيش .
- وقد صدق في قوله ان بني عذرة لا يخالفونه في أمر ..
- ولكن قد يحتاج الى مال وانا لا مال لي .
فاجابه قائلاً : ان مالي كله ابذله في سبيل حجابتك كما قلت لك ... وموعدنا غداً .
- ماذا في غد ؟
قال : سأعطيك من المال ما يكفي حيّك كله في ميدان الحرب .. ان مالي لي ولقصي .
قال : لا آخذ منه درهماً ولكن تبذل منه ما تشاء عندما تستعر النار ويزحف بنو عذرة ..
فحاول ان يجيب فاسكته قائلاً :
القول الذي اقوله لا يتغير منه حرف ..
وتعانق الاخوان ثم خرجا الى الحي فرأيا صفوان ويزيد .
فقال قصي : متى تركت فراشك يا صفوان ؟
- الآن .
قال : نم يا ابن الحارث فستجيء ايام لا تجد فيها فراشاً تستلقي عليه ، واذا وجدته فلا يغمض لك جفن ..
قال : تلك ايام المفاخر يا قصي ..
- نعم وستأتي ساعتها بعد حين ..

ثم هامس اخاه قائلاً :

انظر الى هذا الفتى، انه من اعظم نبلاء مكة ومن ابعدهم صوتاً في الشعاب ومع ذلك يطيعني كما كان يطيع اباه ولايسألني عما اصنع .

– والآخر ؟

– اما الآخر فرفيق سفر كما قلت وأخ في اليوم العصيب ..

وركب الاربعة اربعة جياد وركضوها الى المراعي التي سرّحت فيها مواشي رزاح على ان يعودوا قبل المساء ..

* * *

ألا تذكر يا عبدالله اني نقلت اليك خبر المرأة السوداء التي ترعى ناقتها وراء هذه الصخور ؟

– بلى يا مولاتي .

فأومأت ليلى الى صخرة لا تبعد عنها اكثر من عشرين ذراعاً وهي تقول :

لقد رأيت المرأة الآن تختفي وراء هذه .

وكان الاثنان ، ليلى وعبدالله في البقعة الحمراء ..

وحبى ليست معهما لأن اباها سادن الكعبة كان مريضاً .

فقال وهو يضحك هازئاً :

ان الجواري السود يملأن قصر ابيك زياد ، افتخافين عجوزاً تقود ناقتها الى المراعي ؟

– نعم ولهذا الخوف اسباب ذكرت لك بعضها .

قال : لقد ضعفت الذاكرة فأسألك ان تذكريها الآن .

قالت : الا ترى النوق ترعى في السهل الذي ينبسط امامنا ؟

– اراها .

– وهل يقوم في ذهن الرعاة ان يطلقوا نوقهم الى هذه الصخور وليس بينها الا القطرب والشوك ؟

ـ لا . .

ـ اذن لماذا تختار هذه السوداء لناقتها ما تأنف منه نوق اهل مكة ؟

ـ لعلها لا تجسر على الاختلاط بالرعاة لئلا يهزأوا بها .

ـ ولكنها تستطيع ان تعطي احدهم نصف درهم فيرعاها .

ـ ولعلها لا تملك درهماً .

ـ قالت : اراك تحسن الدفاع عن السوداء . .

ـ بل احسن الدفاع عن مولاتي التي لا اريد ان تظهر مثل هذا الخوف ، ثم قـــال :

وهل لك ان تذكري سبباً آخر ؟

ـ سأفعل وعندئذ لا تستطيع الدفاع .

قال : سنرى .

فقالت : رأيتها في المرة الأولى . ورأتها حبى تدور حولنا كأنها تطلب في الارض شيئاً ، وليس في الارض شيء كما ترى .

قال : انها من العجائز اللواتي يبحثن عن الاعشاب ليجعلنها مراهم للجراح .

واسترسل في الضحك .

فانتهرته قائلة : ويلك ، أرأيت حولنا عشباً ؟

ـ من يعلم فشقوق الصخور تنبت ما لا ترين . .

ـ وماذا تقول عندما تعلم انها احتجبت هنا . . في هذا الموضع . . . لتسمع حديثنا نحن الاثنين .

ـ اقول، ذلك شأن معظم النساء يتنصتن للاحاديث ثم ترددها افواههن على الناس في ليالي الشتاء . . امــا الآن فقولي لي يا مولاتي ، ألم يكن حديث الاثنين

ـ انت وحبى ـ في ذلك الحين حديث غرام ؟

قالها ليزيل خوفها . .

فابتسمت على رغم ذلك الخوف واجابته قائلة :

أتظن اني ابوح لحبى بغرامي ؟

– نعم كما تبوح هي بذلك الغرام قبل ان تحرقها ناره ..

قالت : اقسم برأس ابي انك اخبث الناس

– اجل.حتى ان هذا الخبث يدخل الى القلوب فيرى ما فيها من صور الحب .

قالت : لقد بحت لك بكل ما في الصدر فخيل اليك انك تعرف كل شيء .

– ولكن حبى لم تقل لي كلمة ..

– وماذا تعرف عن حبى ايها اللعين ؟

– اعرف ان فؤادهـا اليوم يكاد يذوب .. نعم .. يكاد فؤادهـا اليوم يذوب يا مولاتي ، كما يذوب فؤاد ليلى .

ثم قال : وهذان القلبان العاشقـان المضطربان ، قلب حبى وقلب ليلى ، لا يصبران ، أليس كذلك ؟

فاحمرت وجنتاها وجعلت تنظر الى الافق .

قال : لقد هاج بك الشوق وذكرت صفوان ..

قالت : اسكت يا عبدالله ..

قال : الا تطيقين ان تسمعي اسمه ؟ لقد كنت بالامس تعبدين هذا الاسم فويل للزمان كيف يغيّر الانسان .

– قلت لك اسكت يا عبدالله ..

فاستطرد قائلا ولم يبالِ :

أتسمحين لي بان اظن ان صورته امحت من هذا القلب ؟

– لك ان تظن ما تشاء .

– ولكنك عاهدته على الوفاء وسيسأل اباك بعد عودته ان يزفك اليه،أنسيت هذا ايضـاً ؟

– نسيت كل شيء فلا اذكر من حياتي الا هـذه الساعة التي اسمع فيهـا حديثك العذب ..

– ومع ذلك فحبى لا تنسى قصياً ..

– ومن قال لك انها تحبه ؟

ـ رأيت هذا الحب في عينيها الذابلتين ..

ـ اراك تقرأ ما في العيون والقلوب كأنك كاهن العرب، أفلم ترَ الحب ايضاً في عيني ابن كلاب ؟

قال : لو رأيته لعرفت ما تسألين عنه ، ولكن قيل لي انه عـاشق وقد فتن بحبي وسينتهي الأمر بين الاثنين بالزواج .

قالت : رأيته كما رأيناه مع اخيه زهرة ذاهباً الى الكعبة وراء وفود العرب، ثم رأيته يحادث حاجب البيت بعد خروج الحجاج وهذا يكفي ..

ـ اجل يكفي وهو عاشق كما ذكرت واعتقد انه باح لخليل بهواه فوعده بابنته .

فتنهدت قائلة : يبوح جميـع العشاق بحبهم إلا صفوان ..

ـ وذلك لانه يخشى ان تخونه تلك الفتاة التي احب .

قالت : كذبت فليلى لا تخون .

فرفع صوته قائلاً : من يعلم، فجبير بن عبادة حي وهو العاشق الاول لذي تلكرين فيه ..

فاضطربت لذكر ذلك الاسم . والتفتت الى الوراء تبحث بنظرهـا عن المرأة السوداء .

ولكنها لم ترها ..

غير ان عبدالله كان اصدق نظراً ..

فقد أبصر تلك المرأة جالسة كالصنم بين صخرين وخيل اليه ان رأسها الذي لا يتحرك لاصق بالكتفين ..

فاصفر وجهه ، وخطر له خاطر اهتز له جسمه .

وجعل يقول في نفسه : قد تكون ليلى مصيبة في هذا الخوف ، وقد تصدق الظنون .

ثم قال وهو يخفض صوته : هذه هي المرأة يا مولاتي اني اراهـا ، ولكن لا تخافي .

فتمتمت قائلة : اتنظر الينا

– نعم وكأنها في جمودها قطعة من الصخر .

فوضعت يدها على كتف عبدالله والتفتت بدورها فرأت مـا رأته في المرة الاولى فاختنق صوتها وكادت تسقط على الارض .

وعبدالله لا يحول نظره ، وهو يفكر في ذلك التمثال الجالس الذي لا عنق يحمل رأسه .

ثم هامسها قائلاً : ماذا ترين ؟

– ارى سهمين نارين يخترقان الحجاب .

– ماذا ؟

– وارى فما مفتوحاً يقذف اللعنات .

قال : ليلى ؟ .

فرددت تقول : فماً مفتوحاً . نعم٠ واكاد اسمع ما يرسل من الالفاظ. انظر. الا ترى وجهها الاسود وجه نمر ويديها يدي ذئب ؟ .

وكان ذهن عبدالله قد امتلأ ظنوناً ونفسه امتلأت رعباً وهو لم يبصر شيئاً مما تقوله الفتاة .

وما لبث حتى صاح قائلاً :

من انتِ ايتها المرأة ؟

فحبست ليلى انفاسها لتسمع الجواب .

لكن السوداء لم تجب .

غير ان الاثنين رأيا صدرها يعلو وينخفض كأنها تتنفس بتعب .

فاعاد عبدالله قوله ، وكأنه يخاطب الصخر ..

فتناول رمحه الذي لا يفارقه ومشى متثاقلاً مشي المضطرب الخائف يكرهونه على اقتحام الغمرات .

ولم يكن عبدالله جباناً ، غير ان تلك الفكرة الغريبة التي فاجأته ملكت عليه جميع مشاعره ..

وقد بدا التردد والضعف في مظهره. ولعله كان يخشى ان يهاجم عجوزاً فيقول

الناس في مكة : ان عبدالله مولى زياد بن كعب شهر سلاحه على النساء .
وكادت ليلى تدعوه الى الرجوع لو لم يقف صوتها عند الشفتين .
وفي تلك اللحظة نهضت المرأة ، غير مروعة ولا مذعورة وانثنت الى الوراء فتوارت عن العيون .
فذهب الرعب الذي استولى على عبدالله ووثب الى الامام .
فرأى العجوز تقفز فوق الصخور كما يقفز الفتى في العشرين من عمره ، وقد رفع الهواء ثوبها فبان السيف ، ومال حجابها فظهر رأس جبير وعنقه !!
فارتجفت ركبتا عبدالله ووقع الرمح من يده .
ان ظنونه لم تكن كاذبة كما رأيت ، وذلك الخوف الذي دب في جسم ليلى لم يكن في غير موضعه .
ثم لفتت الناقة نظره وهي ترعى ، فخطا اليها بضع خطوات وهم بان يقبض على الزمام فنفرت كما نفر صاحبها واتجهت الى الطريق الذي تعرفه .
فوقف قليلاً وقد اصيب بالذهول . ثم لمعت عيناه وابتسم ابتسامة التهديد والحقد ، وحمل تلك الابتسامة راجعاً الى مولاته .
فقالت له : ماذا رأيت يا عبدالله ؟
قال : رأيت عجوزاً تجر رجليها جراً اذا مشت .
قالت : كذبت فلها خفة الفتيان .
– اتتهميني بالكذب وقد كدت انزع حجابها لو لم تستغث .
– ولماذا سقط الرمح من يدك ؟
– لم يسقط بل القيت به كي لا تراه فتملأ الجبل صراخاً .
قالت : لولا هذه الصخور لأبصرت كل شيء .
قال : اذا اردت ان تري وجه الشيطان فاتبعيني .
– واين هي الآن ؟
– بالقرب من ناقتها الجرباء وقد عادت الى البحث عن الاعشاب .
– ألم تسألها سؤالاً ؟

– سألتها ان تذكر لي اسمها فضحكت قائلة :
العربي لا يسأل المرأة عن اسمها اذا كان نبيلاً ..
ورفعت حجابها ثم قالت :
خير لك ان ترى وجهي من ان تعرف اسمي ..
فاذا وجهها يا مولاتي وجه قرد وقد يكون ابوها من تلك القرود التي تحمل الينا من الحبشة .
فضحكت وقد زال خوفها ، ولكنها ابصرت عندئذٍ في آخر المنحدر ، انساناً يلبس السواد وناقته وراءه ..
وبينها وبين ذلك الموضع اكثر من الف ذراع .
فقالت : انظر اليها فقد فرّت وانت تقول انها هنا تفتش عن العشب !.
قال : لو كان لها جناحا طائر لما وصلت الى ذلك المكان .
قالت : دلني على الموضع الذي تركتها فيه .
فأومأ الى الصخرتين اللتين جلست المرأة بينهما وهو يقول : انها هناك .
قالت : امشِ امامي فانا اريد ان أراها .
فتقدمها كأنه واثق بصحة قوله .
ولكنهما لم يريا غير الشوك ..
فنظرت اليه نظرة عتاب ..
فقال : لعلها انتقلت الى موضع آخر .. اذ لا اصدق انها تستطيع في لحظة واحدة ان تبلغ بيوت مكة .
قالت : أتكذب أيضاً ؟
– وما الذي يدفعني الى الكذب والقضية قضية عجوز ليس لك معها شأن ، أأعرفها واكتمك خبرها ؟
– بل تعرفه وتكتمني خبره ..
فتجاهل الأمر كأنه لم يسمع .
قالت : لقد كان عجوزك رجلا وانت تخفيه ..

فتمادى في تجاهله ثم قال : رجلاً وانا أخفيه ؟

– نعم .

– ومن يكون ذلك الرجل ؟

– ليس هنالك غير رجل واحد أبغضه وأخافه هو جبير بن عبادة .

فرنت ضحكة عبدالله في ذلك الخلاء ثم قال :

أتستسلمين للاوهام الى هذا الحد ؟

قالت : لم يكن حديث القلب وهماً . ان ابن عبادة يلبس ثوب المرأة ليخفي وجهه فيستطيع ان يطوف في مكة ساعة يشاء ويرى من يشاء وهو آمن ..

– أتظنين ؟

– بل انا واثقة ، فقد ذعرت في المرة الاولى وعاودني الآن هذا الذعر .

قال : والخوف يفعل اكثر من ذلك . ان جبيراً ليس له في مكة وجود واعتقد انه ترك الحجاز كله هارباً من زياد .

– اما انا فلا أصدق حرفاً مما تقول .. لقد رأيت بعيني ما لا أنساه وانتهى الأمر .

– وماذا رأيت يا مولاتي؟رأيت عبدة ضعيفة عاجزة تتبع ناقتها الى المراعي.

– بل رأيت رجلاحجازياً صبغ وجهه ويديه بالسواد وغطى رأسه بالحجاب ليستر حقده .

ثم قالت : وسأنقل الى أبي ما رأيت فقد يقتله الاستخفاف .

– ويسألني فأقول لا ..

قالت : ورأس ابي لئن صدقك ابي ولم يصغ الي لأقتلن نفسي .

قال : والآن ؟

– والآن فعد بنا الى القصر فانا لا أطيق البقاء في هذا الموضع الذي يجعل النساء رجالاً ..

ومشت كأنها لا تريد ان تسمع جواباً ..

فحاول استبقاءها ريثما تغيب الشمس فلم يفلح .

ثم أراد ان يستعيد هدوءها بالفاظه الخلابة فلم تسمع .
فرأى ان يعترف لها بكل شيء قبل ان ترى زياداً .
فقال : ألا تثقين بي يا مولاتي ؟
– وهل أثق برجل يهزأ بي ويطمع بي عدوي ؟
قال : لقد رأيتك خائفة ففعلت .
فالتفتت اليه قائلة : ماذا ؟ أتعترف ؟
– نعم فالمرأة السوداء هي جبير وقد رأيت ان أقص خبره على مولاي زياد وأسأله ان يكتمك اياه ..
- وما هي غايتك ؟
– غايتي ان يطمئن القلب فلا يعكر صفوه ابن عبادة .
قالت : أعرفته ؟
– نعم كما اعرف مولاه عدوان وسأقبض على الاثنين .
قالت : أتراه يريد ان يقتلني في هذا الجبل ويقذف بجثتي بين هـذه الصخور فتأكلها الطير ؟
قال : انه اضعف من ذلك ..
– بل هو اقوى مما تظنون . انكم اربعة تبحثون عنه . انت يا عبدالله وابي وصفوان ويزيد بن ربيعة، وهو لا يبالي ولا يعبأ بكم كأنكم ليس لكم وجود . ثم اسمعكم تقولون سنقبض عليه وارى انكم ستقبضون على الهواء .
قال : لم يقم في الأذهان ان الرجل يصبح عبدة ..
– كذلك لا يقوم في اذهانكم انه سيمسي غداً جارية حسناء تفتن الفتيان في الأسواق ...
قال : يكفي انه يقيم بمكة وعلينا الباقي .
قالت : لو لم تكن جباناً لقبضت عليه الساعة قبل ان يخطو خطوة واحدة.
– ولكنه فرّ وترك ناقته ..
– ومع ذلك فقد كنت قادراً على اللحاق به .

– وانت يا مولاتي ؟ أتبقين وحدك والغلمان في المرعى ، وليس حولك احد من عبيد القصر ؟

قالت : لقد عرفت ان ذلك سيكون عذرك لو تبعته لعرفت مقره على الاقل ولم يكن عليّ خطر .. تعالَ الآن فقد كتب لي ان أحمل همـــاً جديداً ترزح تحته جبال مكة .

وسارت امامه والدموع تجول في عينيها الصافيتين .

وكان عبدالله يقول :

لا بدّ لي من العثور على الغادر ولو أقام بالغمام .

* * *

رأيته يا مولاي ورب الكعبة .

فقال زياد : ويلك من هو ؟

– جبير بن عبادة ، بقامته القصيرة وضخامة جثته .

فحسبه زياد مازحاً فقال :

ألم تعانقه ايها اللعين ؟

قال : لو استطعت لوضعت سنان رمحي في ظهره .

– اذن فانت جاد فيما تقول .

– نعم يا مولاي ، واقسم برأسك .

– واين رأيته ؟

– في البقعة الحمراء يرعى ناقةً له ..

قال : وهل يرعى هذا النذل النوق وهو اغنى اهل مكة بفضل ذلك المال المسروق ..

– لم يكن في تلك الساعة رجلا يا مولاي .

– وماذا كان اذن ؟

– كان عجوزاً واهية القوى مرتجفة الرجلين ..

– وكان محجباً ؟

– نعم .
– وكيف عرفته ؟
– دلتني عليه مولاتي ليلى .
فخيل الى الامير ان الغادر تصدى لابنته ، فقال والغضب في عينيه : قل لي يا عبدالله أرأته مولاتك ليلى وجهاً لوجه ؟
– لا يا مولاي فقد لفتت نظرهـا هـذه العجوز من قبل ثم رأتها اليوم فاستيقظت الريبة في نفسها وقام الشك في نفسي ففضح جبير ..
– وكيف ذلك ؟
فقص عليه حكاية الرجل حتى انتهى الى ساعة فراره ، فقال زياد : ولكنك تقول انه فرّ ولم ترَ وجهه .
– نعم غير ان ذلك الفرار كان وبالاً عليه فقد رفع الهواء ثوبه فرأيت سيفاً وبانت العنق من تحت الحجاب فاذا هي عنق جبير .
فاطرق قليلاً ثم قال : وهل يكفي هذا ؟
– اجل يا مولاي فالعرب لم ترَ قط امرأة تحمل سيفاً .. ثم اني عرفته من مشيه . انه اذا ركض فكالجمل الهائج لا يدري اين يضع قدمه .
– ومع ذلك فليس لي ان اصدق حكايتك ..
قال : ومع ذلك فقد رأت مولاتي ليلى عينين ترسلان من تحت الغطـاء ناراً عرفت انهما عينا هذا اللعين ..
وكان الغضب كما قرأت يملأ صدر زياد . وزاد غضبه عندما روى له عبدالله الحكاية كما جرت .
فنهض عن مقعده وقال : لو خبرني غيرك ان ابن عبادة باقٍ في مكة لما صدقت . أيجسر هذا النذل على الاقامة ببلد طردته منه ؟ انه اذن من المتمردين على الامير ولم يفعلها في العشيرة احد قبله .. ولكن سنرى من يفوز أخـيراً وكيف ينتهي الأمر بين الامير ورجل من رعيته ..

وأومأ اليه بأن يتبعه الى حجرة ابيه .

فلما مثل الاثنان بين يدي الشيخ ، انفجر ذلك المرجل الذي يغلي وارتفع صوت زياد قائلاً :

لقد عبث بي ابن عبادة واستخف بشأني فهو مقيم بمكة وقد ابصره عبدالله وليلى .

فجعل ابو زياد يتفرس فيها ثم قال :

وربّ الكعبة لا يفعلها فتى مثله الا ووراءه قوة تحميه وجيش يلجأ الى صفوفه . فأي خبر هذا الذي تحمله يا عبدالله ؟

قال : انه مثل جميع الأخبار التي يقصها عليك الناس .

قال : اصبت ، فادع ليلى .

قال : أيشك مولاي ابو زياد فيما انقله اليه ؟

– هو ذاك فناد ليلى ولا تتردد ..

ولكن ليلى اقبلت دون ان يدعوها احد .

ففاجأها جدها بقوله : أرأيت جبيراً يا ليلى ؟

– نعم يا مولاي وكنت اظن انه هو قبل ان يلحق به عبدالله ويرى سيفه ورأسه .

– وما هو خبر السيف والرأس ؟

فاعادت عليه ما ذكره عبدالله لزياد .

قال : اما الآن فقد صدقت وكنت احسب ان الغادر ظهر للناس في مكة وهو سافر الوجه .. والآن ماذا ترى يا زياد ؟

– أرى ان يطوف رجالنا في مكة في ظلام الليل بل في وضح النهار حتى يقبضوا على هذا النذل ولو كان جاثياً في جوف الكعبة على اقدام الآلهة .

قال : ان الرجال لا تستطيع ان تعرض للنساء في الاسواق . وانت يا ليلى ماذا تقولين ؟

– ليس لي رأي في هذا يا مولاي .

ـ وانت يا عبدالله ؟

ـ اما انا فأرى الطواف في مكة على الصورة التي ذكرها الامير غير مثمر ولي دليل على ذلك .

ـ ما هو ؟

قال : سيخلع جبير ثوب المرأة ويلبس سواه ..

قال : ماذا ؟ يتردى ثياب ملك ويضع التاج على رأسه ؟

ـ بل يتردى الاطمار البالية كأنه احد الصعاليك وقد يجلس حول حياض الماء امام الكعبة مع فقراء العرب يمد يده الى المحسنين .

قال : ويستمر في مجلسه هذا حتى يرسل أمير صوفة من يلقي القبض عليه . أليس كذلك ؟

قال : انك هازيء يا مولاي .

ـ وكيف لا أهزأ وانا اسمع مثل هذه الاقـــوال .. أتظنون ان ابن عبادة ابله حتى يستلقي امام الكعبة عارضاً وجهه على الناس وهو يعلم انكم تطلبونه ؟ لقد مضت الشهور وهو بينكم ولم تعثروا عليه حتى قام في اذهانكم انه ترك مكة ، بل ترك الحجاز كله . ولكنكم لم تسترسلوا في هـــذه الظنون حتى ظهر فجأة في البقعة الحمراء يصغي الى ما تقوله نساؤكم ويحصي عليكم الانفاس .

ثم قال : واني لا احب ان أسمع ماتقولون الآن . لقد كان عليك يا عبدالله ان تتبعه وتترك ليلى في الموضع الذي كانت فيه دون ان تظهر ذلك التردد الذي ذكرت . . ضيعتموه اليوم وستضيعونه غداً وقـد يأتي يوم تحاولون فيه ان تمنعوا شره فلا تستطيعون .

وجعل يتنهد كما يتنهد المريض .

فقال زياد : ولكن قل لنا يا مولاي ماذا نصنع ؟

قال : قل لي يا عبدالله أي طريق سلك في فراره .

فاجابه قائلاً : الطريق الذي ينتهي وراء المطاف .

قال : اذكر ان هنالك بيوتاً لخزاعة .

– ان البيوت يامولاي أبعد مما تظن .
– ومع ذلك تذهب الليلة الى ذلك الموضع وتسأل اهله .
قال : امل علي السؤال اذا شئت .
– بل يمليه عليك دهاؤك اذا كان باقياً .
– اذن اسأل عن المرأة السوداء التي مرّت وراء المطاف عند المساء تتبعها فاقتها .
– احسنت وكن نجدياً او عراقياً فذلك اولى ..
فقالت ليلى : ان الدخول الى بيوت الناس في هذا الليل يلفت نظرهم فاتركوا ذلك الى الصباح .
فاطرق الشيخ ملياً وقد أعجبه الرأي ثم حنى رأسه كأنه يوافقها فيه .
وبعد ان سكت قليلاً نظر الى ولده قائلاً :
اوصيك من الآن يازياد ان تحذر النساء المحجبات
– نعم .
– وان لا تخرج من القصر وانت اعزل ..
– ما كنت لأخرج بدون سيف ..
– وانت فافعل يا عبدالله كما يفعل مولاك .
ثم رمى وسادة كانت في حضنه وهو يقول :
يستهين ابن عبادة بأميره ورئيس عشيرته ويبقى حياً ؟ انه ذل لنا لانطيقه ولا نصبر عليه ..
فتمتم زياد قائلاً : طب نفساً يامولاي فسأداوي ذليّ .
وبات القوم ليلتهم وهم غاضبون لشرفهم . وفي ساعات ذلك الليل الاسود الطويل كانت ليلى تفكر في صفوان ..

* * *

في آخر الطريق الذي ينتهي وراء الكعبة من جهة الشرق صخور برزت من بطن الجبل وامتدت في الفضاء . فجعلت ما تحتها مغاور او ما يشبه المغاور .

وبالقرب منها جدار من التراب الاحمر المتماسك جبلته يد الطبيعة واثبتته في ذلك الموضع ملجأ يستريح في ظله الطالعون والنازلون .

والبيوت كما قرأت تبعد اكثر من مئتي ذراع من جهة الجنوب ، لكن الناس يروحون ويجيئون بين الطريق الذي ذكرنا وذلك الطريق الآخر الذي يؤدي الى الحي .

فلما وصل عبدالله في الصباح الى ذينك الطريقين ، رأى النساء والغلمان ينقلون الماء في قربهم من حياض الكعبة ومن الآبار . وهو يعلم انهم يفعلون ذلك في كل صباح وكل مساء .

وكان بلباس اهل اليمن ، وهو يقلد لهجتهم .

فقال لأحدى الجواري : أتحملين هذه القربة كل يوم ؟

احملها مرتين . قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

– اذن فانت ترين كل من يمر وراء المطاف .

قالت : لا أعبأ بمن أرى فالناس يمرون بالعشرات ولا شأن لي مع احد .. اغريب انت ؟

– نعم وقد جئت من اليمن منذ بضعة ايام لأقيم بمكة

– وماذا تصنع فيها ؟

اعيش من ناقة لي ومن فضالات الحجاج .

فحولت وجهها تريد الانصراف .

فقال : ولكن ضيعت ناقتي امس كما ضيعت زوجتي .

فضحكت قائلة : اما الناقة فقد تنضم الى ما نراه من طوائف النوق في هذا الوادي . واما زوجتك فلا تضيع الا اذا كانت حسناء ...

ثم قالت : أتقيمان في خباء ؟

فاجابها وهو لايعلم ما تعنيه : نعم .

قالت : وخرجت في بعض شؤونك ثم رجعت فاذا باب الخباء قد تحول وافلتت زوجتك من يدك ..

« وهي تريد بذلك ان زوجته طلقته »

« كانت النساء في الجاهلية يطلقن ازواجهن بتحويل باب الخباء »

قال : لا، بل خرجت في الصباح ترعى الناقة وراء هذا الجبل ولم تعد وقيل لي انها مرّت من هنا ..

– امس ؟

قال : امس .

فشت وهي تقول: اعرف جميع نساء الحي فلم ار هذه الزوجة التي ضيعت.

وكان هنالك غلام يسمع الحديث فقال له :

– اما انا فقد رأيت ناقة تتبع رجلاً ..

– أين رأيته ؟

فأومأ الى الجدار الترابي قائلا :

رأيته يثب من وراء هذا الجدار ، يستر وجهه غطاء اخضر وفي يده بعض الثياب ...

– والناقة ؟

– واما الناقة فكانت تسير وراءه وهو لا ينظر اليها .

قال : أتصفه لي ولك درهم ؟

– افعل فهات .

فلما ناوله الدرهم ظهر البشر على وجهه وبدأ يقول :

اصف لك ما رأيت من جسمه . انه عريض الصدر واسع ما بين الكتفين .

– وهو ربعة ؟

– نعم ويطأ الارض بشدة حتى ليخيل اليك وهو يرفع رجليه في المشي انه يصعد سلماً ..

فقال في نفسه : انه هو ورب الكعبة .

وهمّ الغلام بالذهاب .

فاستوقفه قائلا : ولكن قل لي أيقيم بهذا الحي ام ماذا ؟

ـ لا اعلم اين يقيم فقد سار على طريق الوادي ولعله من سكان الخيام فيه .
فخطر لعبدالله خاطر لم يتردد في تنفيذه ، فقال للغلام .
اتبعني ولك خمسة دراهم .
ـ الى اين ؟
ـ الى هذا الوادي الذي ذكرت .
ـ ولكني لا اعرف مقر الرجل لأدلك عليه .
قال : أتعرف مقر زياد بن كعب امير صوفة ؟
ـ اجل وانا من عشيرته .
ـ وهل تعرف الرجل الذي وصفته لي اذا رأيته الآن ؟
ـ اعرفه بعد جيل ولو كان محجباً لأني لم أنس عطيته .
ـ ماذا اعطاك ؟
فتردد قليلاً ثم قال : سقط من يده ثوب يشبه خمار المرأة فناولته اياه فاعطاني درهمين .
قال : ما اسمك ؟
ـ طلحة ..
قال : تأخذ الآن خمسة دراهم كما قلت ثم نذهب الى الأمير فيعطيك ديناراً .
قال : انك أجود العرب يا عبدالله ..
فتراجع الى الوراء ثم قال : ويلك أتعرف من انا ؟
ـ لا تعجب لشيء فأنا من صوفة واعرف مولى زياد ... قل الآن ماذا تريد ...
فوثق الرجل بالغلام وقال : اريد ان ابحث عن صاحب الناقة.
ـ ثم ماذا ؟
ـ فأذا رأيته في الوادي اومأت اليك بالانصراف فتعود الى قصر مولاي وتقول له : لقد عثر عبدالله على الرجل ..
ـ وادله على موضعك ثم ينتهي كل شيء ..

– نعم .
– فهمت فاذهب وانا وراءك .
فاعطاه ماوعده به ومشى امامه الى الوادي ويده على قبضة سيفه ، وهـــو ينظر الى جانبيه كاللص الخائف .
وكان معظم اهل الوادي قد تركوه .ولم يبق فيه غير نفر قلائل تفرقت خيامهم على ضفتيه .
وقد ساد الصمت فيه كأنه خال من الناس .
فلمـا توسطه الاثنان رأيا ناراً مشبوبة عليها قدر ورجلاً جالساً بالقرب منها وهو ينظر الى الارض .
وهو اول رجل وقع نظرهما عليه وكان عدوان ..
والى يساره خيمة بابها مفتوح .
فأشار عبدالله الى طلحة بان يبتعد عنه . وجعل يتراجع قليلاً قليلاً عله يجد له مخبأ يتخفى فيه . فلم يجد ..
وعدوان سابح في فضاء احلامه لا يسمع ولا يرى .
حتى سمع صوتا من داخل الخيمة يناديه .
فقام فدخل ثم عاد على الاثر ليعالج ناره ..
فأبصر رجلاً بلباس اهل بلده يتراجع مذعوراً .
فدنا منه يتبين وجهه فاذا هو عبدالله ..
فوقف الرجلان .. الواحد منهما يتفرس في صاحبه .
والشرر يتطاير من العيون ..
حتى بدأ عدوان الحديث قائلاً : عبدالله ؟ .. لقد ظننت اني أرى رجلاً من اليمن
فاجابه بصوت هادىء : اما انا فلم اظن قط اني اراك في هذا الوادي ..
قال : اتطلبني بأمر زياد ؟
– لا بل ابحث عن رجل سرق جواد الأمير امس .. أتقيم يا عدوان بمكة

وقد أمر الامير مولاك بتركها حتى يرضى عنه ويأذن له في الرجوع .
قال : كنا في خيبر ولم نصل الى هنا الا منذ يومين .
وكان طلحة قد ابتعد وهو لا يسمع كلمة .
فقال عبدالله : ومولاك اين هو ؟
– في هذه الخيمة .
– ومن أذن لكما في المجيء ؟
– لقد كره مولاي ان يقضي العمر كله بعيداً عن بلده منفياً منه فآثر العودة اليه والاستغفار من ذنبه ..
– اذن رأيتما الامير ..
– لا فمولاي مريض لا يستطيع ان يترك فراشه .. ولكن نراه غداً او بعد غد .
فلم يطق عبدالله ان يصبر على اكاذيبه فقال : وهل يلبس مولاك في فراشه ثوب المرأة ؟؟
قال : ما هو ثوب المرأة هذا ؟
– وهل أزال الصباغ عن وجهه ويديه ؟
قال : لا افهم ما تقول يا عبدالله .
وكأن الخبيث بذلك المظهر الرصين الهادىء ، لا يعلم شيئاً من امر مولاه.
ولكن عبدالله لم يبالِ ، بل قال : وناقته التي يرعاها في البقعة الحمراء يا عدوان ؟
– نوقنا في خيبر وليس عندنا هنا منها واحدة .
فأومأ الى طلحة قائلاً : أراك مصراً على النكران ، أتعرف هذا الغلام ؟
– لا استطيع ان أتبين وجهه فمن هو ؟
– أحد غلمان صوفه واسمه طلحة .
– واي شأن له ؟
– لقد رأى مولاك امس يحجب وجهه غطاء اخضر كما رأيته انا يحجب وجهه

غطاء اسود . ومعنى ذلك انه كان عندما رأيته عجوزاً سوداء واما عندما رآه طلحة فكان رجلاً .

فرأى عدوان ان يعمد الى الحيلة ، فقال : لم يبق َمن سبيل الى الكتمان فنحن نعتذر ..

فضحك ضحك الهازيء وهو يقول : اتعتذر في هذا الوادي عن ذنب اتاه جبير ؟

قال : نفعل كل ما تشاء على رجاء ان ينجو مولاي من غضب زياد . اتضمن ذلك ؟

ولمعت في عينيه الدموع ..

قال : وماذا يقول مولاك للأمير اذا رآه ؟ ايقول له لقد حـــاولت قتلك وعصيت امرك فأسألك العفو ؟

– اجل وسينطر على قدميه طالباً هذا ..

– وان لم يرض ؟

– لجأنا الى ابيه أبي زياد واستعنـّا بعبد الله على اقناع الاثنين ..

– ولكن الأمر يعني زياداً وحده .

– وزياد لا يرد سؤال ابنته ..

قال : وهل يجسر مولاك على استعطاف ليلى

– نعم فقد قال لي اليوم انه نادم على مـا جرى وسيظهر للأمير واهل بيته ندمه ويقوم اخلاصه مقام ذلك الطيش الذي لا معنى له .

فتظاهر عبد الله بالتفكير ثم قال : ولكني لا اعلم الى الآن لماذا يسوق مولاك ناقته الى الجبل ويجلس حيث تجلس بنات الامراء .

فابتسم قائلاً : الا تعلم لماذا ؟

– لا .

قال : انه الحب يا عبد الله فجبير يــكاد يقتله هواه ..

واخفى وجهه بيديه كأنه يخجل من تصريحه ..

فانتقل مولى زياد عندئذٍ من دور الدهاء الى دور البلاهة وجعل يقول : آه من الحب ما اقساه انه يخفض الرؤوس الكبيرة ويذل النفوس التي لم تذل .

واشار عليه بان يتقدمه الى الخيمة ليرى مولاه ..

فاشرق جبين الخبيث وانثنى لا يقول كلمة .

وفي تلك اللحظة اومأ عبد الله الى طلحة بالانصراف . كما اتفقا غير ان عدوان رأى اشارته فحفظها في صدره ..

وكان عبد الله المسكين يسير وراء عدوه ، وهو واثق بأنه ظفر به وبمولاه وسينتزع اسرار الاثنين ويحملها الى زياد .

وكانت جميع مظاهره تدل على انه صدق كل ما قيل .. فلما اصبح داخل الخيمة سدل ستارها واحس وقتئذٍ انه بين عدوين تلتهب نار الحقد من صدريهما .

ولم يكن جبير قد رآه . فهاله ان يدخل عليه مولى زياد وراء خـــادمه . وابتسامة الظفر على شفتيه .. فقال لعدوان : ماذا يريد هذا الرجل ؟

قال : ألم تعرفه يا مولاي ؟

– بلى فهو عبد الله مولى زياد بن كعب .. ولكن أي غرض له بهذا الوادي الذي يقيم به اللاجئون الى مكة من الفقراء .

فغمزه بعينه قـــائلا : سرق في الليل الماضي فرس لمولاه فأقبل علينا يطلب سارقه ...

فتكلف الابتسام وهو يقول : ثم ابصرته بـين الخيام فدعوته الى زيارة جبير ابن عبادة الذي لا يطيق ان يرى وجهه.. اجلس يا عبد الله .. ان الخيمة لاتليق بموالي الامراء .

وعبد الله ساكت .. وقد كاد يقتله الندم على دخوله ..

ان عيني جبير كانتا عيني نمر يتحفز للوثوب . وليس على وجهه اثر واحد من آثار الخضوع والذل اللذين وصفهما عدوان .. وقد اقترن ندمه بخوف وذعر لم يشعر بمثلهما منذ ولد الى هذه الساعة ، حتى خيل اليه ان ملاك الموت باسط فوقه

جناحيه .. فهمّ بأن يقتحم باب الخيمة ويستغيث برجال الحي .. غير ان عدوان اللعين فاجأه بقوله :

الخاف يا عبد الله وانت ضيف مولاي ؟

فاستجمع قواه وتمتم قائلاً : لا اجد في هـذه الخيمة سبباً واحداً من اسباب الخوف .

- ولكن وجهك يصفرّ وشفتيك ترتجفان .

- ذلك لانك سدلت هذا الستار والحر شديد كما ترى .. افلا تريد ان ترفعه ليدخل الهواء

- صبراً فسنفعل بعد حين .

لكن ابن عبادة لم يشأ الا ان يعمد الى الجلاء . فقال له :

أيقتلك الحر في ساعة واحدة ونحن نعيش منذ شهور داخل هـذه الخيمة السوداء .

فثبت له في تلك اللحظة كذب عدوان .. لقد قال انه لم يقدم ذلك الوادي مع مولاه الا منذ يومين .. وهذا مولاه نفسه يعترف بان الشهور مرّت على وجوده فيه .. اذن فقد نفد الامر وبلغ عدوان في تلك الحيلة غـايته منه ، ولم يبق الا ان يخفي ضعفه وراء مظهر جديد من مظاهر القوة فقال :

والآن . ماذا تريد ان تفعل .

فقال عدوان : ذكرت لك ان مولاي نادم على مـا جرى منه وسيعتذر لزياد ...

- ولكني لا اصدقك .

- بل تصدق عندما يبوح لك مولاي بكل شيء .. الا تذهب يا مولاي غداً او بعد غدٍ الى زياد فتستغفره ذنبك ؟

ففهم الآخر معنى ذلك الكلام .. فأجابه قائلاً : اذهب ولكن على شرط .

فقال عبد الله : أتشترط على الأمير ؟

- اجل وانت تضمن لي قبوله بما اطلب .

قال : قد تطلب ليلى ...

– آه من ليلى فقد برّح بي هواها وسيبعث بي الى القبر بعد ايام .. ولكن لا .. لا اطلبها ولا ارغب في الزواج الآن بالرغم من هذا الهوى .

– وماذا اذن ؟

– ألبس ثياب المرأة التي كنت ألبسها أمس وامثل بين يدي زياد ..

قال : أتعترف ؟

– وما يمنعني من هذا الاعتراف ؟ ألست مستغفراً ونادماً على ما جرى ؟..

– بلى . اذا كان الباطن يدل على الظاهر ..

– اذن احب ان يراني مولاك بثياب العجوز ..

– والغرض من هذا ؟

– اما الغرض منه فلأقول له اني كنت اعلم من وراء حجاب المرأة ما اريد ان اعلمه من امره .. واني كنت اجلس امام فناء قصره حاملاً قربة الماء فأراه وأرى حبيبتي .. ليلى .. والاثنان لا يشعران .. بل لأقول لك انت .. انت يا عبد الله أني كنت أراك وأرى صفوان بن الحارث ، العاشق الجديد ، تمشيان أمام زياد ووراءه .. كأنكما من حراسه .. وهل تعلم ماذا افعل بعد ذلك ؟ انزع هذا الحجاب واضرب به زياداً قائلاً له : انك يا زياد بن كعب اضعف من ان تمس شعرةً من رأس جبير بن عبادة .. وإنك اذا مسستها فسيكون رأسك ورأس مولاك عبد الله ورأس صفوان بن الحارث ثمناً لها .. افهمت الآن ؟

واستوى جالساً في فراشه وقد احمرّت عيناه من الغضب ..

فجعل الموت يقترب من عبد الله وهو يراه .. لكن اليأس نفخ القوة في صدره . فقال بهدوء :

اذن تعتذر عن عملك بقتل ثلاثة ؟؟

– اجل . ولا آذن بالضرب الا لهذه اليد التي احب ان اراها حمراء مخضوبة بدمك يا لعين ودم مولاك .. وسأبدأ الآن .. خنجرك يا عدوان .

فغمزه عدوان ثانية وهو يقول : لقد خوّفته في مزاحك يا مولاي ..

فقهقه ضاحكاً كأن مزاحه لا ريب فيه . ثم قال : لو خطر لي ان اقتلك الآن يا عبد الله فماذا تصنع ؟

فوضع يده على سيفه قائلاً :

أدافع عن نفسي حتى يفلت السيف من يدي ثم اغمض عينيّ مستسلماً راضياً ...

– ولكنك تقاتل اثنين ..

– لقد تعودت ان اهاجم الثلاثة والاربعة ولا ابالي .

قال : احسنت وكان ذلك في ايام الشباب .. ومع ذلك فلنتحدث الآن ولنبحث في الأمر الذي دخلت من اجله .

وسكت قليلاً ثم قال : أترى ان نقابل مولاك في هذين اليومين ام ماذا ؟

فقال وصوته يرتجف : لك ان تفعل ما تشاء .

قال : نذهب غداً كما سمعت . ولكن اتضمن رضى زياد وسكوته عما مضى؟

فلم يستطع عبد الله الا ان يعمد بدوره الى الحيلة فقال :

واضمن ايضاً رضى سواه .

قال : أراك تعني ليلى ..

– نعم ليلى . ومتى رضيت رضي جميع من في القصر كما تعلم .

– ويأذن لي مولاك في الإقامة بمكة ؟

قال : افكر الآن في شيء آخر أرجو ان يأذن لك فيه ..

– ما هو ؟

– ان يمد اليك يده جاعلاً اياك .. صهره ..

فقال في نفسه : لقد خاف الرجل فهو ينصب لي شركاً يستعين به على الخروج من هذه الخيمة .. وتظاهر بأنه استلذ حديثه فقال : وتعدني بهذا يا عبد الله ؟

– اجل ولا تمر بضعة ايام حتى يتم كل شيء ..

– ولكن اخشى ان تردني كما فعلت بالأمس .

قال : اذا اراد عبد الله امراً ارادته ليلى ...
فضحك قائلاً : اراك تخون نفسك ايها الرجل .
– وكيف ذلك ؟
قال : ألم تقل لعدوان منذ شهور ان ليلى لم تشأ ان تزفّ إليّ !
– بلى .
– اذن بني ذلك الرفض على أمر منك ..
– لا يا سيدي فليلى لم يكن لها بالأمس رغبة في الزواج .
فقاطعه قائلاً : وصفوان بن الحارث ؟
– ما شأنه ؟
– ألم يخطب ليلى ؟
– لا ولكنه يهم بان يطلبها .
– وهل يستهين زياد بن كعب بمنقذ حياته فيبخل عليه بابنته وهو احد سادات كنانة ؟
– ذلك أمر يعني عبد الله ولا رأي لك فيه .
– ولكني احب ان اعلم كل شيء فهل لك ان تقول لي ماذا يكون موقف مولاك ؟
– سيعتذر لصفوان بقوله : انه لايستطيع ان يرد رجلاً من رجال عشيرته له مقام جبير بن عبادة وغناه .
– ومتى كان لابن عبادة مقام ؟
قال : لا تعد الى ذكر الماضي فقد طويناه الآن
قال : اما نحن فما نسيناه .. الا تذكر رجاءنا وكبر مولاك ، والتماسنا وعزه وحب مولاي جبير وعظمة مولاتك ليلى ؟
– اذكر ان الرجال لا تعبأ بالماضي كما قلت .
وكان يطمع في ذلك الهدوء الذي يظهره في واحد من أمرين ، اما ان يعود طلحة مع زياد فينجو من الموت الذي يقترب منه .. واما ان يثق به ابن عبادة

ليأذن له في الخروج .

وليس له في غير ذلك نجاة من ذلك الغول الجالس في فراشه .

غير ان عدوان ، يريد كما قال ، ان يعلم كل شيء قبل الإقدام على الأمر الذي يفكر فيه . وقد اراد في تلك الساعة ان يضرب بيدٍ ويمسح بالأخرى عله يظفر بما في صدره من اسرار . فقال له :

لقد نسينا الماضي كما شئت ، افلا تأذن لنا ان نسألك عن الحاضر .

فظن المسكين ان القدر يمهد له اسباب الحياة . فقال :

سل ما تشاء ؟

قال: قلت ان صفوان لم يخطب ابنة زياد،أتصر على هذا القول ام تعود عنه؟

– يقم في ذهني قط ان اكذب . قلت انه لم يخطب وانا اعيد الآن ماقلت.

ثم رفع رأسه قائلاً : وهـــل سمعت ام رأيت ان أمير صوفة احتفل بخطبة ابنته ؟

– لا ، ولكني حسبت ا ن هذا الاحتفال سيكون بعـد رجوع صفوان من بصرى ، أليس كذلك ؟

– نعم اذا تمت الخطبة ، فاذا اراد جبير ان يطلب ليلى فليعجـل في الامر قبل ان يرجع الرجل .

قال : اصبت فخير البر عاجله ، ولكن من هو ذلـــك الفتى الذي يرافق صفوان في اسواق مكة ؟

– انه احد فتيان الشام وقد رآه صفوان في يثرب .

– ويظهر انه كان يعرفه من قبل .

– بل عرفه فيها كما قيل لي .

– واي غرض لهذا الشامي بالحجاز ؟

– ليس له فيه غرض ولكنه ترك ربوع الشام فراراً من جنـــد النعمان بن امرىء القيس الذي كان رسول الفناء والدمار .

قال : لقد خيل اليّ انه خطيب آخر واننا كنا بواحد فصرنا بين اثنين . ما رأيك يا مولاي فيا يقول عبدالله ؟

قـال : نطلب ليلى من جديد فنار الغرام تضطرم في هـذا الصدر وليس لنا قوة على الاحتمال بعد ؛ ولكن نسألك الآن يا عبدالله سؤالاً آخر نستعيد بـه حوادث امس .

قال : اتعود الى ذكر المرأة السوداء ؟

– اجل فخبرني ماذا قالت ليلى عندما عرفت اني جبير ؟

– استولى عليها الذعر واومأت الي بان اتبعك .

– ورأيتني اثب من صخرٍ الى صخرٍ فوقفت وانت لا تستطيع ان تلحق بي.

– نعم .

قال : لقد بت ليلتي وانا افكر في سيفك .

– وبت انا وباتت ليلى ونحن نفكر في ثوبك .

قال : ولو استطعت ان تقتلني في تلك اللحظة لفعلت افلا تعترف بهذا ؟

– كنت قادراً على اللحاق بك ولكني لم افعل .

قال : هذا هو الخوف كله . امـا انا فعندما استطيع ان اغمد خنجري في صدرك اغمده ولا اتردد .

ونهض عن فراشه وهو يبتسم ابتسامة ابليس .

فجرد عبدالله سيفه وهو لا يدري ماذا يفعل . لكن ذلك السيف سقط من يده قبل ان يرفع تلك اليد .

مسكين عبدالله . انه بين غادرين . عدوان من الوراء . وجبير من الامـام والاثنان من امهر العرب في خطف ارواح الابرياء .

فصاح قائلاً : لقد خسرت ليلى يا ابن عبادة .

فاجابه وهو يتناول خنجره : امـا انت فقد خسرت حياتك ، وضربه في صدره ، فتراجع الى الوراء . ولكن خنجر عدوان غـاص في ظهره . فخطا خطوتين كما يمشي السكران ، ثم وقع على الارض وهو يقول بصوتـه المرتجف المتردد في صدره :

ويل للغادرين .

اما الاثنان فقابلا سقوطه بابتسامة هزء غريبة ونظر الواحد منهما الى الآخر نظرة الرضى والاعجاب .

وكان الدم يخرج من فم عبدالله .

فقال جبير : اتبخل عليه يا عدوان بضربة اخرى وانت اجود الناس ؟ .

قال : ما تعودت يا مولاي ان اضربُ ضربتين .

– اما انا فقد تعودت ان اضرب ثلاثاً . واهوى له بخنجره بين الاضلاع .

غير انه ضرب جثة خرساء . فعبدالله الوفي لمولاه ، المخلص لآل كعب كان قد اسلم الروح .

فأخذ عدوان سيفه . وجعل يحفر مع مولاه في ارض الخيمة قبراً للضحية المضرجة بالدماء .

ودفناه . وكانت صلاتهما الاخيرة على القبر ، ضحكة ملأت جوانب الخيمة.

* * *

عندما هم عبدالله بالدخول الى الخيمة ، اشار على طلحة بالذهاب كما قرأت .

وكانت عينا عدوان تبصران كل شيء . فلم يتردد طلحة في الرجوع . ان ذلك الدينار الذي وعده به عبدالله ينتظره في قصر زياد بن كعب . وليس عليه الا ان يتعجل في مشيه ليراه بين يديه .

فلما وصـــل الى القصر ، كان زياد يطوف في حي بني صوفه ويصغي الى حاجات القوم .

فقالت له ليلى : ما هي حاجتك ايها الغلام ؟

– اريد ان ارى مولاي الامير فانقل اليه كلاماً .

قالت : انقل هذا الكلام الى ابنته .

فتمتم قائلا : اذا فعلت يا مولاتي خسرت ديناراً .

– ويلك فمن يعطيك هذا الدينار ؟

– مولاي زياد .

– وان لم يعطك ما ذكرت ؟
– اعود الى من ارسلني فأطلبه منه .
قالت : ادخل ففي القصر ابو زياد وهو يعطيك ما تشاء .
فمشى الغلام وهو يتردد في مشيه حتى اقبل على الشيخ فاعاد عليه ما قاله لليلى.
فجعل ابو زياد يتفرس فيه ثم قال : ممن انت ياغلام ؟
من صوفة يا مولاي .
– أأنت محتاج ؟
قال : من دلائل هذه الحاجة اني لا املك غير هذه الثياب التي ألبس .
قال : نعطيك دينارين ونجعلك خادماً في القصر ايرضيك هذا ؟
فجثا الغلام على ركبته وهو يقول: ذلك فوق الحاجة يا مولاي فالشكر لك .
– اذن فاذكر الآن من ارسلك .
قال : عبدالله . ويخيل اليّ انه عثر بالرجل الذي يطلبه .
قال : ماذا ؟
– نعم يا مولاي فقد رأيته بعيني يدخل الى خيمته في الوادي .
ثم قصّ عليه حكايته مع عبدالله .
فنادى الشيخ احد عبيد القصر وقال له: ادع مولاك الساعة فانا بحاجة اليه.
ثم قال لليلى: اتظنين ان ابن عبادة يقيم بذلك الوادي الذي يلجأ اليه الغرباء؟
– لقد اصبحت الآن واثقة بهذا .
– اذن فحياة عبدالله في خطر واخشى ان تضيع . قم ايها الغلام فابحث عن مولاك في الحي ، انك تعرفه كما قلت فلا تتردد . وانت يا ليلى فاختاري بعض رجال القصر ليرافقوا اباك الى الوادي فالامر أعظم مما نظن . قومي الآن ولينصرف زياد عند قدومه قبل ان يفوت الاوان .

وكان الناظر الى ابي زياد يرى الذعر البادي على وجهه .

وقد خافت ليلى لخوف جدها وقامت تعدّ الرجال وترسل الرسل الى الحي تستعجل اباها . لكن هؤلاء الرسل لم يعودوا ، ولم تجد أثراً لزياد .

كان الناس يبحثون ويفتشون عنه وكان القدر الجائر يخفيه عن العيون ليقتل عبدالله في سبيل اخلاصه . ان زياداً لم يكن في الحي في ذلك الحين . بل كان قد تركه منذ ساعة ذاهباً الى قصر حاجب البيت .

ولما عرفت الغلمان ذلك . كان ذلك القدر قـد نفذ . وعبدالله الذي ينتظر قدوم مولاه ، كان قد غيبه التراب .

* * *

قيل لزياد وحليل يسمع :

ان عبدالله يدعوك اليه .

فأجابه وهو غير واثق : من انت اولاً واين تركته ؟

ـ امـا انا فخادم في قصرك يا مولاي . واما عبدالله فقد تركته في مضرب الرجل الذي يطلبه بأمرك .

فدبت الريبة في صدره ، ونهض ليقبض على ذلك الغلام الكاذب الذي يهزأ به امام سادن الكعبة .

انه لم يكن خادماً في قصره كما زعم ، وهو يعرف عبيده وغلمـانه . لكنه لم يمهل حتى رأى خدم القصر ، فأعاد عليه احدهم ما سمعه من ابي زياد . فوثب الى الخارج وهو يقول : قتل عبدالله ورب الكعبة .

وتقدم خدمه الى الوادي وهو لا ينظر الى الوراء .

فحاول حليل ان يعلم من هو الرجل الذي عناه الغلام فلم يستطع لأن زياداً كان قد ابتعد ، وطلحة وراءه .

ولا يبعد الوادي اكثر من نصف فرسخ فلما سار زياد في طريقه اومـأ الى طلحة بان يسبقه اليه ، والى خدمه بان يرجعوا الى القصر .

أجل ، لقد كان واثقاً بقوته . واثقاً بسيفه وهو قادر مع عبدالله على اقتحام الجيش الكثير . وكان يقول في نفسه : لم يبق علي الا ان أحمل بيدي رأس جبير . ويحمل عبدالله رأس مولاه اليمني . حتى بانت الخيمة وأشار اليها طلحة .

فخفق فؤاد الامير وارتجفت ركبتاه . ان الناس القلائل النازلين على الضفتين

يروحون ويجيئون . والهدوء يسود الوادي ومظهر الخيمة الخـــارجي مظهر مضرب هجره أصحابه فسدلت استاره ، لولا ناقة لا زمام لها تدور حولها. فلما وصل وقف قليلاً علّه يسمع صوتاً ، فلم يسمع ، فشهر سيفه ورفع به الستار ثم دخل ، ولكنه لم يرَ غير الجدر السوداء . فنظر الى طلحة والغضب في عينيه ثم قال : أتخدعني يا لعين ؟

فتراجع الغلام الى الوراء قائلاً: لا يا مولاي فقد رأيت عبدالله يدخل من هذا الباب ..

قال : اقسم .

قال : أقسم بمن بسط هذه الارض اني لم اكذب .

– ولكني لا اجد احداً كما ترى ، ارفع الستار الآخر ..انها خيمة من خيام الامراء لها بابان ..

فرفعه ، فابصر فراشاً .. ورحلاً ، وقربة فيهـا مـاء ، وعباءة سوداء تكاد تبلى ، وبساطاً صغيراً هو ثلاثة جلود من جلود الغنم ربط الواحـد منهـا بالآخر وجعلت امام الفراش ..

ولم يكن قد رأى شيئاً من ذلك، حين دخوله . فجعل يتفرس في تلك البقايا وهو ذاهل.ثم همّ بالخروج ليستدعي احد الجيران ويسأله عن صاحب هذا البيت.

فصاح طلحة : أرى دماً يا مولاي !!. وأوما الى البساط الابيض .

فانحنى زياد ليرى ، ثم جحظت عيناه وتجهم وجهه .. نعم لقد رأى دماً . وهذا الدم لم يجف ..

ثم قال : ارفع يا طلحة هذه الجلود ..

ففعل . فابصر التراب مصبوغاً بالدم، وآثار الحفرة الجديدة ظاهرة للعيون.

فمرت سحابة سوداء امام عينيه . واضطرب كما تضطرب الغرسة الضعيفة في مهب الهواء .. ثم خاف ان يسقط فجلس على ذلك الفراش الملوث بالجريمة وهو لا يعلم ماذا يفعل ..

غير ان طلحة كان في تلك الساعة اعـلم منه . فقد فتش فلم يجد خشبة يحفر

بهـا الأرض ، فعمد الى الرحل فكسره واخـذ قطعة منه وجعل يحفر ويستعين بيديه على رفع التراب المجبول بالدماء حتى بان رأس عبدالله ووجهه المصبوغ .
فغطى زياد وجهه بيديه وتمتم قائلاً : ماذا ترى يا طلحة ؟!.
فساد السكوت ..
فأعاد كلمته وهو يكاد يختنق .
فقال : الشعر يشبه .. شعر عبدالله .. اما الوجه .. فيغطيه الدم .. فصبراً يا مولاي . ان في القربة ماء أغسله به فتظهر ملامحه .
وقام فحمل القربة واخذ يصب منها على ذلك الوجه الأحمر حتى رأى مـا اراد أن يراه .
فتنهد قائلاً : انه عبدالله يا مولاي !!
وكان الأمير لم يزل مطرقاً ووجهه بين يديه . وهو لا يجسر ان يرفع نظره الى الجثة .. زياد بن كعب احد قواد الحجاز ، خواض الميادين ومقتحم غمرات الموت ، لا يجرؤ على النظر الى جثة موضوعة في حفرة .
انه ضعف لا يليق بقواد الجيش .
ولكن عبدالله وجد في قصر كعب قبل ان يوجد زياد . وكثيراً مـا رقص بين يديه ولعب في حضنه . ثم ربّاه ورافقه في حروبه ومغازيه فكان كالعبد الامين يتبع مولاه الى حيث يشاء ويفديه بحيـاته . اذن ليس كثيراً على زياد ان يخفي وجهه ويرخي نظره الى الأرض . بـل ليس كثيراً عليه ان يبكي كما تبكي النساء ذاكراً اخلاص مولاه ووفاءه .
وكالأسد الجريح نهض عن ذلك الفراش ، وخرج من الخيمة قائلا لطلحة : اترك الجثة فسنعود اليها بعد حين .
فوثب الغلام الى الخارج وهو ساكت .
فقال زياد : ادخل هذه الخيام القائمة على الجانبين وادع اصحابهـا الى المثول بين يدي . أفعل الآن ولا تستثنِ واحدة منها والويل لمن لا يحضر .
وقبل ان يذهب طلحة ، رأى غلمان القصر وفريقاً من رجال صوفة بايديهم السيوف اقبلوا يسألون عن الأمير . وقد رآهم زياد فقال :

لقد كفاك هؤلاء مؤونة الذهاب فابقَ. وعند وصولهم خاطبهم قائلا : ماذا تصنعون بفتى من فتيان صوفة قتل اخاه ؟ قالوا : نذبحه اذا أراد الامير .

– واذا كان هذا القاتل خداعاً غادراً يكمن للناس كما تكمن الذئاب لتخطف الأرواح ؟!

– ننزع اعضاءه عضواً عضواً وهو حي .

فاغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول :

اذن فاعلموا ان عبدالله قتل غدراً في هذه الخيمة وجثته فيها . وان قاتله جبير بن عبادة .

فصاحوا جميعهم قائلين : جبير بن عبادة لا سواه ؟!

– نعم جبير الذي حاول ان يغدر بنا كما تعلمون .

فاطرقوا وقد اسودت وجوههم واخرستهم اللوعة ، ثم قال احدهم : واين القاتل يا مولانا .

– اما القاتل فقد ضرب ضربته،وترك خيمته، وفر مع مولاه اليمني ولكنه لا يستطيع الفرار ونحن وراءه . اذهبوا جميعكم الآن ، وفتشوا الخيام التي ترون واحضروا أصحابها .

فمشوا دون ان يترددوا في الأمر . لكن تلك المضارب التي تدل على فقر اهلها لم يجدوا فيها جبيراً .

بل لم يروا فيها غير الشيخ الهرم ، والمرأة العاجزة ، وبعض الاطفال .

وهنالك غلمان ينظرون في امر من بقي في الحي .

فمثلوا جميعهم بين يدي زياد. فقال لهم وهو يومىء الى خيمة الجريمة: أتعرفون لمن هذه ؟!

فاجابه اكبرهم : ان أصحابها اثنان او ثلاثة لا نعرف اسماءهم .

قال : صفهم .

قال : رجل ضعيف الجسم يجاوز السبعين من عمره . وهو براق العينين دائم الحركة يرتسم الخبث كله في عينيه ..

وسكت ملياً ثم قال: ولعل زوجته اكثر خبثاً منه .

قال : أكانت هذه الزوجة سوداء ؟!

- نعم يا مولاي .

فقال : كفى فقد عرفت الاثنين ، ومن هو الثالث ؟!

- امــا الثالث ففتى في مقتبل حياته ، تحجب وجهه كله عمامة خضراء وجسمه القصير يشبه جسم المرأة المحجبة التي لم نرَ لهـا وله وجهـاً . ولكن هذا الفتى يا مولاي لم يكن يظهر حتى يختفي بل لم يكن يظهر حتى تحتجب المرأة كأن وجود الاثنين تحت سقف بيت واحد امر لا سبيل اليه .

قال : احسنت فالمرأة والفتى واحد هو جبير . لقد صدق المسكين عبدالله لما ذكره لي وكانت تلك المرأة اللعينة التي تصفها سبباً لموته . والآن قل لي . ألم ير احدكم رجلاً بثياب أهل اليمن يدخل اليوم هذه الخيمة ثم لا يخرج منها ؟

فنظر الرجل الى رفاقه . فقالوا : لا .

- وهل رأيتم تلك المرأة وزوجها يخرجان منها ؟

فترددوا جميعهم في الجواب ،

الا غلاماً في العاشرة من عمره وقف وقال :

اما انا فقد ابصرت الاثنين .

فبغت قائلا : وأين رأيتها ؟

- رأيت الرجل اولاً يشعل هــذه النار . ثم ضيعته ولم أره بعد ذلك ولعله دخل وانا لاه عنه .. وكانت الشمس في تلك الساعة وراء هذا الجبل فلمــا ملأ نورها الوادي ، رأيت الزوجين يخرجان والرجل يسدل ستار الباب ثم مشيا بين هذه الصخور وتجاوزاها الى الوراء كما ترى .

وأومأ الى جهة الجنوب .

قال : أتستطيع المشي كما تمشي الرجال ؟

- بل اسبقهم يا مولاي .

- اذن سر امامنا ونحن نتبعك . اما انت يا طلحة فلا تترك عبدالله .

ومسح دموعه ومشى مع القوم . ثم تفرقوا في السهل والجبل يبحثون عن

القاتلين ، حتى ضاع نصف النهار ولم يروا لهما اثراً . فحزنت نفس زياد وملأت الكآبة قلبه .

لقد كان واثقاً بأنه سيقبض على الاثنين . ثم يحملهما الى تلك الخيمة ويذبحهما امام الجثة التي يغمرها التراب ثم يطرحها طعاماً للطير في ذلك الوادي الموحش. وينقل جثة عبدالله ليدفنها في مكة بين عويل النساء وبكاء رجال الحي .

نعم، والعربي مثل زياد بن كعب ،لا يدفن قتيله قبل ان يثـــأر به ويقتل قاتله . وعبدالله احب رجل في صوفة الى زياد . ولكن ماذا يصنع ، والاقدار تساعد القاتل الغادر في التحجب والاستخفاء ؟

وكان القوم قد تعبوا وملوا البحث . فاشار عليهم بالرجوع وهو يقول :

الدم الطاهر البريء يراق في الوادي ،وجبير بن عبادة حي لا تصل اليه الايدي؟ انها غريبة ورب الكعبة . ثم جعل يقول للناس: من يدلني على ابن عبادة فله مئة دينار من دنانير الفرس . ومن يدلني على مولاه عدوان اليمني فله مئتان .

فحيرهم قوله ، أيكون دم العبد أثمن من دم سيده ؟

اما هو فقد أبصر حيرتهم فقال :

اذا كان جبير بن عبادة حية رقطاء تضع سمها في صدور الابرياء ، فعدوان اليمني هو الذي ينفث ذلك السم ،لا يبالي بضحاياه . مسكين عبدالله لقد استهان بالاخطار في سبيل وفائه فتناولته يد الغدر . فلأتناولن قـــاتله من يد القدر ولأجعلن جثته موطئاً لنعال اهل مكه .

وجعل يبكي والقوم ينظرون الى دموعه ويحنون الرؤوس ،

حتى رجعوا الى الوادي واحاطوا بالقتيل المكفن بدمه وهم ينتظرون امر زياد.

* * *

- ١٠ -

دفناه في تلك الحفرة التي حفراها ، وعمـدا الى سيفيهما وسيفه ، ووعاء فيه ماء ، وجراب للسفر يضعان فيه الزاد. وخرجا من المضرب كأنهما يتنزهان ، ولم يباليا بما بقي في الخيمة من متاع .

ان جبيراً من الاغنياء والزمان لا يتسع له ليحمل معه كل شيء . حتى ان الناقة التي كان يرعاها والحجاب على وجهه ، لم يلتفت اليها ولم يأذن لعدوان في ان يسوقها امامه ، وقد اصـــاب في ذلك التدبير كما رأيت . فالنوق احدى الوسائل التي تدل العرب على آثار الهاربين .

والآن . فالى اين نذهب يا عدوان ؟

قال : اتبعني يا مولاي فنحن الآن نسير في طريق الجنوب .

– أنرحل الى اليمن ؟

قال : سيقول اهل هذا الوادي في انفسهم اننا ذاهبان اليها ، ولكن لا تمضي ساعة حتى ندور وراء هذا الجبل ونتجه نحو الغرب .

– اذن الى البوادي بيننا وبين تهامة ؟

– بل الى تهامة نفسها فالبادية اقرب طريق اليها .

– ولكنها بعيدة وانا لا اترك مكة .

قال : يخيل اليّ انك تريد ان ترقد في حفرة اضيق من حفرة عبدالله ! الا تعلم انّ بني صوفة سيطلبونك في اكواخ مكة وقصورها، وفي مغاور الجبال والفضاء حتى يعثروا عليك ؟

قال : لقد طلبوني من قبل فلم يقبضوا الا على الهواء .

قال : لم يكن هنالك قتيل يا مولاي، بل كان زياد مستهيناً بك مستخفـــاً بذنبك حتى انه منع قومه غير مرة من ان يسألوا عنك . ولولا الريب الذي قام في نفس ليلى ، لما خطر ببال عبدالله ان يتبع اثرك ويلحق بك الى هذا الوادي .

– ومع ذلك فانا لا اعلم الغاية من السير بين هذه الصخور .

– اما انا فاعلم من الأمر ما لا تعلم . اسمع يا مولاي . سيجيء زياد بعد ساعة ويجيء معه فتيان قومه يبحثون عـن صاحبهم فلا يجدون غير جثته . فيسألون اهـل الحي عن اصحاب الخيمة فيصفوننا لهم ثم يقولون : هذا هو الطريق الذي سلكوه .

– وبعد ذلك ؟

: يتبعنا زياد . ويرسل رجاله وراءنا فلا يقفون لنا على أثر ولا يخطر لهم ببال اننا تركنا الطريق الذي ذكروه لهم وسلكنا الطريق الآخر الذي، لا تسلكه العرب لوحشته وجفافه .

– وكيف يعلم ابن كعب ان عبدالله قدم هذا الوادي وقتل فيها ؟

فابتسم قائلاً : نسيت ان اذكر لك طلحة بن وهب .

– وما شأن هذا الغلام ؟

– شأنه انه كان وراء الخيمة عندما دخل اليها عبدالله .

– وتظن انه يقص على زياد ما رآه ؟!

– نعم وقد علمه القتيل قبل ان يموت ما يجب ان يقوله لمولاه .

فخاف الغادر وجعل يتلفت مذعوراً .

فقال له : يا مولاي فسنسير عشرة فراسخ قبل ان يجيء القوم .

– ولكن ستدر كنا الخيل .

قال : لا تستطيع الخيل ان تضع حوافرها حيثما نضع اقدامنا . اتبعني ولا تنظر الى الوراء . وعجلا في المسير كأنهما فرسا رهان ، حتى جاوزا ما انبسط من الجبل وهبطا من الجانب الاخر يريدان السفح الغربي .

اجل . وعلى ذلك الشفير الذي انحدرا منه وقف زياد ورجاله وقد ضيعوا املهم بالعثور على الاثنين كما رأيت .

ولم يخلع جبير ثياب المرأة حتى اصبحا في البادية بعد مسير فراسخ كثيرة في النهار وفي الليل . فحول عندئذ وجهه نحو الشرق قائلاً : ان فراقنا لا يطول . وسأعود الى مكة لأقتل السيد كما قتلت عبده . واجعل ليلى جارية لابن عبادة الذي يحتقرون .

وتهامة . بلاد كبيرة واسعة الاطراف . نزلها القاتلان وامتزجا باهلها بفضل ما عندهما من مال .

وهما ينويان العودة الى عاصمة الحجاز عندما ينسى زياد بن كعب حزنه على ذلك القتيل .

حملوه الى حيهم ولم يغسلوا غير وجهه .

وقد عرفوا ان الجرح القاتل كان في ظهره ،

حتى وصلوا الى مكة فاستقبلته النادبات كأنهن يستقبلن فتى من الاشراف سقط قتيلاً في ساحة الحرب . حتى ان كعباً جرّ شيخوخته وشيع جثمان ذلك الرفيق الامين الى الضريح الذي اعدوه له .

وليلى ترسل الزفرات ويخنقها الدمع . ان عبدالله خير الامناء المخلصين ، ويكفيها انه كان عوناً لها فيذلك الغرام الذي لا تستلذ في حياتها غير احلامه .

اما بنو خزاعة وبنو بكر ، فقد شاركوا اخوانهم بني صوفة في الحزن على الفقيد . وبالغ حليل بن حبشية في المجاملة ، فأهدر بصفته الامير الاكبر ، دم القاتل الغدار كما اهدره زياد من قبله . فعل ذلك قبل ان يدفنوه . وتفرق الناس وقد نسوا ضحية الوفاء ، الا زياداً وأهل بيته فقد كان عبدالله حياً في صدورهم لا يزول ذكره .

وكان القوم قد آنسوا من طلحة بن وهب ذكاء واخلاصاً ، فجعله زياد في قصره ولم يكن له اهل ليشتريه بالمال .

ولو دخلت الى نفس طلحة ، لرأيت فيها صورة جبير بن عبادة واضعاً عمامته الخضراء على وجهه . يمشي بسرعة وخوف في طريق الوادي .

اجل ، ان تلك القامة القصيرة لم تزل نصب عينيه . ولو لم يحدث حادث القتل في اليوم الثاني ، لكانت تلك الصورة الغريبة قد امحت من ذهنه قبل ان ينقضي ذلك اليوم .

وليس ذلك غريباً . ففي الحياة ساعات ينسى المرء نفسه ولا ينساها وتضمحل من ذهنه جميع الظواهر التي رآها وهي باقية . كأن الحادثات تطبع تلك الصور بطابع حديدي لا يزول . ولكن . لو رأى طلحة جبيراً ، وجهاً لوجه ، ولم تكن على وجه الاخير عمامته الخضراء ، لما عرف انه هو .

رأس جبير

لم يكن للعرب ، في جاهليتها نظام للجند تلجأ اليه عندمـــا تدور رحى الحرب . بل لم يكن لها في جميع الشؤون نظام خاص وسياسة خـاصة ، إلا طائفة من العادات كانت تشبه النظام . ولكنها لا تتغير ولا يبدلها مر الزمان .

بلى ،كان للدول العربية المتمدنة في ذلك العهد شيء من ذلك ، وكان لها فرق الجند والكتائب والقواد . على رأس تلك الدول دولة حمير في اليمن ثم دولة المناذرة في العراق ، ثم دولة الغساسنة في الشام .

أمـــا العرب الباقية ، فقبائل بدوية ، في فطرتها الجافة ، واسلوبها الحربي الموروث ، جنودها رجالها ، وقوادها شجعانها وإبطالها ، يغزون عندما يطيب لهم الغزو ،ويقتسمون الغنائم، لهذا واحد وللآخر الف ،على قدر بطولة الرجال وأطماعهم .

وأهل الحجاز أبلغ مثال لما تقرأ .

كذلك كانت الأمم جميعها في الأدوار الاولى - قبل التمدن - . ! القوي يسود الضعيف ، والغني يبتلع الفقير ثم يهضمه مستريحاً ناعم البال .

وليس هنالك نظام غير الذي يمليه ناموس تنازع البقاء .

فلما تمدن الناس ، كما يقولون ، وشيدوا دولهم وأمجادهم كانت الكهانة أقدم المهن عندهم ، تجيء بعدها الجندية .

ولعلك تريد أن تقرأ بعض السطور الآن عن تاريخ أنظمة الجند في العرب وفي غيرها من الأمم .

إن أول دولة نظمت الجنود صفوفاً متعاقبة متراصة ، دولة الفراعنة ، في مصر ، وكان ذلك في الجيل العشرين قبل المسيح ، وجنودهـــا يومئذٍ زنوج وأحباش أخضعت بهم أهل سواحل البحر الأحمر .

ثم جاء اليونان فأخذوا شيئاً من ذلك النظام وحسنوه ، فجعلوا الكتائب التي تعرف بلغتهم بلفظة Phalanx أي أن يتراصّ الجند ، الرجل بجانب الرجل في صفوف متعاقبة الواحد وراء الآخر ، وعدد الكتيبة الواحدة أربعة آلاف من الرجال تصطف في الميدان على الصورة التي قرأت .

غير أن هذا العدد ، كان قليلاً جـــداً في عيني فيليب المكدوني ، والد الاسكندر الكبير ، فجعله ضعفين ، ثم قام الاسكندر فـــلم يشأ إلا أن يكون أربعة أضعاف ، وقارب في الصفوف ما بين الرجال حتى لتحسب الصف قطعة مستطيلة واحدة وجعل لكتائبه الرماح الطوال حتى جاوز طول بعضها العشرين قدماً .

ولكنك لا تعرف الحكمة من ذلك ، إلا إذا عرفت أن رماح الصف الخامس من الكتيبة ،كانت تبرز اكثر من ذراع أمام رماح الصف الأول؛فتكون الرجال داخل نطاقٍ من الاسنة لا تستطيع الايدي ان تمتد اليه .

وفي هذا الاختراع . بـل بقوة هذا النظام ، استطاع الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد أن يسود العالم .

وبعد ذلك ظهرت دولة الرومان، ومنذ خلقت خلقت للحرب. فنهجت نهج اليونان في التجنيد. ثم ما لبثت حتى عمدت الى نظام آخر يخالف نظام الكتائب على خط مستقيم .

كان جيش الرومان في عهد الدولة الاول فرقاً . رجال كل واحدة منها ستة آلاف ويتبع كل فرقة في ساحة الحرب جمـــاعة من الفرسان ، تشغل العدو ، بالمقاليع والسهام .

ثم جعلوا هـــذه الفرق كراديس . وجعلوا الكراديس أقساماً ، والأقسام فصائل ، دون ان يبقى هنالك اثر لنظام الكتائب الذي عرفت .

وبقي الرومان على نظامهم هـــذا حتى الفتح الاسلامي ، وعندئذٍ كثرت أقسام الجيش وكانوا قد اقتبسوا في فتوحهم أنظمة جديدة جعلوها أنظمةً له .

أما الفرس ، فقد تمشوا في عهدهم على نظام فرعون الذي ذكرناه ، وبه ظفر قورش وقمبيز في حروبهما مـــع اليونان ، ثم جعلوا جيشهم بعد ذلك أربع طبقات .

* * *

السيف والرمح ، كانا في ذلك الزمـــان ، أشهر أسلحة العرب ، ثم يجيء بعدهما القوس والترس .

وكانت للعرب ، في الجاهلية وفي الاسلام ، عناية خاصة بالسلاح الذي ذكرت واهتمام غريب يفوق الاهتمام بحاجات الرجل وأهل بيته .

ومن الطبيعي ان يكون الأمر كما قرأت . فلولا هذه الصنوف من السلاح لما وفرت لهم أسباب العيش ، ولما استطاع الجار ان يأمن الجار ، بل لما كان لهم حرمة مقدسة وعرض مصون .

قـد يقوم في ذهنك انهم كانوا احوج الى السيف منهم الى السلاح الآخر ، .. تصور في غير موضعه . اجـل كان السيف مظهراً من مظاهر حياتهم وعزة انفسهم . ولكنه لم يكن عـلى رغم نبالة اصله ، وشرف محتده ، اعرض جاهاً من القوس وابعد منها أثراً . بل لم يكن شرفه يداني شرفها . ولم يستطع مجده أن يضاهي مجدها فهي على العرش كالملكة الفتانة يعبدهـــا الناس ، والسيف وزملاؤه اركان هذا العرش تحف به من الجانبين .

نعم . وكانت لهم مهارة غريبة ساحرة في صناعتها . صناعة الرمي . وقـد انبتت لهم الارض اغصاناً يفنى الفولاذ ولا تفنى ، يتخذونها سهاماً يبلغون بها الغاية التي يريدون .

يصيدون بها غزلانهم ، ويرسلونها الى صدور اعدائهم ، ويصرعون بها سباع باديتهم ، وعندما يطيب لهم الرمي يرمون بها اكباد الطير في الفضاء .

ولم تذهب دولة القوس بعد ظهور الاسلام ، بل اتخذت شكلاً اروع واعظم

ثانا ، وقــــد حجبت خبرة المسلمين وتفننهم بالرمي في القرون الوسطى خبرة اخوانهم العرب الذين عاشوا في الجاهلية ، وبلغت تلك الخبرة انهم كانوا يصنعون العجائب ، بذلك العود الذي يبرون .

حتى انهم جعلوا لسهامهم آلات استبدلوا بها القوس .. يضعون تلك السهام في شقوق خاصة تبرز من انابيب الحديد او الخشب ، ثم يقذفون بها قذفاً شديداً كما تقذف البندقية الرصاص فتصيب الاهداف .

ثم ارتقوا في الاختراع ، فاصطنعوا لهم آلات اخرى تشبه المجانيق توضع فيها السهام ويرمى عنها بالاقواس .

وتلك الخبرة بالرمي ، كانت احدى وسائل ظفرهم بدولة الروم ، وقد عرف القواد المسلمون فضل السهام في الحرب فأوصوا رجالهم باتقان الرماية كما أوصوهم باتقان الركوب والعناية الشديدة بالخيل .

وكان النبي العربي ﷺ يقول :

« اركبوا وارموا ، وان ترموا احبّ إليّ من ان تركبوا » .

ومن قوله وهو قائم على المنبر :

« اعدّوا ما استطعتم من قوة ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي » .

ولعلك تستطيع أن تقول : انهم كانوا يعنون باقواسهم وأفراسهم عنايتهم بنسائهم .

* * *

ذلك كان شأن القوس في حياة العرب .

غير ان ذلك الشأن لم يكن يمنع العربي من القول : إن السيف أشرف سلاح يحمله الناس .

والسيوف لا تصنع في الحجــاز بل لا تصنع في بلاد العرب ، إلا في اليمن ، فكان القوم يستحضرون سيوفهم منها ومن الهند والشام وخراسان وتعرف هذه السيوف جميعها بالعتيقة ، ولكل منها شكل خاص .

هذا محفور ، وهذا مصور ، وهذا ذو شطوب ، وكلها لا تقطع الا الاجسام اللينة فإذا أصابت جسما صلباً تكسرت ، ذلك لانهم لم يتعلموا أن يحسنوا صنعها حتى تبري الحديد . لأجل هذا إذا استولى أحـدهم على سيف قاطع من اسياف الروم او غيرهم يذكرونه باشعارهم ويتناقلون خبره .

* * *

اما الرماح فـكانوا يطعنون بها وهم على الخيل .

ولكنهم كانوا يخشون دائماً أن تتكسر في الأيدي .

والطعن ، فنٌ له قاعدته واصوله . ذكر منها صاحب آثار الدول مـــا تقرأ قـــال :

« واللعب في الميادين وبين أيدي الملوك غير التحرك به في الحروب . منها المواجهة وهي ان تحمل عـلى مبارزك وقد اخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين اذني فرسك . وتقصده مستوياً حتى تقرب منه ، فان رأيته قد طرح رمحه يمنةً فاطرح رمحك يسرة وان طرحـــه يسرة فاطرحه يمنة . واجتهد ان تبدأ بالحمل عليه وانت مسدد وتحول الرمح يميناً وشمالاً كي تدهشه فلا يدري من اين تجيئه ، فاذا دنوت منه دخلت عليه مـن الخلل الذي لا يكون رمحه فيه . واذا اردت ان تبتدىء بالخروج فخـــذ اسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه الى الهواء وهو على عاتقك الأيمن واحمل عليه حتى لا يدري اي وجه يلقاك . وان خرجت الى فارسين وتفرقا ، فاحمل على الأدنى ، واذا كانا قريبين فأرِ أحدهما انك تريد رفيقه واحمل عليه ولا تتم حملتك ، ثم اعدل الى الآخر واصدقه الحملة .

وان حذقا ورأيتهما يفترقان عليك ، فتطرف ولا تتوسط واحمل على الادنى اليك ، فان تساويا فادهش الاضعف واحمل على الأقوى. فان تساووا وكانوا جماعة فامتد أمامهم حتى يتبعوك ثم كرّ على الادنى منك فاطعنه . وان دخلت مضيقاً فتلقاك فارس برمح ، فاياك والمصادمة ، بل انزل الى اقربهما اليك ، وتترّس من الآخر بفرسك » .

واسنة الرمــاح عندهم انواع كالسيوف ، منها المشعب والعريض والمستوي والرفيع والمعوج، الى آخر ما هنالك من أشكال .

* * *

كذلك كانت التروس أنواعاً وأصنافاً ، والذي يصلح منها لهـذا الشيء لا يصلح للشيء الآخر . فالمقبب المنحني الأطراف لا يتقى به الرمح لانه متى طعن لبث الرمح فيه . وانما يتقى به الحجارة والسيف ، والمستطيل يتقى به النشاب لأن رأسه يستر رأس الفارس وطوله يقيه لأنه ينظر بإحدى عينيه ولا يكشف رأسه . والمسطح يتقى به الرمح وقد يشترك رجلان في الطعان فيترس احدهما للآخر .

وكما تفنن الناس في صنع السيوف والاقواس ، تفننوا في صنع الأتراس حتى لتعرف هذا الترس من اي بلدٍ هو .

* * *

وكانت لهـم الدروع ، من حديد وفولاذ ، وكتان ويقال لدرع الكتان « دلاص » ولا يلبسها الا المستخفون .

اما الصنفان الآخران فتلبسها الفرسان من العرب وقد اشتهر في صنعها أبناء فارس والروم . وتؤلف الدروع مـن اجزاء . البيضة والخوذة والمغفر للرأس . والجزء الذي يحجب الصدر ويحميه هـــو الجوشن . وهنالك اجزاء اخرى للساعدين والساقين والكفين ، قلّ كثيراً من يلبسها من فرسان العرب .

هذه هي ايها القارىء اسلحة العرب في الجاهلية ، ما عدا تلك الصنوف التي لا نذكر كالخنجر والفأس وما يشبهها .

ولم تعرف العرب ، في ذلك الحين ، آلات الحصار التي كانت تتخذها الدول لتقذف منها الموت الى الشعوب المحصورة في المدن المغلقة ، لأن جميع منـــازل البدو كانت خياماً كما هي اليوم . تضرب في سهل واسع رحب لا سور يحميه ولا ابواب تغلق دون عدوه .

* * *

عاد ابو ذهل العذري عند المساء كما وعد قصياً ، وذلك للنظر بأمر السلاح الذي تحدثا عنه . ورزاح مع الاثنين ، فالأمر شورى بينهم كما رأيت .

وقـــد فعلوا كما فعلوا في الصباح . الغلام قائم على الباب يمنع الناس مـن الدخول ، والحديث يدور همساًبين الثائرين الثلاثة يتآمرون على الحجاز ليضرموا فيه النار، وصفوان ويزيد يطوفان في الحي ولا يسألان قصياً عما يفعل، فارادته كانت مقدسة ، عرفت ام لم تعرف .

واستوى ابو ذهل جالساً ثم قال : والآن اسألك يا رزاح عن مالك .

– وغايتك من هذا السؤال ؟

– اريد ان تعطيني شيئاً منه استعين به على أمري فأنا لست مـن الأغنياء كما تعلم .

– بل انت اغنى قومك ولكنك لا تريد هذا المال لنفسك بل لقصي .

– واذا كان ذلك فماذا تقول ؟

– لو كنت تعلم ما أقول لما سألت . اني لا أعطيه شيئاً .

– وماذا يصنع اذن ؟

– ينصرف من عندنا صفر اليدين كما جاء .

فجعل ينظر الى الاثنين وهو يتردد في الجواب .

فضحك قصي قائلاً : لقد جعل لي اخي نصيباً في ماله .

– وما معنى قولك يا رزاح؟

– معناه اني عرضت عليه مالي كله فأبى ان يأخذ منه درهماً .

– ومع ذلك فسيسعر نار الحرب وهو يطمع بحجابة البيت .

قال : نعم وسأبلغ الغاية بدون مال . أفتظن ان القوم لا يرفعوني الى العرش الاّ إذا ملأت ايديهم ذهباً ؟

– بل أظن انك لا تستطيـع ان تخطو خطوة واحدة في سبيل غايتك الاّ إذا هيأت لهذه الغاية كل شيء .

قال : لم تفعل شيئاً حتى الآن . بلى لقد قـــام في ذهنك انك قادر على نزع

الحجابة من يد صاحبها بقوة من حولك من الرجال . ولكنك لم تنظر قط الى الرجال الذين هم حول عدوك . أنسيت انهم اصحاب النفوذ والسلطان في الحجاز وانك تكاد تكون مجهولاً لولا اخوك زهرة ؟

فقاطعه قائلاً : يا ابا ذهل . لقد قلت امس غير هذا .

– اجل . قلت يجب ان تخرج سدانة الكعبة من يد خزاعة . وقلت ان الخزاعيين لا يثبتون في الساحة اذا كان بنو عذرة اعواناً لأهل الشعاب ، ولكني لم اقل قط ان هذا الأمر يتم لنا كما نشاء ونحن بدون عدة وبدون سلاح .

– وكيف ذلك ؟

– في ايدي قومك الفا سيفٍ ومثلها من الدروع والرماح .

– نعم .

– وفي مثل هذا العدد ، تريد ان تملك الحجاز وتطرد اصحابه الجالسين على عرشه منذ ثلاثة اجيال ، أليس كذلك ؟

فلم يعلم قصي الى اين يريد ابو ذهل ان يصل ، فقال :

نعم ..

قال : لقد عاهدتك امس على لدفاع عنك والأخلاص لك في هذه الدعوة الى النهاية ، ولكني أخشى الآن ان أنكث هذا العهد .

– لماذا .

– لأني لا أَسوق قومي الى جوار الكعبة ليسقطوا في الميدان .

– أقسم لك انهم سيظفرون .

– نعم وبتلك السيوف التي تتكسر في اول جولة .

– ماذا تريد الآن ؟

فقال : لي شروط أُمليها عليك ثم انتظر الجواب . سيعطيك اخوك غداً شيئاً من المال تحمله الى بصرى .

فحنى رأسه ولم يجب .

وتشتري بهذا المال ثلاثة آلاف سيف من سيوف الشام .

– نعم .

– ومثني درع من دروع الفولاذ .

– نعم .

– وتنظر فيما يملك قومك من تروس ورماح حتى اذا رأيت انهم لا يملكون منها الشيء الكثير عمدت الى شراء ما ينقص .

– نعم .

– أتعاهدني على هذا ؟

– ليس أحب اليّ من ان اعاهدك على كل ما تشاء ، ولكني اخشى ان أفضح نفسي اذا فعلت .

قال : لا اجد لهذا الخوف سبباً الا اذا كنت غير واثق بقومك .

– لا نتحدث الآن عن الثقة فالقوم مستسلمون مخلصون ولكني لا اريد ان تكثر ظنون القوم ويدب الريب في الصدور قبل ان تأتي الساعة وتموج ساحات الشعاب بالرجال .

– ألا ترى ان الكثيرين من اهل الشام واهل يثرب يتجرون بالدروع والسيوف وجميع صنوف الرماح ؟

– بلى .

– فما ضرّك لو قلت لقومك انك ستفعل كما يفعلون .

فبرقت عيناه قائلاً : أيقول قصي بن كلاب لقومه انه سيبيع سلاحه لأهل مكة ثم هو لا يبيعه ؟ . وكيف يكذّب قومه قول ذلك الرجل الذي يريد ان يسودهم ويجعلهم خاضعين لارادته ؟ انه كذب لا أقدم عليه ولا اريد ان افكر فيه .

- وماذا تقول لهم اذن ؟

– لا اقول لهم شيئاً لأني لا اشتري سلاحاً .

فسكت قليلاً ثم قال : بل تشتري ، فالحرب تقضي بذلك .

فالتفت الى اخيه قائلاً : أتذهب معي الى بصرى يا رزاح ؟

– وماذا افعل فيها ؟
– تبتاع انت هذا السلاح ، دون ان يعلم قومنا من انت .
– وبعد ذلك ؟
– تحمله النوق الى المنــازل وتحفظه عندك ريثما يرتفع اول صوت في مكة داعياً الى الحرب .
فرفع ابو ذهل صوته قائلاً : اما ان يشتري لك سلاحك فهذا لا أسلم به.
– يظهر انك تؤثر ان تختاره انت .
– بل اؤثر البقاء هنا مـــع رزاح وتسير انت وحدك فتشتريه ثم تنقله الى حيث تشاء .
فجعل يتفرس في الاثنين وهو لايقول كلمة .
فقال ابو ذهل: ألا تعلم اننا لا نستطيع نحن الاثنين ان نفعل شيئاً من ذلك؟
– لماذا ؟
– لأننا لانـكاد نشتري مئة سيف حتى يقبض علينا ونرسل الى الملك؛فبدت الحيرة كلها على وجه قصي وفي عينيه .
قال : لا تعجب لشيء ، اننـــا اذا فعلنا نصبح في نظر الملك الغساني رسل حرب .
– وهل لا يستطيع العربي في الشام ان يبتاع سلاحه ؟
– بلى ولـكنه لا يستطيع ان يبتاع سلاح جيش كامل بدون اذن الملك اذا كان الملك لايعرف ذلك الجيش .
ثم قال : امــا انت فلست من رعية الحارث ، وتقدر ان تقول للشرط اذا سألوك : اني من الحجاز وهذا السلاح احمله لقومي فينصرفوا عنك وهم يعلمون انهم لا شأن لهم مع العربي الحجازي .
فرأى قصي الحكمة فيما يقوله ابو ذهل . ولـكنه لا يريد ان يرى قومه ذلك السلاح لئلا يفسدوا عليه امره ، قبل ان تأتي الساعة . فيخسر كل شيء .
واطرق يفكر . ثم رفــع رأسه قائلاً : سأقول لقومي ان هذا السلاح لبني

عذرة ، فينتهي الأمر .

فضحك وقال : لقد عدت الى الذهول فنسيت الملك .

– لم انس َأحداً فالملك نفسه سيأذن لي وستكون معي يا ابا ذهل .

– أأرجع الى بصرى ولم أتركها بعد ؟

– اجل ولا تستطيع ان تتردد بعد الآن .

– ومن يمهد لك السبيل لإقناع الملك ؟

– لا تسألني الآن عن هذا فقد يتولى غيري أمر اقناعه دون ان أراه .

قال : لقد عرفت فانت ستلجأ الى ولي العهد .

– قد يكون ذلك فتهيأ للسفر غداً .

وكانوا عندئذٍ في الهزيع الثاني من الليل ، فقال قصي . لم يبق الا ان تحضر المال يا رزاح ثم نرقد على أمل ان نترك هذه الديار قبل الصباح .

قال :المال موجود وستملأ منه غداً هذه القلنسوة .

وانصرف ابو ذهل وقصي الى فراشيهما .

ونام رزاح في مكانه وهو يفكر في عرش اخيه .

* * *

قال زهرة لأخيه في بصرى :

اشتريت لك وبعت كذا فانت الآن ذو مـــال وسيعود القوم بعد غد الى الحجاز .

قال : لي حاجتان أقضيها قبل ان نرجع

– أبقيت لك في بصرى حاجات ؟

- احداهما في بصرى ،هي ان اقــابل ولي العهد ثم اقابل الملك ، اذا شاء . والثانية في دمشق ولا بد من الذهاب اليها .

– وأي شيء لك مع الملوك يا قصي ؟

فابتسم قائلاً : احب ان أرى بعض عاداتهم قبل ان اصير ملكاً .

– لا تهزأ يا اخي فيظهر انك ستراهما لأمر خطير .

- نعم . فقد أبي ابو ذهل شيخ عذرة ، واخونا رزاح ، الا ان نبتاع سلاحاً من الشام قبل الانصراف الى مكة .

- ومعنى ذلك أنك ستشعل النار بعد رجوعك .

- لا ، بل نجعل سلاحنا في بني عذرة حتى اذا اتهم دعوتنا قادوا اليناجيشهم ومعهم ذلك السلاح ،

- اذن بحت لبني عذرة بسرك وقد كتمت قومك هذا السر ؟

- لا فلم احدّث في هذا الشأن غير رزاح وابي ذهل ، والاثنان يعرفان كيف يكتمان ذلك الحديث .

- وما هي علاقة سلاحك بالملك وولي عهده ؟

قال : سيعرف الملك ان في دمشق فتىً يدعى قصياً يشتري سلاحاً لقومه . ولكنه لا يقدر ان يمنع ذلك الفتى من الشراء لانه ليس من شعبه . غير انه سيعرف بعد حين ان سلاح ابن كلاب لم يحمل الى الحجاز بل الى منازل بني عذرة ليثور ثائره ، ويقوم في ذهنه ان هؤلاء القضاعيين سيشهرون عليه السيف .

قال : وانك ستستأذنه في ذلك .

- نعم فلا بد من الاستئذان ، وقد كنت استطيع ان آخذ معي هذا السلاح الى مكة لولا ظنون القوم .

قال أتشتري الشيء الكثير ؟

- اجل حتى لاقدر ان اسلح من جديد ثلاثة آلاف رجل .

- ومن اعطاك المال يا اخي ؟

- اعطانيه رزاح فماله كثير وسيبذله في هذا السبيل اذا اضطر .

ثم قال : والآن ارغب اليك ان تقول لصديقك التاجر الذي ادخلنا الى قصر الملك ، ان يستأذن لنا على ولي العهد دون ان يعلم غايتنا من المثول بين يديه .

- متى تريد ذلك ؟

– بعد ساعة ريثما يجيء ابو ذهل . وبعد قليل اقبل ابو ذهل ، فقال قصي : بعد ساعة يحضر الرجل الذي يستأذن لنا على النعمان .

قال : بل نصبر ساعتين فالنعمان الآن يصور الطواويس في الرواق كما رأيت من قبل . ولا حاجة لنا الى الرجل فهو مثل ابيه يأذن لكل قادم .

وانتظرا ثلاث ساعات حتى قرب الظهر فأقبلا على القصر واحتجبا في اروقة الجناح الذي يقيم به ولي العهد . ثم دخلا عليه وعنده جماعة من ابناء عمه . فعرف الاثنين ، فقال :

لم ترجع الينا ايها العذري ، بعد انصرافك الى بلاد قومك ، الا لأمر ، ثم قال لقصي : وانت يا ابن كنانة . أكان رجوعك الينا لتتعلم الرماية ؟

– بل رجعت لأسألك يا مولاي قضاء حاجة لي .

– انك اذن بحاجة الى المال .

– لا يا مولاي فبين يدي من المال ما يكفيني . ولكني بحاجة الى كلمة واحدة تقولها لشرطة الملك .

– اذكرها .

– فالتفت الى جلسائه كأنه يقول : لا اذكرها امام هؤلاء . فأومأ النعمان الى ابناء عمه بالانصراف ثم قال : والآن ؟

– اما الآن فانا ذاكر لمولاي الامير كل شيء. الا تذكر يا مولاي تلك الكلمة الأخيرة التي قلتها لي يوم مثلت بين يديك في الرواق ؟

فابتسم قائلاً : نقول كلاماً كثيراً ايها الحجازي ثم ننساه ، اذكرها انت .

قال : ألم توصنا يا مولاي بان ينهى سادن الكعبة زعماء قومه عن المظالم التي يفعلون ؟

– هكذا نقول لجميع الناس من جميع الاقطار .

– : ولكن تلك الكلمة التي سمعتها منك في تلك الساعة لا تقولها لجميع الناس . لقد ذكرت لك ان النهي لا يؤثر في زعماء القوم فاعطيتني درساً بليغاً قائلاً لي : اذن يؤثر فيهم السيف .

فوضع ولي العهد يده على جبينه وهو يقول : اجل لقد قلت هذا ولكن اي غرض لك من ذكره ؟

– غرضي ان اقول لمولاي اني حفظت هذا الدرس الذي سمعته منه وسأملأ مسكة سيوفاً .

– انت ؟

– نعم انا يا مولاي .

– اي انك ستكون عوناً لسادن الكعبة على امرائه .

– هو ذاك يا مولاي .

فبرقت عينا الامير واشرق جبينه ، وجعل يتظاهر بالتفكير . ثم قال : ولكنك قلت ان سادن الكعبة لا يشهر السيف على امرائه . أنسيت هذا ؟

قلت ولم ازل اقول انه اضعف من ان يشهر سيفاً الا في سبيل الدفاع عن حجابة البيت .

– وماذا تفعل بسيوفك اذن ؟

– اضرب بيدي وايدي رجالي تلك الرؤوس المرتفعة الى العلاء . والايدي الظالمة الملطخة بالدماء .

فضحك ضحك الهازيء الذي لا يصدق حرفاً مما سمع .

قال : لا تستخف بي يا مولاي. فالحرب التي سأخوض مجالها ستنتهي بالظفر وسأخرج منها وانا حاجب البيت .

وارسلت عيناه شعاعها .

فرأى النعمان ما لم يره من قبل ، وخيل اليه انه جاء ليستعين بأبيه على بلوغ غايته . فقال له : وأي جيش تقوده في حربك ؟

– قومي الذين في الشعاب يا مولاي .. وكره ان يذكر له بني عذرة .

– وهل يستطيع قومك القلائل أن يظفروا باعدائك الكثيرين ؟

– نمشي الى غايتنا مشي رجل واحد واثق بقوته .

– وماذا تطلب منا الآن ؟

– ألم أقل لك يا مولاى اني لا اطلب غير كلمة واحدة تقولها لرجال الشرط في بلدك ؟

– واي شأن لهؤلاء مع رجل من الحجاز لم يكن قط عدو الملك الغساني ؟؟

قال : اريد ان ابتاع سلاحاً يا مولاي .

قال : ليس في بصرى ما يكفيك منه .

– اسير الى الشام واشتري ما يكفيني .

قال : أتخشى أن يتصدى لك رجـــال الشرط فيمنعوك من الشراء وانت حجازي ؟ انهم لايفعلون ذلك مع الغريب .

– ولكني سأبقي هذا السلاح في بلادكم يا مولاي .

قال : تشتريه لتبقيه في بلادنا ثم تقول انك ستقتحم ميادين الحرب ؟.

– نعم وسأطلبه عندما احتاج اليه ، وأخذ يقص عليه ما يفكر فيه ، وهو واثق بأنه على دعوته .

فسرّ النعمان سروراً عظيماً مما سمعه وأيقن بأن قبائل العرب التي تنتمي الى ملك الحيرة ، ستصبح ، فيما يعني أمر الكعبة فرقاً واحزاباً تضطرب معها سياسة ذلك الملك وتختل شؤونه فقال : اذن تريد ان تبقي سلاحك في بني عذرة ؟

– نعم فليأذن الملك لابي ذهل ان يحمله الى قومه .

قال : يأذن له ولي العهد في ذلك وينقضي الأمر . اسمع يا أبا ذهل . سيمسي السلاح كثيراً بين يديك . فاذا حدثتك النفس بالخروج عن الطاعة فافعل ، ولا تتردد ، ولكن اعلم ان سلاحك كله يفنى في ليلة واحدة .

قال : منذ نزلت قضاعة في ارض الشام الى اليوم ، لم تنقل قدماً واحدة الا في طاعة الملوك الغسانيين وبأمرهم ، بل لم يكن بين القبائل اسبق منها الى اظهار الخضوع والدفاع عن العرش .

قال : انها كلمة مزاح قلناها لك ، يا غلام ادع صاحب شرطة الملك .

فدعاه وكان من ادهى الناس ، فجعل ينظر الى قصي ويبتسم .

فقال النعمان : أتعرف هذا الفتى الذي تبتسم له ؟

نعم يا مولاي فهو من مكة واسمه قصي بن كلاب .

فلم يستغرب النعمان وابو ذهل ما سمعاه منه فهما يعرفان من هو الرجل وكيف يقضي أيامه .

ولكن قصياً ملكه الاستغراب .

ثم قال ولي العهد : اما انك تعلم من هو هذا ، فأمر سهل يعرفه جميع الناس ولكن ان كنت رجلاً فاعلم ماذا يريد منا الآن .

قال : لعله يستشيرك في شأن السلاح الذي سيشتريه .

قال : ويلك أشيطان أنت ؟

- بل أنا فتى من فتيان العرب يسهر على راحة مولاه .

- وكيف عرفت هذا ؟

- رأيت قصياً واخاه الذي يدعى زهرة يتهامسان هذا الصباح امام الخيام التي تقيم بها كنانة . فبعثت شرطياً يسمع حديث الاثنين من الوراء ، ففعل ونقل الي ذلك الحديث .

قال : مثلك فلتكن فتيان العرب ، انك خير من انجبت بصرى من رجال . ارايت مثل هذا في مكة يا ابن كلاب .

- لا يا مولاي ولا اظن ان في قصور الملوك مثله . واطرق يقول في نفسه : تلك مثالة جديدة أخذناها من القصر .

ثم قال صاحب الشرط : وهل اذنت يا مولاي لهذا الرجل ان يضع سلاحه في بلاد بني عذرة ؟

- أجل فهل لك ما تقول ؟

- لا ولكن ارجو ان يكون ابو ذهل ضامناً .

- يضمن ماذا ؟

- يضمن تلك السيوف أنها لا تخرج من مخابئها إلا عندما يطلبها صاحبها هـذا .

فضحك قائلاً : انا أضمن ذلك ، فإذا عرف الملك فاذكر له أني أمرتك

بالسكوت عما تراه .

قال : لقد عرف الملك يا مولاي .

– ومتى نقلت اليه الخبر ؟

– منذ ساعة وأمرني بضبط السلاح والقبض على الاثنين ابي ذهـــل وقصي لينظر في أمرهما .

فنهض قائلا : لم يبقَ إلا أن أرى الملك واستأذنه في الامر ، وأومأ الى الاثنين بان ينتظراه ، والى الشرطي بان يتبعه ، ثم خرج يريد اباه .

فقال ابو ذهل : أرأيت اني كنت مصيباً فيما قلته يا قصي .

– نعم . فلولا ولي العهد لتحدث الناس بخبرنا ورددته الافواه .

– بل لولا ولي العهد لأساء الملك ظنه بي وقضى عـلـيَّ . ان العلاء بن عينية « صاحب الشرط » داهية الشام .

ولم يطل حديثهما لان غيبة النعمان لم تطل .

وكان قد اقنع الملك ، فقال :

لك ان تذهب يا قصي الى حيث تشاء . وتبتاع ما تشاء ، وتضعه في الموضع الذي تشاء .

– ولكني اخشى هذا الرجل ايها الامير .

فقال : اتخشاه وانا آمره بان يكون عوناً لك ؟.

قال: ليس عليَّ من بأس يا مولاي اذا انا خفت الرجل الذي يدخل الى قلوب الناس فيقرأ ما فيها .

– ولكني سأفعل ما يزيل خوفك ، ونظر الى العلاء قائلا : أريد ان ترسل غداً مـع هذا الفتى ، رجلين من رجالك يرافقانه الى دمشق ، ويساعدانه في شراء اسيافه ودروعه ، ويمهدان لأبي ذهل اسباب نقل هذا السلاح الى بلاده ، أسمعت ؟

– نعم يا مولاي .

– واذا سألهما احد جنود الروم عما يفعلان فليقولا له انهما قدما بأمر الملك .

ثم خفض صوته قائلا : اوصيك يا قصي بان تحذر القبائل الخاضعة للنعمان بن امرىء القيس .

قال : لا اعرف هذه القبائل يا مولاي .

- انها بعض قبائل تهامة ونجد .

- وهل تشترك تهامة ونجد في الدفاع عن الخزاعيين .

- لا اعلم الآن، ولكن سيدها الذي يريد ان يسود الجزيرة ينفخ في صدورها روح الثورة ويأمرها بأن تشعل النار .

- وما هي الحكمة في هذا ؟

- الحكمة فيه انه يريد ان يخفض كل رأس ويذل كل نفس لتبقى هيبته ممدودة الرواق .

قال : وانا اعاهدك يا مولاي لأزعزعنّ عرشه اذا حدثته النفس بان يمد يده اليّ كما تقول .

قال : لا تغتر فأنت أضعف من ذلك . ونهض عن مقعده قائلا :

لقد مُدّ بساط الملك فاذهبوا ،

وهو يومىء ايضاً الى العلاء ليذهب معهما .

* * *

ظل بنو كنانة بعد ذلك في بصرى عشرة ايام .

وكان قصي قد اشترى ما اراد ان يشتريه وارسله مع ابي ذهل .

ولم يعلم احد من قومه الا زهرة ويزيـــد وصفوان ، ان ذلك السلاح الذي تحمله النوق الى منازل قضاعة هو له .

بلى ، لقد رأوه مع ابي ذهل ، وشرطيين من شرط الملك ، يروحون ويجيئون في سوق بصرى. ثم خبّرهم زهرة ان الاربعة ذهبوا الى دمشق ليبتاعوا منها بامر الملك سلاحاً للقضاعيين .

ولكن هذا وحده لايثير ظنونهم ، فقصي نشأ في الشام في حي قضاعة وقد

ندبه اليوم احد شيوخ ذلك الحي لشراء سلاحه ، ففعل ، وليس هنالك ما يبعث الريب الى الصدور .

تركوا بصرى وهم يذكرون ما فيها من اسباب الرفاه والنعيم .

وكانت رحلتهم في ذلك العام ، رحلة خير وبركة ، واصابوا فيها ما اصابوه في رحلات ثلاث . حتى ان قصياً الذي لم يكن يملك درهماً ، كان يحمل في رحل ناقته المال الكثير ، الباقي من عطية رزاح ، اضف الى ذلك الحصة الكبيرة التي ربحها له زهرة . ان الزمان كان عبداً من عبيد قصي .

المال والشهرة يسعيان اليه ، والقدر الضاحك يقوده الى العلياء .

وهو يكاد يرى ذلك القدر بعينه ، ويلمسه بيديه . بل يكاد يقرأ على صفحة الفضاء ، ذلك المستقبل اللامع الذي اعده له ، والمجد الخلاب الذي وضعت اركانه في الحجاز .

اجل ، كان الامل يملأ صدره ، والثقة التي تدفع الرجال الى الامام موجودة في نفسه ، ولم يبق بينه وبين العرش الا ان يتزوج حبّى ، ثم ينصرف بعد ذلك الى النظر في شؤون الحجابة التي هي شؤون ذلك العرش . وقد شعر في تلك الساعة ، وهو يمشي مع صفوان ويزيد وراء الجماعة ، ان ساعة الخروج من وراء الحجاب قد أتت ، وأنه لا بدّ له ، بعد وصوله الى مكة من ان يجمع قومه ويحدثهم ببعض أمره ، اي ان يخبرهم بأمر الزواج ليس غير .

اما قضية الحجابة فيتركها لوقت آخر لان ساعتها لم تأتِ بعد .

ولأن هنالك شيئاً آخر لم يكن يجسر على التفكير فيه . ذلك على رغم وثوقه بنفسه وآماله التي ليس لها حد . وكان يهم بان يطلع صفوان ورفيقه على كل شيء وينظر بالاشتراك معهما في ذلك الفكر الذي يشغل باله ، فيمنعه من ذلك تصوره ان افشاء السر قبل الأوان يفسد عليه التدبير .

ولكن الامر لا يحتمل الكتمان بعد . ورأي اثنين من خيرة الناس وأشدهم اخلاصاً وحباً ، خير من رأيٍ واحد ولو اوحت به الآلهة .

وابن الحارث ويزيد ، لا يخونان ولا يبوحان بسر .

فلما طلعت الشمس واراد الركب ان يستريح ، عمد الى مضربه وأومأ الى الاثنين بأن يتبعاه ثم قال :
متى نصل مكة يا صفوان ؟
قال : ان مكة تبعد شهراً ونحن لم نمشِ غير مراحل ثلاث . أنسيت ذلك يا مولاي ؟
– اجل وخيل اليّ انـّا مشينا عشرين مرحلة .
قال : ان في صدرك شيئاً .
– بـل اشياء ، وسأبوح لكما بها الآن . الا تذكر اني كنت أزور حليل بن حبشية كل يوم بعد رجوعنا من يثرب ؟
– بلى واذكر ان اشاعة ملأت مكة في ذلك الحين وتناقلتها الوفود الى جميع الاقطار .
فابتسم قائلاً : ورددتها النساء، حتى اني كنت اسمع المرأة تقصها على جارتها وهي تراني ولا تعرفني .
– اذن سمعتها كما سمعناها نحن .
– نعم وكنت أقول في نفسي ان اهل مكة جميعهم من الكهان .
فقال : اشاعة صحيحة ورب الكعبة .
فاجابه بهدوء : لو لم تكن صحيحة لما حدثتك عنها الان .
فجعل صفوان ينظر اليه وهو ساكت .
قال : أفلا تصدق ان سادن الكعبة سيزوجني حبى ؟
قال : لو قيل لي ان لبهرام جور فتاة لا يزفها ابوها الا لقصي بن كلاب ، لما استغربت ، ولكني اسأل نفسي عن ذلك اليوم الذي تمّ الرضى فيه .
– هو اليوم الاو ل الذي هبطنا فيه مكة بعد رجوعنا من يثرب كما قلت .
– وقد رأيت في ذلك ان صفوان بن الحارث لا يطيق كتمان سرك فلم تبح له به .
قال : لم يشأ حليل الا ان يكتم قومه السر وقد عاهدته على حفظه . امـــا

اليوم فلتعلم مكة كلها ، فأنا لا أُبالى .

فذكر صفوان ليلاه وخفق قلبه ، ثم قال :

ومتى يكون الزواج ؟

— بعد وصولنا الى مكة بثلاثة ايام .

— اذن لم يبق الا ان نعجل في المسير لتصبح صهراً لسادن الكعبة وتحسدك العرب .

قال : أتحسدني العرب على الزواج ياصفوان ؟

— نعم وسينظر اليك فتيان الاشراف والبغض في الصدور .

فجعل يهز رأسه ويقول : ولكني سأمشي الى الامام ولا اعبأ بهذا البغض حتى تصبح الكعبة في يدي ويخضع الحجاز لي .

قال : اما الكعبة فستبقى في يد حليل ، الا اذا عمدت الى قتله ونزع الحجابة منه .

قال : ما كنت لأقتل ابا زوجتي لأجلس في كرسيه .

— ولكن .

— ولكني اصبر .

— وانا أحب ان اعلم مقدار هذا الصبر .

— اصبر ريثما يتخلى هو عن كرسيه ثم يهبه لي . وذلك هو الفكر الذي يشغل بال قصي . فقهقه صفوان ضاحكاً وهو يقول :

أرأيت ملكاً ينزل عن عرشه ليجلس فيه غيره ؟

— اجل ينزل الملك عن العرش ليصعد اليه ولي عهده .

قال : لا يرفع ولي العهد الى العرش الا عندما يموت الملك ومع ذلك فالزمان لم يبخل على حليل بولي عهد كما تعلم .

قال : انه فتى لا يصلح لشيء .

— قد يكون خير الفتيان في نظر ابيه . وهب انه يشرب الخمر كما يقولون عنه، أفلا يعرف كيف يجلس في مقعده على باب الكعبة ليفتح الباب ويغلقه كما

بلعمل ابوه ؟ .
– وهل تقوم الحجابة بفتح الباب واغلاقه ؟
– نعم . وماذا يبقى بعد ذلك ؟ يبقى ان القوم يستشيرون حاجب البيت
في امورهم فينصح لهم بما يراه وينتهي كل شيء .
– غير ان المحترش لا يعرف ما هي النصيحة وما هو الرأي .
قال : يقوم في قومه من يعلمه الاثنين .
ثم قال : والان فانسَ الحجابة وخبرني متى تبدأ الحرب التي أعددت لهــــا
العدة .
قال : انك تبحث في اسبابها وانت لا تعلم .
فجعل يتفرس فيه وهو يفكر .
فقال : نعم ان الحجابة التي ذكرت هي التي تخلق الحرب .
– وكيف ذلك .
قال : اتزوج حِبى . ثم لا يمرّ الزمن حتى يتخلى لي حليل عن سدانة الكعبة
فتتجه اليّ العيون .
– ثم ماذا ؟
– ثم تقوم خزاعة فتسأل أميرهــا ان يولي المحترش فلا يفعل، فتلمع السيوف
وراء المطاف وتسيل الدماء .
قال لنفرض ان ابن حبشية لم يشأ ان يتخلى لك عن منصبه كما تقول ؟
– يتخلى اذن لولده المحترش .
– وبعد ذلك
– اعطيه عشرين زقاً من الخمر فتصبح السدانة لي .
– وحليل حي ؟؟
– نعم وقومه بنو خزاعة ينظرون.
قال : ورب الكعبة لو رأيت ملاك الموت قابضاً بيديه الحديديتين على عنق
حليل يريد ان يسلبه روحه او يترك كرسيه لجاد بروحه طائعاً مستسلماً على ان

يبقى له هذا الكرسي .

– ومن دلك على هذا ؟

– حب السيادة البادي على جبينه .

– ولكن أرجو ان تنزع حبى ذلك الحب .

قال : اذا كان لك امل بذلك، فهذا الأمل سيضيع

قال : ان ابن حبشية جاوز السبعين كما ترى .

قال : وتزيد رغبته في الحجابة كلما ابيض شعره .

– وهو مريض .

– لا نكاد نسمع انه مريض حتى نراه بباب الكعبة .

قال : أراك تمنعني من الاستسلام الى هذا الظن .

قال : نعم، فمثل قصي بن كلاب لا يستسلم الى الظنون .

قال : أتضيع آمالي في ساعة ؟

– لك أمل واحد، ولكنه ابعد من النجم .

– ما هو ؟

– هو ان الموت قد يفاجىء سادن الكعبة في ساعة من ساعات الحر،فتنتقل السدانة الى ولده ثم تنتقل اليك كما قلت .

قال : أأنتظر هذا الموت حتى يعطف عليّ ؟

– وماذا تفعل اذن ؟

– ابرز الى الساحة وانا واثق بالقدر الذي يمشي امامي كما يمشي خادمي ليمهد لي اسباب الظفر .

قال : اصبت ، وانا اكاد أرى جناحي هذا الظفر يخفقان فوق رأسك .

وانت يا يزيد فما رأيك ؟

– ليس لي رأي الا هذا السيف احمله عندما تأمرني بحمله وأضرب به عدوك عندما تأمرني بالضرب به .

– ولكن هذا العدو سيملأ مكة .

- ليملأ الحجاز كله، فسترى ان ابن ربيعة لا يخاف كثرة الناس .

فقال صفوان : أتطمع بغير الحجابة يا مولاي ؟

لو سألني أحد غيرك مثل هذا السؤال لقلت انه سؤال ابـــله . لقد وصفت انت هذه الحجابة وعرفت ما هي . نعم أطمع بغيرها ففتح الباب واغلاقـه لا يكفيني . اطمـع بجميع امارات العرب في مكـــة ، واطمع في رياسة المواسم ورياسة الاسواق . واريد ان استأثر بكل ما في القبائل والعشائر مـــن نفوذ وسلطان حتى لتحدثني نفسي ان آمر الناس بان لا يرتفع لأحد صوت الا بعد صوتي ولا تطرف لأحدهم عين الا إذا اذنت له . والويل لمن يتصدى للعاصفة اذا ثارت وللبركان اذا هاج ، ان الموت عندئذٍ يفتح شدقيه ليبتلع المستخفين المستهزئين .

وكان جبينه يصفرّ وعيناه تختلجان .

قال : ومتى تطلب السلاح الذي خبأت ؟

- يوم اطلب بني قضاعة الذين خبأوه .

- أيحاربون في مكة تحت لوائك ؟

- اجل ، ويطوفون معي في بلاد العرب اذا دعوتهم الى الطواف

قال : لقد كثر رجالك ولم يبقَ الا ان تقول كلمتك .

- سأقول هذه الكلمة بعد قليل وسيسمعها العالم .

فهم صفوان في تلك الساعة بان يقصّ عليه حكاية غرامه ، ولكنــه أراد ان يكتمه اياها كما فعل هو، ولا يبوح بها الا قبل الزواج .

ولم يعلم ان الاقدار هي التي تملي عليه ذلك الكتمان .

وكان الناظر الى يزيد يرى الدموع تجول في عينيه .

فقال صفوان : أتبكي يا يزيد ؟

قال : ذكرت ابي فبكيت .

- بل ذكرت ثأره وخفت ان يضيع .

- اي ورب الكعبة .

فقال قصي : لا يضيع لك ثأر وانا حي ، فاذكر اباك ما طابت لك الذكرى واعلم انك ستظفر بقاتله .

* * *

مشوا بعد ذلك بضعة وعشرين يوماً حتى اطلوا على مكة .

الحب في القلوب والشوق في العيون .

وصفوان لايصدق متى يرى ليلى .

فانتشر الخبر في السوق ان بني كنانة قـــد اقبلوا . فجعلت ليلى تبكي كأن ذلك اللقاء فراق لا بد منه .

ولعلها كانت تبكي ذلـــك العبد الامين الذي باحت له بغرامها واطلعته على اسرارها فكان عوناً لها في ذلك الغرام . ذلـك الخادم المخلص عبدالله الذي كان الرسول بينها وبين الحبيب . بل لم تكن تعلم اسباب هذا البكاء .

بلى . كانت تحس ان جسمها يرتجف . وقلبها يضطرب . وهي تخاف النظر الى وجه صفوان . وكانت تسائل نفسها فلا تسمع جواباً وكادت تسأل اباها لولا حياء العذراء الذي يصرعها الحب .

وقد فاتها ان للفرح ثورة كثورة الكآبة . وللقاء روعة تشبه روعة الفراق الذي ذاقت مرارته من قبل .

وكان صفوان في حال تشبه حـالها . يفكر فيها فتنقبض نفسه . وكلما تلفت ليرى عبدالله تسودّ الدنيا في عينيه .ومن اين له ان يعلم ان ذلك الرجل الذي احبه الحب كله سقط مضرجاً بدمه بطعنة ذلك الشقي الغدار الذي يبحث عنه . ان تلك الرحلة الى بصرى كانت رحلة خير كما رأيت . ولكن لغيره . اما هو فلم يرَ شيئاً من ذلك الخير الذي رآه سواه .

ويظهر ان يزيد بن ربيعة عرف ما يفكر فيه ، فقال له : متى تزور زياداً يا صفوان ؟

قال : غداً فليس للزيارة في هذا الليل من سبيل .

– وهل تظن ان عبدالله عثر على القاتل ؟

- لا اعلم فعبدالله من ادهى الناس وقد يكون اهتدى الى مقره ، ثم قال في نفسه :

لكل واحـــد منا غرض يفكر فيه ، قصي يفكر في حبى . وصفوان في ليـــلى . ويزيد في جبير . وأرى ان الغاية لا تتم الا لقصي ونخسر نحن الاثنين الباقيين ما نسعى لاجله .

واضطرب لهذا الخاطر الذي خطر له ، كأنه لمسه بيده ، ثم قـــال ليزيد : يخيل اليّ اني ارى شبحاً يشبه عبدالله . وعينا هذا الشبح تقطران دماً .

قال : وكيف تراه وانا لا ابصر شيئاً ؟

قال : هو هنا . امـــام عيني . وارى ليلى تسير وراءه وهي تبكي وعيناها تنظران الى الارض .

قال : ما هذا الحلم المزعج يا صفوان ؟

– انا في يقظة كما ترى ولست حالماً واشعر اني اذا مددت يدي لمست وجه عبدالله والدم المتساقط على خديه . ويلاه ان آل كعب في خطر واخشى ان تصدق هذه الصور التي ارها ملطخة بالدماء .

وجعل ينظر الى الامام والوراء كالخائف المضطرب .

فخاف يزيدمثله وهو يعلم ان النفس البشرية كثيراً ماتحس بالخطر قبل وقوعه ، فقال له :

ألا تذهب الليلة يا صفوان فنرى القوم ؟

فاجابه ولم يتردد ، نذهب الآن فلا سبيل الى الصبر ، وبدون ان يقولا لاحد كلمة ، تناولا سيفيهما وخرجا وهما يتلمسان الطريق تلمساً لشدة الظلام.

وكان القوم يسهرون كل ليلة بعد مقتل عبدالله في قاعة ابي زياد ويجلس الغلام طلحة في الدهليز ، حتى يدرك النعاس الجميع ، فينصرف كل واحـــد منهم الى فراشه . فلما وصل الاثنان في ذلك الليل ، رفع صفوان عمامته وقال للعبد القائم بالباب وهو يعرفه :

أيأذن لنا مولاك ايها العبد في الدخول ؟

قال : أسأل طلحة قبل ان اقول : نعم .

فالتفت الى يزيد قائلاً : من هو طلحة هذا ؟

– أتسألني وانا لا اعرف في مكة احداً ؟

فقال العبد : انه غلام جعله مولانا قيّماً على قصره ، ودخل فغاب لحظة ثم عاد وهو يقول : لقد اقبل طلحة .

فرأيا غلامـــاً صغير السن لا يعهد الى مثله في ادارة امور القصور ، وعجبا لذلك الحذر الذي يبديه عبيد زياد لزوّار القصر واضيافه ، والذي لم يريـا شيئاً منه قبل السفر الى بصرى .

فقال صفوان : أأنت طلحة ؟

– نعم يا سيدي فقل ما تشاء .

قال : اريد الدخول على مولاك اذا اذنت لي .

– ان مولاي الذي ذكرت هو الذي يأذن في الدخول ، فمن انت ومن هو رفيقك ؟

– اتذكر اسماء الداخلين لمولاك ؟

– اجل حتى لا يدخل عليه الا الذي يعرفه .

قال صفوان بن الحـــارث . ويزيد بن ربيعة . ولكن اذكر هذين الاسمين لعبدالله وهذا يكفي .

– يظهر انك لم تكن موجوداً في مكة .

فتراجع الى الوراء قائلاً : ويلك فماذا جرى ؟

– لم يجر شيء سوى ان عبدالله مريض .

ونقل الاسمين الى زياد ثم رجع يحمل الاذن في الدخول

فدخلا . وامام صفوان ذلك الشبح المصبوغ بالدم .

وكانت ليلى في القاعة وهي مطرقة .

فكاد صفوان ينساهـا عندما وضع قدمه على عتبة الباب واخذ ينظر الى الجانبين باحثاً عن عبدالله.

ثم ملك نفسه وانحنى فقبل ركبة الشيخ وصافح زياداً وليلى ويزيد يفعل كما يفعل وقد ساد السكوت .

لم يقل احد كلمة واحدة للقادمين حتى ان العيون التي تحدق الى الارض لم تنظر اليها .

وقد ذهل الاثنان . عن تلك الثياب السود التي تلبسها الجماعة .

ولم يصحُ صفوان من ذهوله الا عندما نهضت ليلى تهم بالخروج ، فقال لزياد:

ما اردنا ان تكون زيارتنا في هذا الليل لولا حوادث الزمان .

فتمتم زياد قائلاً : أتعتذر يا ابن الحارث وانت في منزلك .

قال : لولا هذا الحذر الغريب الذي رأيته على الباب لما فعلت .

قال : وما اقدمك ؟

فخفض صوته قائلاً : شبح رجل تسيل الدماء من عينيه .

– واين رأيت هذا الشبح ؟

– كلما اطبقت جفني رأيت وجهه المخضب وخيل اليّ ان شفتيه ترتجفان وان يديه ممدودتان تسألان الرحمة .

وعادت ليلى تحمل وعاء المسك وهي تشهق بالبكاء .

فقال : ويلاه لقد كانت الصورة التي رأيتها صحيحة ابن عبدالله يا مولاي ؟

فعاد القوم الى سكوتهم .

فجعل يردد قائلاً :

اين عبدالله لا اراه ؟

فقال زياد وهو يكاد يختنق: وكيف تستطيع ان ترى الرجل وهو في القبر ؟

فذعر اولاً ، ثم استولت عليه الكآبة وأخذ يقول : عبدالله في القبر ؟.

– نعم عبدالله لا سواه في القبر كما سمعت .

– وكيف مات ؟

– لم يمت حتف انفه ولكنهم قتلوه .

فصاح قائلاً : جبير بن عبادة ؟

– جبير بن عبادة .

فرفع يزيد رأسه وقال : ابن ربيعة يطوف في بلاد الشام وقاتل ابيه يطوف في مكة ويقتل الابرياء ؟... اتعيش انت يا ابن عبادة واعيش انا ؟... ولا يرى احدنا الآخر ؟

وارتفعت اصوات القوم في البكاء كأن ذلك القتيل العزيز امامهم يبكونه ويرثونه وينادونه باعذب الاسماء .

ثم قام صفوان فقال : وقتله غدراً ورب الكعبة .

– نعم فالنذل لا يطعن الا من الوراء .

– واين حدث القتل ؟

في وادي مكة حيثما تقوم خيام الفقراء .

ثم قال : ومن يستطيع ان يصف لك القتل كما جرى؟ لقد خرج عبدالله على ان يعود بعد ساعة . ثم جاءنا طلحة يقول : انه يدعونا اليه في ذلك الوادي وقد عثر على الرجل، ولكن ماذا رأينا في ذلك الوادي ؟ رأينا الجثة مكفنة بالتراب المجبول بالدماء وقد وضعها القاتل في حفرة .

وجعل يقص عليها مـــا رآه وما صنعه حتى بلغ قوله انهم ضيعوا أثره وأثر مولاه عدوان ، فقال :

وانتهى الأمر عند ذلك الحد يا مولاي ؟

– لا . فلما عدنا الى مكة طفنا في أسواقها، وفتشنا عن القاتلين في منازلها ، وارسلنا الرجال الى شعابها ومغاورهـــا فلم نبصر لهما ظلاً ولم نجد لهما اثراً حتى ان النساء المحجبات امرهن الغلمان بان يسفرن ليتبينوا وجوههن ففعلن ولكنهم لم يعثروا على شيء .

– كأنهم خافوا أن يتنكر الرجل بثوب المرأة ؟

– اجل وقد ابصرته ليلى بذلك الثوب يرعى ناقته بين الصخور الحمراء، ولو لم تره لما حدث القتل .

وأومأ الى ابنته قائلاً خبريهما بما جرى .

فمسحت ليلى دموعها واخذت تروي لهما ما تعلم وهما يسمعان .. ولو خبرهما ذلك غير ليلى لما صدقا .

وكان يزيد يخشى ان لا يعود جبير الى مكة بعـــد ذلك الاحتجاب. فقال: وهل تظن يا مولاي انه ذهب الى اليمن .

قال : لا اظن شيئاً الآن .

- وانت يا صفوان ؟

- اما انا فاعتقد انه سيصل الى الحبشة .

فقال ابو زياد : لا تضيعوا الزمان بالاقاويل والظنون فابن عبادة ومولاه اليمني من اعوان ابليس . لا تكاد تراهما في اليمن حتى تراهما في الشام ولا يقوم في ذهنك انهما في الحجاز حتى تبصرهما في جوف الكعبة .. ان الاثنين اخبث الناس واكثرهم شراً .

قال زياد : وماذا ترى ؟

- ارى انهما سيعودان الى مكة وسيضربان فيها ضربة اخرى ترقص لهـــا العجائز في السوق ..

- وتقع ضربتها على رأسي ..

فقال صفوان : بل على رأس صفوان .

فسمع طلحة من الخارج يقول : ستقع على رأس ابن عبادة نفسه .

قال صفوان : ما رأيت هذا الغلام من قبل، فمن هو ؟

- انه الغلام الذي رأى جبيراً سائراً في طريق الوادي ودلّ عليه عبدالله في صباح اليوم الثاني .

ومن هي عشيرته ؟

- صوفة .. وهو من اصدق الغلمان .

- وهل عرف ابن عبادة من قبل ؟

- لا يعرف له وجهاً ولكنه رأى عمامته الخضراء تخفي ذلك الوجه فانطبعت صورته في ذهنه .

قال : لقد كثرت العمائم الخضر وانا احد أصحابها ..
ولكنك طويل القامة وابن عبادة قصيرها .
– ومع ذلك فاذا فعل امرأ ثم ادعى اني فعلته فقد دب الريب في الصدور .
قال : أيقتل زياداً ثم يقول للناس ان ابن الحارث قتله ؟؟
– من يعلم يا مولاي فقد يفعل ذلك ونحن غافلون عنه ..
قال : ليحضر الى مكة وليفعل ما يطيب له .
فقال يزيد : غليظ العنق قصير القامة ، أليس كذلك ؟
– أجل .
– واذا مشى رفع رجليه كأنه يطأ الماء ؟
– نعم .
– ومولاه عدوان ؟
– ماذا تريد من مولاه ؟
– اريد ان تصفوه لي .
– انه مثل جبير قصير القامة ضعيف الجسم، في جبهته أثر جرح لا يخفى على الناظر ..
قال : سأجد الاثنين بعد حين .
– ماذا ؟
– نعم فسأنزل مكة بعد يومين واطوف في تهامة ونجد واليمن ولا اعود الا اذا ثأرت لأبي ولعبدالله .
– ولكنك لا تعرف في بلاد العرب احداً ..
– سأنزل حيث ينزل الغرباء واسأل كما يسألون .
– وماذا خطر ببالك الآن ؟
– خطر ببالي اني اذا قضيت العمر في مكة لا اجد اثراً لعدوي وما كنت لأبحث عن هذا العدو في فناء الكعبة او على اقدام الآلهة ..!
– غير ان البلاد التي ذكرت اكبر من الحجاز وقد تضيع فيها .

قال : خير لي ان أضيع في البادية وتطويني الصحراء من ان امكث في بلد يلسيني دم ابي ويضيع فيه ثأري .

قال : ما رأيت قط رجلاً يبحث عن قاتل لا يعرفه !! انك لا تسأل الناس هنه حتى ينقلوا اليه الخبر فيستخفي ثم يعمد الى الغدر بك كما غدر ابوه بابيك .

– والموت كما تقول، خير من الحياة في مكة، أتقلب في احضان السعة والنعم.

قال : أراك يائساً يا ابن ربيعة !

– نعم وليس من الغريب ان يدب اليأس في هذا الصدر بعد ان خسرت الأمل .. ونهض قائلاً هذا هو الضعف، بل هذا هو الموت ..

فقال ابو زياد : أجل . أيقتلنا جبير بن عبادة واحداً بعد واحد ولا ننقل اليه قدماً ؟!. اجلس يا بني فسنفعل كما قلت ؟

قال زياد : وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : يذهب رجلان من بني صوفة مع يزيد فيطوف الثلاثة في بلاد العرب حتى يقبضوا على القاتل .

– ولكن لا تنس يامولاي ان نفوذ بني صوفة لا يجاوز مكة ..

– ومعنى ذلك ؟

– معنى ذلك انهم لا يستطيعون ان يقبضوا على الرجل وهو في بلد غير هذا البلد .

ولكنهم يستطيعون ان يقتلوه .

قل انهم يقدرون ان يغدروا به ثم يفرون بعد ذلك كما فعل جبير بعد مقتل عبدالله .

فاجابه يزيد قائلاً : بل نقتله في وضح النهار والناس ينظرون ..

- ثم يقتلونكم جميعكم على الأثر كما يقتلون الذئب في الصحراء .

ومن يفعل هذا ؟

يفعله القوم الذين ينزل ابن عبادة في جوارهم .

وقد اصاب زياد في قوله . فالعربي ، وان يكن أضعف الناس ، لا يسلم

جاره ولو خسر كل شيء .. وجميعهم يعرفون ذلك غير ان يزيد لا يبالي بالخطر ولا يخاف الموت اذا هو ثأر لأبيه ، فقال : ومع ذلك فسأذهب ولا أرجع عمّا هممت به .

فابتسم صفوان وهو يقول : تعد بشيء قبل ان تستشير قصياً ويأذن لك في السفر ...

قال : سأفعل وسيأذن لي ..

فنسي زياد عندئذٍ ذلك الفقيد الذي يبكيه وقال : ألا يستطيع ان يسافر قبل ان يستأذن ابن كلاب ؟

– لا يا مولاي .

- وهل كان ابن ربيعة هذا عبداً من عبيد الرجل ؟

- لا ..

– اذن ماذا ؟؟

قال : لقد امسى قصي سيد كنانة وعاهدناه على الطاعة .

فلمع الحقد في عيني زياد وقال هازئاً : ولكن يزيد من البحرين ولم يكن كنانياً قط .

– اجل ، غير انه في جوار سيد الشعاب ومن رجاله .

قال : أتعترف بهذا يا ابن ربيعة ؟

– نعم يا مولاي وليس لي ان أخطو خطوة واحدة الا ّ بأمر قصي .

ثم نظر الى الشيخ قائلاً : أنقصد تهامة ام نجداً ؟

قال : اترك تهامة اليوم فستذهب اليها بعد رجوعك من نجد ، وسأدلك على البلاد التي تسير اليها بعد ان يأذن لك في المسير .

– دلني الآن يا مولاي فقصيّ لا يمنعني مما أرغب فيه .

قال : تترك مكة الى ديار بني هوازن ، بعد ان تمرّ بحي بني ثقيف ، وعامر ابن صعصعة وهذيل .

– وبعد ذلك ؟

- تسير قاصداً كندة ثم كعب بن ربيعة حتى تبلغ اليمامة فتطوف في فلج والوقيط وجدود وجميع الأحياء تسأل عن الرجل كأنك من اهله .

فقال زياد : ولا يبقى الا ان يمشي الى بني عبد القيس وتيم اللات فيصل الى البحرين مسقط رأسه .

قال : لا بل ينصرف من جدود الى بني عجل ، وضبيعةثم الى النباج ثم يعود.

- الى أين ؟

فضحك صفوان قائلاً : انك تذكر بلاد العرب لفتى لا يعرف منها بلداً واحداً

قال : سيتبع الرجلين من صوفة كما قلت فهما يعرفانها . يعودون الى بني طي وأسد وجديله وغطفان وقيس عيلان ولا يتركون حياً من أحياء نجد .

- واذا وجدوه ؟

- يضربونه بمثل السلاح الذي ضربهم به .

- أي انهم يكمنون له في ظلام الليل ويطعنونه من الوراء .

- بل يطعنون مولاه قبله ثم يتغللون بينالقبائل والعشائر متنقلين من موضع الى آخر حتى يرجعوا الى مكة .

فهمّ زياد بأن يخالف أباه في رأيه ، فأسكته قائلاً :

اراك تقول في سرك ان ابي يدعو الناس الى الغدر . أجل اني أدعوهم الى هذا، فليغدروا بابن عبادة ولو كان في فناء الكعبة وليس عليهم من بأس. ان الشريف العربي يبارز عربياً شريفاً على مرأى ومسمع من الناس ولكن النذل ، قاتل الأبرياء يدوسونه كما يدوسون رأس الافعى ولا يبالون اقتلوه في الحي ام في الصحراء ، في المضرب ام في السوق وأظهروا للعالم كله ان في عنقه دم بريء وقد ثأرتم به .

وغلى صدر الشيخ واستيقظت لوعته . فجعل يخاطب نفسه وشفتاه ترتجفان واللوم لا يفهمون قوله .

ثم قال لولده : عليّ الساعة بعبد اللات بن حارثة وعمر بن الأسود .

والاثنان من فتيان صوفة النبلاء الذين تعرفهم العشيرة

فقال : الليلة يا مولاي ؟

– بـــل الان فسأرسلها في طلب جبير وانا واثق بانها سيحملان اليّ رأسه ورأس عدوان .

– اصبر الى الصباح ريثما يعود يزيد حاملاً أمر سيده .

قال : ان الرجلين سيتركان مكة عند الصباح . فاذا أراد يزيد فليستأذن مولاه وليرجع قبل بزوغ الفجر .

– أسمعت يا ابن ربيعة ؟

– نعم وسأفعل .

فأرسل زياد من يدعو عبد اللات وعمر ولم يلبث الاثنان حتى أقبلا ، فقال الشيخ : أتعرفان نجداً ؟

فابتسم عبد اللات قائلاً : كما نعرف مكة .

– واليمامة ؟

– نعرف الجزيرة كلها لا نستثني بلداً .

– لقد رأيت ان ابعثكما في مهمة ، الى الاقطار التي ذكرت .

– ونحن قد عرفنا مهمتنا يا مولاي .

– ما هي ؟

– هي ان نبحث عن قاتل عبدالله فنقضي عليه .

– أحسنت . وماذا ترى ؟

– أرى اننا لا نرجع الا ّ إذا تمّ لنا الأمر كما تشاء .

قال : ألم يقصّ عليك زياد كيف يلبس ابن عبادة ثوب المرأة وكيف يحجب وجهه بالعمامة الخضراء ؟

– بلى .

– اذن ستطلبان في وقت واحد ، رجلاً له شخصيتان .

– هو ذاك .

– فإذا عثرتما عليه فعالجا أمره بالحيلة والدهاء حتى تضعا سيفيكما على عنقه وعنق عبده اليمني ،

وأومأ الى يزيد قائلاً : وهذا يزيد بن ربيعه بن سلول قتل عبادة اباه فأقبل يروي ظمأه من دم جبير .
أيكون معنا ؟
- أجل وسترحلون ، انتم الثلاثة ، في صباح غد . . إذهبا الآن وأعدا معدات الرحيل .
فخرج الرجلان ، وتبعهما يزيد ليسأل قصياً في ذلك الليل . ان يأذن له في الذهاب .
اما صفوان ، فلم يترك قصر زياد الا عندما انتصف الليل ، وقد كره ان يحدّث القوم بأمر الزواج وهم يبكون عبدالله .
واما ليلى فسهرت الى الصباح وقد بلّت فراشها بالدموع .

* * *

عندما وقعت عين سادن الكعبة على قصي بن كلاب ، فتح له ذراعيه فارتمى بينهما ، كالولد البار يضمه ابوه البّار الى صدره .
ثم تصافح العاشقان – قصي وحبّى – وجلس الثلاثة ، وابن كلاب يقص عليهما حكايات الشام وما سمعه عن حلم بني غسان . ولم ينسَ ان يصف لهما قصر الحارث في بصرى وكيف تعيش الوفود فيه .
فقال حليل : وهل رأيت الملك يا بني ؟
- لا يا مولاي! بل رأيت النعمان ولي عهده الذي هو صورة أبيه كما قيل لي.
قال : اولئك ملوك عندهم المال والرجال وتحوطهم العظمة والجلال .جبالهم تخرج الذهب ، وارضهم تنبت البركات ، اما نحن فالمال تجود علينا به العرب كما ترى وليس في ارضنا المجدبة غير الجفاف .وكيف يسوس بنو غسان الناس؟
– يخرج من قصر الحارث عدل يسود قومه المنتشرين في الاقطار ويرسل هو وبنوه هيبتهم الى النفوس فيبسط الأمن ظله من صحراء الشام الى فلسطين .
- وكيف ينتشر هذا الظل وملك العراق يغزوا الشام في كل عام ، والعشائر تفرّ من سيفه . ؟ !

قال : تلك حرب بين ملكين لا نبحث عنها الآن .

– اجل ولكنها ستنتهي بخضوع الملك الغساني لعدوه النعمان بن امريء القيس خضوعاً لا يقوم له بعده ذكر .

– اما انا فقد عرفت غير ذلك ، سمعت بني قضاعة يقولون ان الحيرة ستلقي سلاحها على قدمي بصرى .

قال: لقد كان ملك الحيرة في حربه وباء يحمل للناس الشدائد والموت. هكذا اخبرتنا وفود الحجاج ومع ذلك فنحن نسأل الآلهة ان يظفر بملك الشام لأنه أقرب الينا منه ولأن القبائل التي تستظل بظله تفد الى مكة كل سنة فتبذل فيها المال .

– والآخر ؟

– اما الآخر فلا يعرف عنا شيئاً والقبائل التي تقيم بأرضه ، الا القليل منها، لا تحج .

فرأى قصي ان يستفيد من سادن الكعبة ، كما استفاد من النعمان بن الحارث ، فقال :

أصبت يا مولاي فقبائل الشام لا تحج كما قلت ولها في ذلك عذر .

قال : ماذا؟

قال : لقد ذكر لي وليّ العهد نفسه ما تذكره أنت .

– أحدثك بأمر الحجاز ؟

– لم يحدثني الا بأمره وقد رأيته أعلم الناس بشؤون مكة وما فيها من تقاليد وعادات .

قال : هات .

قال : سيمنع قبائله في العام القادم من ان تحج لأنه لا يريد ان يسومها ظلم اولئك الأمراء الذين يحيطون بسادن الكعبة.

فدهش حليل وهو يقول : وكيف ذلك ؟

قال يستبدون برعايا الملك الغساني في الموسم ، ويسلبونها ما معها في السوق

ويهضم قويهم حق ضعيفها في فناء الكعبة ، كأن مكة ميدان فسيح للأقويـاء الظالمين النهابين . ثم قال : هذا تسرق فرسه ، وهذا تؤخذ ناقته ، والآخـر يستخفون به فينصبون له شركاً لا يلبث حتى يقع فيه . والامير الأكبر، الذي هو انت يا مولاي ، لا ينظر الى الظالمين من امرائه نظرة غضب ، ولا يبالي بما يسمع عن هذا الظلم الذي تتناقله افواه الحجاج ، في كل قطر ينزلون فيه .

- انا !؟

- نعم انت يـا مولاي ، وانت ترى ، ان ذلك الفتى الغساني ، لا يحدّث الناس بأمر الحجاز الا كما يحدثهم أبوه الملك ، فهو ينطق بلسان ابيـه ويخاطب الوفود باسمه . ومكة كلها ، بما يفد اليها مـن نبلاء ورؤساء وشذاذ يصفها لك كبير انجال الملك كأنه يقرأ ما يصفه في رقّ مكتوب !!!

فاصفر جبين حليل وأرخى نظره الى الأرض .

اما قصي فاستطرد قائلاً :

وانا لا اعلم يا مـولاي اذا كان ولي العهد صادقاً فيما رواه لي . ولكن الذي اعلمه ان الوفود نقلت اليه والى الملك هذه الاخبار التي سمعت ، فغضب الاثنان ولولا جلال الملك للعنا الحجاز على مسمع من جميع الناس الذين يزورون البلاط .

فظل الرجل ساكتاً .

قال : ما بالك يا مولاي ؟

- افكر في هذه الحكاية التي نقلتها اليّ .

قال : يخيل الي انها كاذبة وان الامراء اعف من ان يظلموا عربياً .

فرفع رأسه قائلاً : اتريد ان تعرف كل شيء يا بني ؟

نعم ،

اذن فاعلم ان كل ما رواه لك ولي العهد صحيح لا ريب فيه .

- ولكنهم كذبوا فيما ذكروه عن ضعف سادن الكعبة، أليس كذلك ؟

- لا ورب الكعبة ، لقد كنت ولم ازل ضعيفاً مع هؤلاء الامراء .

- أتعترف يا مولاي ؟

– اجل وذلــــك الضعف يمليه علي خوفي من النار التي تحرق مكة ثم تلتهم الحجاز كله كما قلت لك من قبل .

– ولكنك تنفر العرب من الناحية الاخرى والحرب خير من هذا .

– وماذا اصنع ؟

فلمعت العزة في عيني قصي وتمتم يقول :

مــــاذا تصنع ؟؟ ضع سيفك على ركبتيك ، وانت جالس بباب الكعبة ، واقطع به لسان الكذوب ، ويد السارق ، وعنق الظالم فيسلم الحجاز .

قال : كأنك تريد ان أنذب الناس الى الفتنة !!

– بل اريد ان تكون الحجابة أعز من العرش وان يكون حاجب البيت اعظم من ملك :

– ما كنت لأقدم على هذا وانا في آخر العمر .

قال : افعل . فتنتقل العظمة فيما فعلت الى ولدك .

فخفض صوته قائلاً :

عندما يغمض الموت عيني تنتقل هذه الحجابة الى غير هذا الولد .

– ولكني سأحميها .

قال :ان الذي يستطيع ان يحمي حجابة البيت يستطيع بالوقت نفسه ان يضع سيفه على ركبتيه كما قلت ويستهين بمن حوله من الرجال . فاذا مت فافعل بعد موتي ما تشاء .

– ولكني من كنانة يا مولاي والحجابة ليست لي

قال : ستكون للمحترش او لحبى وهذا يكفي .

وكأنه اراد ان يقول له ، متى كانت هذه الحجابة لأحدهما فهي لك .

فاكتفى قصي بما سمع ، وعرف ان هذا الرجل الذي ساد مكة زهاء نصف جيل ، لا يريد ان يخسر عرشه الصغير باغضاب امرائه . ولو جرد حليل سيفه كما قرأت ، لتمت تلك الغاية التي يسعى اليها ابن كلاب ، قبل ان يضع قدمه على العرش . كان يريد ان يوغر صدر الرجل لتشتعل النار ، فيثور هذا الجار على

جاره، وهذا الحي على الحي الاخر . ويمتد اللهيب الى جميع العشائر التي تناصر خزاعة ، فتتزعزع تلك القومية الكبيرة التي يعيشون في ظلها ، وتضمحل قوى الضعيف امام سيف القوي ، وهو ينظر اليها هازئاً ، مبتسما لمستقبله الزاهي الذي تتلاشى من سمائه تلك السحب السود .

انها فكرة لو مد له القدر اسبابها ، لمدّ يده الى التاج دون ان تغرق مكة في بحر من الدماء . ولكن ابن حبشية كان اكثر دهاء كما رأيت ، ان الزمان صفا له خمسين سنة ، فلا يعكر في يده صفو ذلك الزمان ، غير ان قصياً لم يبال بما رآه ، ان ذلك التردد الذي يظهره حليل تقابله من الناحية الاخرى عزيمة ثابتة لا ترد ، وارادة جبارة يفنى الحديد ولا تتغير ونفس كبيرة تستهين بكل ما في العالم من محن واخطار .

نعم اراد ان يخفض الرؤوس العالية ويخمد الاصوات المرتفعة في الحجاز بقوة دهائه ، فلم يستطع ، فعمد بعدئذ الى القوة الاخرى التي يستطيع معها ان يمحو كل شيء ، هي قوة سيفه .

وبلحظة قصيرة ، خلع عنه ثوب الدهاء ليلبس ثوب الغرام ، ثم قال : والآن .. فقد نسيت الحجابة يا مولاي ونسيت الشام .

فقاطعه قائلاً : وانا مثلك نسيت الاثنين فلا اذكر غير امر واحد هو قضية الزواج، افلا تسألني عنه الآن ؟؟

قال : بلى .

– وما رأيك فيه ؟

ليس لي رأي الا ان تأذن فتصبح حبّى لي .

فضحك قائلاً : أمهرها يا قصي ؟.

قال : لقد فعلت يا مولاي . مئة من دنانير الروم ومثلها من دنانير الفرس وثياب الخز من اليمن والديباج من بصرى .

قال : احسنت فهي لك ، فمتى تريد ان ازوجك ؟

قال : بعد ثلاثة ايام يا مولاي .

قال : أتتركين اباك يا حبّى بعد ثلاثة ايام ؟

فنظرت اليه قائلة: اذا اراد قصي فانا لا أترك ابي ساعة واحدة. فادرك قصي معنى ذلك الكلام فقال : أتريد يا مولاي ان يقال ان ابن كلاب خرج من قومه؟

– لا ولكني لا اطيق ان تخرج حبى من هذا القصر فتخرج البهجة التي تملأ جوانبه .

قال : سنقيم بالشعاب وهي من مكة .

فدمعت عيناه وهو يقول : واذا داهمني الموت وأنتما بعيدان ؟.

قال : أعاهدك يا مولاي على الوفاء لك والبرّ بك حتى تأتي ساعتي .

فقال : لقد رضيت وسأرا كما كل يوم . ثم قال : أتستشير قومك الليلة ؟

– نعم ولا أترك منهم احداً ، وانت يا مولاي .

– سأرى في هذين اليومين ما لم اره في حياتي .

– ترى ماذا ؟.

قال : العيون يبرق فيها الغضب والشفاه الصفراء تقذف اللعنات . انها عيون قومي وشفاههم يا قصي .

قال : ذلك ما لا نخشاه فبريق العيون يطفئه بريق السيوف . نعم بريق السيوف يا مولاي !.

– بل نسكت عما نرى ونستخف بما نسمع . ذلك خير مما تقول يا بني .

– واذا ارسلت اليك تلك العيون ألسنة النار ؟

ارسلنا اليها الرماح وانتهى الأمر .

ودخل المحترش في تلك الساعة وهو سكران ، فقال حليل :

لقد شربها ولدنا صرفاً فبانت في خديه .

فاجابه المحترش قائلا : ونحن نشربها منذ الصباح وراء جدار الكعبة مع اصحاب من اهل يثرب .

قال : اشربها عندما تشاء فلا حيلة لنا في ردك ، والآن فاعلم اننا سنزوج حبى بعد ثلاثة ايام .

فأومأ الى قصي وهو يقول : لقد تزوجت فتاة هي خير فتيات الحجاز يا ابن كلاب .

فقالت لأخيها : كما ان قصياً خير فتيان قومه .

قال : ولكن قومنا لايرضون . فحسبها ابوه كلمة سكران ، فقال :

لماذا يا بني ؟

– لأن رؤساءهم جميعهم يرغبون في حبى ليجلسوا بباب الكعبة ، على مقعد حليل بن حبشية !.

فجعل الواحد من الرجلين ينظر الى الآخر نظرات الاستغراب . امـــا المحترش فـكان يضحك . حتى خيل الى شقيقته انه يهزأ بالاثنين ، ثم قـــال : ويقول قومنا في سرهم ، كما تقول انت في سرك يا مولاي ، وكما يقول صهرنا قصي بن كلاب .

قال : اذكر ما يقولون وما نقول .

فارسل نظره الى جانبي القاعة كأنه يفتش عن كأسه ثم عاد يضحك .

فقال حليل : الا تحدثنا بما تعلم ؟

– بلى ولكني أخشى ان اجاوز الحد في قراءة الأسرار . يقولون ان المحترش لا يصلح الا لشرب الخمر .

– وغير ذلك ؟

– ولهم في ذلك عذر فقد سبقهم ابي الى مثل هذا وظن بولده الظنون !

– وقصي ؟

– ثم جاء قصي بعد ذلك يتبع اثرهم في هذا التفكير وينظر الى الكعبة بعينين يجول فيهما الطموح الى السلطان .

فجعل حليل يهز رأسه ويقول : لقد صرعته الخمر فلا يصحو الا بعد يوم .

قال : الزق اضعف من ان يغلبني في الصراع . لقد حدثتك يا ابي بما أعلم ، كما امرت ، ولم يكن غرضي الا ان أمزق الستار عن القلوب الطافحة بالحب .

– وأي شأن لحبى بما تقول ؟

– لولا حبى لما فكر الناس في كل ما ذكرت . اني اعلم كل شيء ، ولم يكن سكوتي على ما اعلم غير مظهرٍ من مظاهر الصبر الذي يجب ان يتحلى به أمراء البيت .

فقام قصي فقبله في رأسه وهو يقول : هذه هي النبالة ورب الكعبة .

قال : لكن للنبالة حداً ، وربّ الكعبة لا ادع احداً من خزاعة يمدّ يده الى الحجابة وانا خليفة حليل ووارث منصبه . ولئن تزوجت حبى خزاعياً وارادت ان تساعده في الحصول على الحجابة التي هي لي لأضعن خنجري في صدرها وصدره واطرحنّ جثتيهما امام حياض الماء تدوسهما اقدام الحجاج .

فقال قصي في نفسه : ان هذا المستهتر السكران اعظم اهل الحجاز علماً وابعدهم نظراً ، غير ان الخمر جعلت بينه وبين جلال الامارة حجاباً كثيفاً لا تخترقه النظرات .

ولعله اراد ان يصل معه الى النهاية ، فقال وهو يبتسم : أتستطيع حبى ان تجعل زوجها سادناً للكعبة ؟

قال : الكعبة عرش وحبى سلـّمٌ له .

قال : سأصبح زوجاً لها بعد ثلاثة أيام كما رأيت .

-- واذا كان هذا ؟

– اذا كان هذا سألتك باسم هذا النسب الجديد واستحلفك برأس ابيك ان تقول لي كيف يصعدون الى هذا العرش .

فنهض عن مقعده ومشى وهو يتهادى حتى كاد يقع على الارض لو لم يستند الى الجدار .

واخذ يتفرس في قصي ثم قال :

اما الصعود الى هذا العرش فانت اعلم الناس به . ولو لم يكن القدر عبداً لك لما اخترق سهم الغرام قلب أختي ورضيت بك زوجاً وهي التي ردت جميع فتيان الاشراف من العرب . انك ساحر تستهوي قلوب العذارى يا ابن كلاب ، وفتان المحاسن تأسر محدثيك بعذوبة هذا الحديث الذي لم أرَ له مثلا . ولكن

.. ولكن السدانة لا تخضع لجمال الوجوه ، والعروش المرتفعة لا تكون مقعداً للعاشقين ـ الخاملين .

فقال حليل : اسكت فنحن لانبحث في حجابة البيت الآن .

قال : خير لي ولك ان ابوح بما في هذا الصدر يا مولاي ، ان هـــذا الفتى يحب حبى . نعم ، ولكنه في الوقت نفسه يكاد يذوب حباً بذلك الباب الذي يفتح ويغلق لطوائف العرب

– اسكت يا بني .

– ومع ذلك فالكناني خير من الخزاعي . وقد لا انزل عـن حقي الا له ، يوم تجود عليّ به . وكره ان يقول لابيه : يوم يصرعك الموت وتفضي الحجابة اليّ ..

قال : ان اباك لم يزل قادراً على فتح الباب واغلاقه فلا يجود بحقه على احد.

قال : حسبت انك ستعمد الى الراحة بعد ذلك العناء المستمر الذي مرّ عليه الزمان .

قال : ما نريد راحةً تخلق حرباً .

فقال : اردت ان اقول ان المقعد الذي تجلس عليه يا مولاي لا يجلس فوقه خزاعي من بعدك ؟

– ولماذا تبغض قومك ؟

– لانهم كلما نظروا اليّ وانا امـــام الكعبة دلوّا عليَّ باصابعهم وهزؤا بي لأنهم يرون صعلوكاً من صعاليك مكة .

قال : اترك الخمر يا بني يتركوا هزءهم .

– اني لا احدثك عن الخمر يا مولاي ، لقد قلت ان العروش لا تكون مقعداً للعاشقين الخاملين يا مولاي وانا اعيد الآن ما قلت .

فتمتم يقول : كما انها لا تكون للسكارى المجانين .

وعمد الى استدراج ولده ليتعرّف ما في نفسه ، فقال :

هب ان الموت داهمني الساعة يا بني وقبل ان يضمني اليه أوصيت لك بسدانة

الكعبة ، فماذا تصنع ؟

فحبس قصي انفاسه ليسمع

فقال المحترش : افتح باب البيت في ساعـــات فتحه . واغلقه في ساعات اغلاقه . وانا اعلم في الحالتين كيف اكون مرجعاً لاهل هذا البلد وللوفود التي تحجه .

– واذا وقف احدهم بينك وبين ذلك الباب ؟

– ومن يجسر على هـــذا وانا امير الحجاز ؟ ان العربي الذي يفعل يكون نصيبه السيف .

فابتسم قائلاً : لا تكاد تجرد هـذا السيف من غمده حتى تمتد اليك الايدي من النواحي الاربع ويجعلك القوم داخل نطاق من السيوف .

– ولماذا لا يفعلون اليوم ما تقول ؟

– لان اطماعهم لا تجاوز صدورهم ، ولأنهم ينتظرون الساعة التي ينزل فيها حليل بن حبشية الى قبره .

– وعند ذلك تخرج تلك الاطماع من الصدور .

– نعم ، ويبرز الى الساحة اولئك الامراء ، ثم ينزعونك من ذلك الكرسي الذي تحسبه ثابتاً تحتك الى الابد .

– ولكن يبقى لهذا الكرسي انصار من اهل مكة .

– بل لا يبقى لك فيها احد . تتحد خزاعـــة وصوفة وبنو بكر على الامر وينتهي كل شيء كما يريدون .

– واهل الشعاب ؟

– واي شيء تطلبه من هؤلاء !؟ انهم اهل تجارة كما ترى وليس لهم مطمع في حجابة البيت .

قال : استعين بهم على القوم فينتصرون للسدانة المهشمة .

– ومن يستطيع يا بني ان يخرج الكنانيين عن حيادهم اذا استعرت بينك وبين العشائر ، نار القتال !؟

فاشار الى قصي وقال : هذا .

– ولكنه عاشق خامل يعدك بذلك ولا يفي بما وعد .

فقال : اصحيح هذا ياابن كلاب ؟

– اجل وذلك شأن الخاملين .

– اذن فانا انصح لحبى‌ان تتزوج عبداً من عبيد الحجاز،فقد يجول في عروق العبيد دم المـــروءة والشرف . ولكن لا . فقد اتخلى له عن الكرمي ليجلس فوقه اذا هو دافع عنه .

– وماذا تفعل بعد ذلك ؟

– انصرف بعد ذلك الى الشراب كي لا ارى احداً من الامراء .

فقهقه الثلاثة ضاحكين. غير ان ضحك حليل كان يشبه البكاء بل كان بكاء ، ودب النعاس الى عيني المحترش فاستلقى على مقعده وقصي يقول في نفسه :

نم ايها النسيب السكران فلم يفهم احد قصياً مثلما فهمته انت .انك خير من في الحجاز من الرجال . ونهض قائلاً : لقد كان حديثه حديث حكيم من حكماء العرب الذين لهم الرأي في الحادثات .

فاجابه حليل :اخشى ان يكون ذلك الحديث ثورة سكر لا تلبث حتى تتغير عندما يصحو .

قال : حسبنا ان تكون كذلك يا مولاي .

وخرج من القصر وهو ينظر الى الكعبة نظرات الحب والشوق .

فهامس حليل ابنته قائلاً

ان زوجك يا حبى سيخلف اباك في الامارة التي يطمع فيها القوم .

فارخت نظرها الى الارض واكتفت بابتسامة قصيرة هي ابتسامة الرضى .

* * *

– ٢ –

قبل ان يدعو قصي قومــه في صباح اليوم الثاني الى منزل اخيه زهـــرة ليشاورهم في شأن زواجه، ذكر سودة الكاهنة التي قرأت له بعض صفحـــات

حياته . واراد ان يدخل عليها في تلك الساعة لتقرأ له الصفحات الباقية من تلك الحياة ، ولعله كان اشد الناس ايماناً بما تنطق به ابنة اخيه .

فقال لزهرة : هلمّ نسمع رأي الكاهنة قبل ان تجتمع كنانة .

قال : هممت بان اطلب اليك ذلك فسبقتني اليه . ودخل الاثنان ، فقالت سودة لجاريتها :

اغلقي الباب فقد يدور بيني وبين ابي وعمي من الاحاديث ما لا يجوز ان تسمعه الجواري ، ثم قالت لهما : لقد ظننت اني اراكما امس .

فقال قصي : كنت امس في مكة ولم ارجع منها الا في الهزيع الاول من الليل .

قالت : وستذهب اليها غداً كأنك تزور الكعبة في كل يوم .. أرأيت فاطمة واولادها في الشام ؟

وهي تعني امه واخوته .

– رأيت جميع الذين اردت ان اراهم في ذلك القطر .

وكيف كانت رحلة هذا العام ؟

– رحلة خير وبركة كما تعلمين .

قالت : حلمت ان الذهب اصبح كثيراً بين يديك، افكان هذا الحلم صحيحاً ام ماذا ؟

قال : صحيح فقد بقي لي من هذا المال ما يكفيني عشرين عاماً .

– اذن يكفي قومك شهراً واحداً اذا اعطيتهم اياه .

فعرف انها تدعوه الى بذل ماله . فقال :

سآخذ منه ما اجعله مهراً لحبّى ثم اجود بالباقي .

– وهل زوّجك حليل ؟

– نعم وبعد ثلاثة ايام تنتقل حبّى الى الشعاب وقد جئت الآن استشيرك في هذا الأمر .

قالت : سل ما تشاء .

قال : أتعجلت زواجي يا ابنة اخي ؟
– لا ، فقد احسنت اختيار الفتاة كما احسنت الزمان .
– ولكنك لا تعرفين حبّى .
– اعرفها اذا وصفتها لي .
قال : جمال يفتن خدام الكعبة وجلال يتوّج ذاك الجمال .
قالت : ستسترجع في هذا الزواج عز قومك . والآن فخبرني ما هو حال المحترش ؟
– لو لم يكن شرّاباً للخمر لكان اجدر الناس بحجابة البيت . انه يعرف اسرار الزعماء في مكة كما يعرف نفسه ، ولا يطيق ان يسمع اكاذيب الرجال الجالسين على كراسي المجد .
قالت : اراك تحبه يا عم .
– اجل ولكني لم اظهر له هذا الحب .
قالت : اقترح عليك ان توصي الذاهبين الى الشام بان يحملوا اليك منها زقاق الخمر لتهديها الى الفتى الذي احببت . ان الخمر قليلة في مكة ، وليس لك ان تعمل الا ما امليه عليك .
فضحك قائلاً : الزق الواحد يكفيه .
فلم يفهم زهرة شيئاً من الغاز الاثنين . ثم قالت : وهل وجدت في بصرى ما وجدته في يثرب ؟
– سيوف الاولى خير من دروع الثانية .
– واين وضعت هذه السيوف ؟
– تركتها في الصحراء ريثما تأتي الساعه .
– احسنت ، فالسيوف في رمال الصحراء لا تصدأ .
وجعلت تضرب الارض بيدها كأنها تضربها بالسيف وهي تقول :
اجل . عندما تأتي الساعة تخرج هذه السيوف من مخابئها وتمشي الى مكة في ركاب الفرسان . احسنت يا سيد العرب احسنت ، فستحمل سيوفك ، الذل

لقحطان والعز لعدنان .

وسكتت فجأة كأن الالفاظ لا تخرج من فمها الا بعد تفكير ، ثم قالت : وماذا تسألني غير ذلك ؟

قال : أأدعو ابناء قومي جميعهم ام ماذا ؟

قالت : اذا شاورت فشاور شيوخهم والزعماء ، واين تجتمعون يا عم ؟

– في منزل ابيك وراء هذه القاعة حيث تسمعين كل شيء .

– وراء هذه القاعة كان جدي كلاب يجمع قومه . احملوني الى ذلك الموضع الساعة وليحضر القوم .

– اتجلسين بيننا يا سودة، والناس لا يرون لك وجهاً الا اذا اذنت لهم ؟ ذلك خروج عن العادة لا ارضاه .

فهزت رأسها قائلة : اذا كان الخروج عن العادات لا يرضيك ، فخير لك ان ترجع الى منازل قضاعة لرعي النوق . نعم يا عم ، خير لك ان تعود الى رعي النوق . احملوني الساعة .

– وماذا تقولين للقوم ؟

– اسمع ما يقال ولا اقول كلمة .

– ولكنك تسمعين كل شيء من وراء هذا الباب كما قلت .

– ذلك لا يكفي ، فانا اريد ان اتبين الوجوه .

– وما هي الغاية من ذلك ؟

– الغاية منه ان ألمس بيدي خضوع الناس لعمي وحبهم اياه .

– سيأتي يوم تظهرين فيه للناس وتحدثينهم بما تريدين . ان ذلك اليوم قريب والحرب على الابواب .

قالت : يوضع في طرف القاعة ستار مثقوب اجلس وراءه فأرى جميع الزعماء ولا يراني احد .

فقال قصي في نفسه : تريد ان تقرأ من العيون ما تضمره الصدور ، انها لا تثق بالقوم على ما ارى .

ونهض قائلاً لأخيه : هات يدك يا زهرة ، وحملا الكاهنة فخرجا بها من تلك القاعة الصغيرة الى القاعة الكبرى التي كان كلاب مرة يجمع فيها قومه .

وفي احدى زواياها جعلا لها ستاراً وضعاها خلفه ، وارسلا يطلبان زعماء الشعاب والشيوخ المجربين .. وقصي واثق بطاعة القوم واستسلامهم اليه .

وبينا الثلاثة ينتظرون المدعوين . اقبل صفوان بن الحارث ومعه يزيد بن ربيعة ، والأخير بلباس السفر .

ففاجأهما قصي بقوله : ماذا أرى ؟

فاجابه صفوان قائلاً : هذا يزيد بن ربيعة يريد ان يترك مكة ليطوف في البلاد.

— وهل ضيع صاحبه ؟

— نعم فقد عرفنا امس ان ذلك الصاحب فرّ من مكة وقد لا يعود اليها بعد اليوم .

— ومن رآه فيها ؟

— رجل يطلبه كما يطلبه يزيد .

قال : لو كان رجلاً لما افلت عدوه من يده . انه جبان لا خير فيه .

فجعل يقص عليه القصة وهو لا يذكر الاسماء حتى انتهى الى قوله : انهم وجدوا جثة الرجل في خيمة القاتل المضروبة في الوادي ، فقال قصي :

وكيف عرفوا انه ترك مكة وقد لا يعود ؟

— أرشدهم اهل ذلك الوادي الى الطريق الذي فرّ منه فاذا هو طريق اليمن.

— ثم ماذا ؟

— ثم اخذوا يطوفون في اسواق مكة ويدخلون بيوتها وينزعون الحجاب عن كل وجه تحوم حوله الظنون فلم يجدوا للقاتل أثراً .

قال : اذكروا الامر لحليل فهو قادر على القبض عليه .

— بل هو يعجز عن ذلك .

فقال زهرة : اذكر كلام النعمان الغساني يا قصي .

فابتسم ولم يجب . وساد السكوت لحظة ثم قال : والى اين تذهب يا يزيد؟

– لا أعلم يا مولاي فقد يدفعني القدر الى زيارة الجزيرة من اقصاها الى اقصاها.
– ولكن ذكرت لي ونحن في يثرب انك لا تعرف بلاد العرب .
– هو ذاك .
– وكيف تقتحم اخطار هذا الطواف وانت وحيد ؟
– سيسير معي رجلان من بني صوفة فالقتيل منهم .
فضحكت سودة من وراء الستار وهي تسمع وترى .
واذا هي تقول : ماذا تصنع يا ابن ربيعة اذا قيل لك ان قاتل ابيك في بلاد تبّع ؟ فارتجف الفتيان لأنهما عرفـــا ذلك الصوت .. انه صوت الكاهنة التي نسياها .. وتردد يزيد في الجواب ، فقالت له :
قل يا يزيد ماذ تصنع
– أسير اليها فأبحث عنه .
– واذا ذكروا لك فيم إنه تركها الى اليامة ؟
– ألحق به دون ان أتردد في الأمر .
– ثم يقال لك في اليامة نه لجأ الى نجد .
– أقصد نجداً ولا ابالي .
فضحكت قائلة : اذن تعود الى مكة بعد خمسة اعوام وانت تبلغ الغاية .
فقال صفوان : جودي علينا بالرأي ايتها الكاهنة .
قالت : اتأذن لابن ربيعة السفر ياعم
– اجل فمن العار ان ينسى دم ابيه .
– اذن لا بد لك من السفر يا يزيد .
– نعم واسافر بعد ساعة فماذا ترين ؟
– أرى ان تبدأ بتهامة فتمر بها لأنها اقرب البلاد الى الحجاز .
فاشرق جبين صفوان وقال : ومعنى ذلك انك ستجد فيها صاحبك أليس كذلك ايتها الكاهنة ؟
قالت : لقد ذكرت له هذا وله ان يظن مـــا يشاء . ثم تغير صوتها وجعلت

تقول : خير لابن ربيعة ان يبقى اليوم في مكة
ـ لماذا ؟
ـ لأن الزمان سينقلب بعد حين فيهون البحث عندئذٍ عن قاتل ابيه . نعم يجب ان يبقى ريثما يصبح الحجاز في عهده الجديد .
ـ ولكني لا أطيق البقاء يوماً آخر .
فسكتت ، كأنها ليست موجودة وراء ذلك الستار . وحاول ابوها وعمها ان يخرجاها عن ذلك السكوت فلم تفعل ، فقال قصي ليزيد :
لقد سمعت الآن كل شيء فافعل ما يطيب لك .
فنهض قائلاً : سأرحل الآن قاصداً تهامة ولو قتلت .
فقال لصفوان : اختر له من ابناء قومنا من يذهب معه .
قال : لا حاجة لي الى رفيق من كنانة فالرجلان من بني صوفة يكفيان وقد انت ساعة الذهاب ، وهمّ بان يقبّل ركبة قصي فمنعه من ذلك وقبّله في جبينه وهو يهمس في اذنه : إحذر ان يقتلك هذا العدو الذاهب الى قتله .
قال : حسبي مولاي اني أموت في سبيل ثأري . وصافح زهرة وخرج وصفوان يهمّ بالخروج معه ، فقال قصي : ارجع يا صفوان ، فرجع ، فقال :
اعط يزيد هذه الدنانير ليستعين بها على أمره. ولا ترافقه الى مكة فأنا بحاجة اليك ، ففعل ما أمره بـه وعاد الى القاعة ويزيد يقول له : الى اللقاء يا احب الناس اليّ . وانحدر من الشعاب قاصداً منزل زياد بن كعب ، وهو يخشى ان يكون الرجلان قد سبقاه . فلما اقبل على القوم قال زياد :
خيّل الينا ان سيد كنانة الجديد لم يأذن لك في السفر ، فأمرنا الرجلين بالرحيل منذ ساعة .
ـ وهل استطيع ان الحق بهما يامولاي ؟
ـ انهما على ناقتين تسبقان الطير .
فأطرق ملياً ثم قال :
وهل أراهما في تهامة اذا ذهبت اليها ؟

- لا ،فقد ذهبالى البلاد الاخرى التي بينها وبين تهامة مسيرة عشرين يوماً .
- اذن كتب لي ان ابحث وحدي عن قاتل ابي الذي لم ار َله وجهاً .
- بل تستطيع ان ترى عبد اللات بن حارثة وعمر بن الأسود في ديار بني هوازن إذا عجلت في المسير .
- ولكني اذهب ماشياً وهما راكبان ؟ .
قال : يعطك ملك الشعاب ناقة تركبها .
- لقد ذكر لي صفوان النوق والخيل فلم ارضَ .
- لماذا ؟
- لأن راكب الناقة لا يستطيع ان يستخفي عندما يشاء .
- وهل معك مال يا ابن ربيعة ؟
- نعم يا مولاي فدنانير قيصر تملأ راحتيّ .
قال : مال صفوان بن الحارث كثير .
قال : ذلك مال قصي لا مال من ذكرت .
واي سماء أمطرت سيدك مالاً ؟
- تلك هي سماء الشام يا مولاي .
قال : عندنا من المال ما نبذله لك في سفرك إذا أردت ونوقنا نجائب .
- لا احتاج إلا الى عطف الأمير الذي غمرني بفضله ، وقبّل يده وترك القصر وهو يفكر في أمره . أيبدأ بتهامة ام بهوازن؟ ان في الرأيين مجالا للتفكير .
اذا اختار تهامة فلا بدّ له من عربي صادق يدله على القاتل الذي يبحث عنه
واذا عمد الى الرأي الآخر فكأنه لا يثق بالكاهنة التي لا تكذب . وهذاهو الخطأ . وهل يليق بابن ربيعة الذي يطلب بدم ابيه ان يعود الى الشعاب ويظهر ضعفه بطلب رفيق له ؟ ، وهل يستعين الشريف الثائر برجل مثله ليبلغ معه الغاية من ثأره ؟ انه عجز لا يعترف به ولو خسر حياته ، فعوّل على الذهاب الى تهامة . رفيقه سيفه . وصديقه المال الذي يحمله . والحكمة في السؤال عن ابن

عبادة ، دليله وعونه . ومشى الى الكعبة فسأل آلهتها ان تمهد له سبل الثأر ثم غادر مكة والنار تضطرم في صدره .

* * *

اما الآن فعدّوا لي زعماء القوم .

قالتها الكاهنة وقد رفعت الستار فبان وجهها لصفوان .

فقال زهرة : عشرون رجلاً بين زعماء وشيوخ .

– وما هو مهر حبى يا عم ؟

فقال قصي : مئتا دينار يتبعها الخز والديباج .

– وماذا يبقى لك ؟

– سلي زهرة فالمال معه في هذا المنزل .

قال : اظن انه يبقى مثل ما يعطي .

– اذن يحتفظ سيد الشعاب لنفسه بمئة دينار ثم يجود بالباقي على الزعماء الذين سيجيئون . .

فرفع قصي صوته قائلاً : لقد اعددت لهذا الامر كل ما تقولين .

قالت : وانك صاعد الى القمة كما يصعد السحاب . .

وبينما هم يتحدثون اقبل بنو كنانة وكبيرهم يقول : دعانا قصي فلم نتردد في المجيء .

فصافحهم قائلاً : خطر لي خاطر اريد ان اشاوركم فيه .

قال : ذلك ما كان يفعله كلاب من قبلك ، اذكر ما تريد .

– رأيت في مكة فتاة فاحببتها وسأسألكم عنها الآن .

– كنا نؤثر ان تكون هذه الفتاة من قومك ، ممن هي ؟

– من العشيرة الكبرى صاحبة السلطان. واما انها لم تكن من قومي فما حيلتي وانا لم استطع ان أغلب عاطفة الحب .

– ولكن اذكر انك من ولد اسماعيل اعظم رجال العرب .

قال : والفتاة التي احببت تنتمي الى بيت هو اعظم بيوت هذا البلد .

– ذلك هو بيت حليل ورب الكعبة .
– نعم والفتاة التي سأسألكم عنها هي حبى ابنة حليل .
– ليس لنا مـــا نقوله في شرف هذا البيت أفتريد الآن ان ينزل قومك فيخطبوها لك ؟
– اذا رأيتم ذلك فافعلوا ..
قال : ولكن نخاف ان نلجأ بعد ذلك الى السيف ..
قال : خطبة يعقبها سيف يا ابن العم ؟
– اجل فقد يردنا حاجب البيت . وفي هذا الرد انتهاك للحرمة وجرح للعز وهذا يكفي ..
– هب ان الامر حدث كما تقول أفتخشون الحرب ؟
– لا ولكن نتدبر امرها قبل ان نخوض المجال ، وأومـأ الى اخوته قائلا : هؤلاء رؤساء كنانة فاسمع اراءهم ..
قال : ماذا ترون ايها الزعماء ؟
فقال احدهم ، وهو خداش بن عبيد من ابطـال العشيرة وأصحاب الرأي : أتحاربون وأنتم لم تعدوا العدة
وما هي عدتكم للحرب ؟
– طائفة من السلاح يتناول منهـــا القوم عند الحاجة ومال يكفي الجيش عامين كاملين .
– اقد اعددنا لك كل هذا يا خداش ..
– ولكني لا أرى شيئاً ..
فقال صفوان : يكفي ان يقول ولا يرى ..
ثم قام شيبة بن حبيب فقال :
استولت خزاعة على الكعبة منذ ثلاثة أجيـال وكان اجدادنا انصاراً لهـا كما تعلمون ..
فاجابه قصي بهدوء : وتلك احدى مآثر اولئك الاجداد ..

- وقد انقضت الاجيال ونحن نعيش مع القوم في جو هـادىء وتحت سماء صـافية ...

- ثم ماذا ؟

- فاذا ردنا سادن الكعبة وخرجنا من قصره لنحمل السيف فقد ضيعنا ذلك العهد بيننا وبين القوم وخلقنا في مكة فتنة لا تخمد نارها حتى تهلك رجـال الشعاب ولا يبقى منهم رجل قادر على الدفاع ..

فظهر قصي عندئذٍ في مظهره ، فقال : معنى ذلـك انك رأيت شبح الحرب فخفت منه .

قال : لو كان كلاب حياً لقال لك ان شيبة بن حبيب لا يخاف .

- اما قصي بن كلاب فقد قال الان ان الخوف وحده يملي عليك هذا الرأي. الظن ان بني كنانة ، اعز عشيرة بين عشائر العرب ، اضعف من ان تصون هـذا العز الذى تركه لها اسماعيل ؟ ام يقوم في ذهنك ان سيوف بني خزاعة اطول من سيوف قومك وان الميادين لم تخلق الا لفرسانها ؟

قال : تلك ظنون لا تخطر الا للجبناء ولم اكن قط جباناً كما تعلم الشعاب . لقد ظننت شيئاً آخر .

قال : عرفته ، انك تقول في نفسك الان ان هذا الذي يدعونا الى الحرب لا يملك من اسبابها سبباً واحداً أليس كذلك ؟

فرفع رأسه قائلاً : هو ذاك .

اذن فاعلم ان قصياً هذا ، الذي قدم من الشام لا يحمل سيفاً ولا يحمل مالاً يستطيع بكلمة واحـدة ان يفرش الارض من الشعاب الى الكعبة سيوفاً حولها الذهب . بل يستطيع بكلمة واحدة ورب الكعبة ان يجعل في كل شبرٍ مـن هذه الارض رجلاً حتى تسد اجسام الرجال منافذ مكة ويستسلم القوم الذين فيها لهذا الفتى الذي يخاطبك الان .

وارتسمت على وجهه آثار القوة الجبارة والجـلال الفياض ، وبعثت عينـاه ذلك النور الذي يبهر الرجال .

وساد الصمت المجلس . ولو اخترقت العيون ذلك الستار المضطرب في زاو، القاعة . لرأت تلـــك الفتاة الكسحاء . تلك الكاهنة المحجبة ، تبتسم لعمها ابتسامة الرضى . ولأبصرت ذلك الجبين الاصفر تبدو عليه دلائل الظفر .

ثم قال : اريد ان تدلني الان على سيد الشعاب .

فاجابوه بمظاهر الاستغراب وقد بدت ، في العيون وعلى الوجوه .

– من هو سيدكم ايها القوم ؟

فقال صفوان بن الحارث : انت . فردّد القوم تلك الكلمة بصوت ضعيف .

فقال وهو لا يبالي : واريد ان اعلم اذا كنتم ، انتم رؤساء الحي تطيعون سيدكم طاعة عمياء في كل ما يشاء .

فعلا صوتهم قائلين : نطيـع .

قال : وما تبالون اذا كانت الحرب وراء هذه الطاعة ؟

– ما نبالي .

– وهل فيكم من يطمع بهذه السيادة ؟

– لا .

فوقف وهو يقول : اقسموا ببيت العرب .

فاقسموا كأنهم امام هبل . وقـــد اشرقت وجوههم بعد تلك المبايعة التي جرت في ساعة ، ولكنه عرف انهم يفكرون في الحرب ، فقال :

اما الان فستعلمون ما اردت ان اكتمكم اياه . ان الحرب التي تخشونها لا تستعر نارها اليوم كما تظنون .

– الا اذا أبى حليل ان يزوجك حبى .

– ما كان حليل ليفعل هذا وله رأي. لقد زوجني وانتهى الامر . ولولا عادة النبلاء من العرب ، لـكانت حبّى الآن في هذا المنزل دون ان اسألـكم رأيكم في قضية الزواج .

– وقوم حليل ؟

– ليس لنا شأن مع هؤلاء القوم . سيجمعهم سادن الكعبة في قصره ويحدثهم بالأمر الليلة .

– ومن حقهم وهم الاشراف ان يخذلوه .

– لا احسب ان فيهم احداً يجسر على ذلك .

– وماذا يخافون وهم لايعرفون من انت ؟

– يخافون سادن الكعبة نفسه الذي هو اعرض الخزاعيين جاهاً وأبعدهم صوتاً بين قبائل الحجاز .

– ولكنهم يضمرون لنا الشر .

– ونحن نفعل مثلما يفعلون ، يعطوننا ولاءً فنعطيهم وفاءً . واذا جاهرونا بالعداوة برزنا الى المجال .

فارتجف الستار وقالت صاحبته :

كما يبرز الأسد من عرينه لينازل الذئاب التي تعوي حوله ، لقد كنتم سادة الحجاز فخسرتم هذه السيادة فبعثت الآلهة اليكم فتىً من صلب مضر يعيد اليكم ما خسرتموه ، فأطيعوه .

فخيل اليهم ان الكاهنة تخاطبهم من السماء . ثم قالت : والويل لمن تحدثه النفس بالاستخفاف بما اقول . ان الآلهة تقذف به عندئذٍ من قمة هذا الجبل فلا يبصر الشعاب بعد ذلك .

فصاحوا قائلين : لتشهد علينا الآلهة اننا رجال قصي بن كلاب نبذل له الأرواح ونفديه بالدماء .

فعادت الى السكوت لانها عرفت ان الامر قد انقضى كما تحب . وايقن قصي في تلك الساعة بان الكلمة التي قالتها الكاهنة نشرت ظله في منازل كنانة ، ومدّت رواق نفوذه فوق تلك الجبال فلا يستطيع احد بعد ذلك ان ينزع من يده ذلك السلطان . كما أيقن بان سودة لم تسأله المجيء الى تلك القاعة والجلوس وراء ذلك الستار ، الا لتجعله سيد الموقف ، على الصورة التي قرأت .

وكلمة واحدة تقولها كاهنة القوم ، خير من عام كامل يسعى فيه قصي

ليجعل الامر في يده . وليس بدعاً ، فقصي اذا قال كلمته فهو من الناس . امـا سودة فكلمتها تخرج من فم الله .

ثم قام خداش فقال :

وهل بقي شيء يا مولانا ؟

– بقي ان تتناولوا الطعام في هـذه القاعة ثم ينصرف بعضكم بعد ذلك الى قصر حاجب البيت ، وأومأ الى زهرة فتبعه الى الداخل وجعل يعدّ مـاله . ثم حمل ما اراد ان يهبه لهم وخرج فقال :

ابدأ الآن بان اعطيكم هذا المال الذي ربحته من بصرى . وأخذ يناول كل واحد منهم عشرة دنانير وعليها صورة قيصر . فارتفعت اصواتهم بالدعـاء ، واصبحت نظراتهم اليه نظرات احترام واعجاب .

ان الفتى الذي لا يملك شيئاً ، ينثر الذهب ، والحجازي المجهول الذي حملته قضاعة الى مكة يسود قومه بمـا يشبه السحر ، انها احدى غرائب القدر كما رأيت .

وبعد قليل احضر الطعام ، وجعلت الآلهة تتكلم بلسان الكاهنة فتقول :

غداً يجلس قصي بن كلاب سيد كنانة بباب الكعبة . وبيده مفاتيح الباب . وغداً يخفض السيف تلك الرؤوس الكبيرة التي لم تذل . وتنحني الجباه امـام حاجب البيت الجديد الذي يشرّف الحجاز . ويتربـع في عرشه ، ويضع بيده تاجه على رأسه .

غير ان هنالك جثثاً تملأ الاسواق . ودماً يجري بين المنازل . وسيوفاً تحصد الرقاب وتقذف بها الى موطيء النعال . انها سيوف العدنانيين تسترجع المجـد المفقود . وهذه راية كنانة . اني اكاد المسها تخفق في فناء البيت . وفوق رؤوس الناس في المواسم . وعلى سطوح القصور والبيوت . بل يخيل اليّ ان العرب كلها لاتعرف لها راية غيرها تستظل بظلها البعيد . وسيمسي بيت قصي في الغد ملجأ للحجازي الخائف ، والعربي المظلوم ثم لا يلبث حتى يخرج منه نور يملأ العـالم كله ..

فهمّ القوم بان يتركوا طعامهم ويركعوا امام قصي . لكن سودة لم تسكت ،ل كانت تقول :

سينقلب الزمان ايها النبلاء انقلابا لم يرَ الحجاز مثله منذ وضع ابراهيم واسماعيل الحجر الاول من احجار البيت . ان الرئاسات التي كانت لكم في قديم الزمان ستسعى اليكم صاغرة . والنفوذ الذي سلبتكم اياه الايدي الطامعة سيرجع موفرع اللواء ممدود الرواق حتى يضحي الحجاز كله ميداناً لخيلكم ، لكم فيه الرأي الاول الذي لا يرده الناس ، والمقام الاول الذي يهابه الاشراف والزعماء.

اي بني كنانة . ان السيف الذي تبرق شفرته على قمة هذا الجبل لا يوضع في غمده حتى يلمع ظافراً في القطر الحجازي من الجنوب حتى الشمال . واليد التي تحمله لا تثنيها قوة حتى تمتد الى التيجان الصغيرة فتنزعها عن الرؤوس، والمقاعد الذهبية ، فتحطمها كما يحطم الطفل اناءً من الخزف جعلته امه بين يديه . !

فرأى القوم يدي قصي ترتجفان وهو يضع الطعام في فمه . ثم سمعوه يقول : علمتني الآلهة ان لم اجعل سماء مكة فوق كل سماء . ووجه كلامه الى سودة قائلا :

الا تذكرين لنا شيئاً عن حبى ابنتها الكاهنة ؟

قالت : وماذا اذكر لك عن فتاة هي خير من في خزاعة من نساء ؟

قال : أتحب بني قومي كما تحب بني قومها ؟

قالت : احسبها تحب قصياً كما تحب حاجب البيت .

ولكني اخشى ان لا يتم الزواج حتى ينتهي بالطلاق .

اذكر لذلك سبباً يا عم .

قال : اني صاحب اطماع كما تعلمين وقد لا تقف هذه الأطماع عند حد .

- اذا كان هـذا فالزوجة التي تمسي سيدة قومي يجب ان تضع يدها بيدي منى ابلغ الغاية.

- ومن قال ان حبى لاتفعل ؟

قال : يقوم في الذهن انها ستنتصر لقومها الذين هم اعدائي .

بل تنتصر للقوم الذين تنتمي اليهم انت .

فظهر البشر على وجهه وجعل يقول : لقد وثقت الآن بكل شيء وهـ... يكفي .

ومكثوا ساعة بعـــد طعامهم ثم انصرف خمسة من شيوخهم بينهم خداش وشيبة ليخاطبوا سادن الكعبة بشأن الزواج ، باسم سيد الشعاب . وقد خبّرهم قصي ان حبى ستكون بينهم في اليوم الثالث .

* * *

– ٣ –

كذلك جمع حليل قومه وحدّثهم بالأمر . فاسودت وجوه امرائهم وفتيانهم واستولى عليهم الاستغراب لذلك الخـــبر المدهش الذي لا ينتظرون ، شباب خزاعـــة الابطال اصحاب المفاخر والشرف تردهم حبى وتستخف بهم . وذلك الحجازي الشامي الذي لا يعرفه اهل مكة يفتح له حاجب البيت ذراعيه ؟ ... حاجب البيت اذن يتحدى قومه ولا يعبأ بما يفعلون .

ولكنهم لم يقولوا كلمة ولم يبدوا رأياً . لقد اخرست تلك المفاجأة ألسنتهم وأوغر الخبر الغريب صدورهم فسكتوا . غير ان ذلك السكوت كان على غلّ .

ولم يفتح احدهم فاه الا زياد بن كعب . فقال : اذن زوجت قصياً ولم يبق الا ان تنقل حبى الى بيته .

– اجل .

– ومتى يتم هذا الانتقال ؟

– لا تمر ثلاثة ايام حتى يتم كل شيء ..

فوقف قائلاً : لقد زوّجت احسن فتيان كنانة فلتبارك آلهة الكعبة هـ... الزواج .. وخرج ، ونار البغض تتأجج في صدره من جديد . لقد كان يخاف من قبل ان يحدث قصي في مكة حدثـــاً يهتز له الحجاز وتهوي على اثره مقا... الامراء .. امـــا اليوم فقد اصبح ذلك الخوف وثوقاً لا تنزعه من نفسه ، جميع المظاهر الكاذبة التي تقع عليها العين ، ولا يستطيع حليل وهو الامير الاكبر ا...

يلبث لرؤساء العشيرة ان قصياً لا يطمع الا بأن تكون حبى زوجة له . ولولا اصور زياد ، ان ابن كلاب الذي اصبح صهراً لحليل لا يستطيع لفقره وضعفه ان يوقد ناراً ويثير فتنه ، أجل لولا ذلك التصور ، لتصدى للفتى الكناني في وضح النهار ،وقتله على مرأى من أهل مكة لا يبالي بعد ذلك بالحرب المدّمرة يسعرنارها ذلك القتل ..

ان ذلك التصور . كان احد الاسباب التي تدعوه الى الطمأنينة والهدوء .

وقـام القوم فخرجوا خلفه ، وهم لا ينظرون الى قصي نظرهم الى الفتى الطمّاح الصاعد الى القمة ، بل كانوا يحسدونه على بلوغ الغاية التي لم يبلغها اولئك الذين أرادوا ان يصاهروا حاجب البيت ..

وحاولوا أن يحادثوا زياداً فلم يقف .. انه يظن ما لا يظنون . ويفكر فيما لا يفكرون .. وعاد الى القصر وهو غائص في اللجة ..

فرأى صفوان بن الحارث جالساً في الدهليز . وقـد جلس امـامه على المقعد الآخر ، ابو زياد وليلى .. وكان صفوان قد ترك الشعاب في تلك الساعة ، ليهتم بقلبه وغرامه ، ويسأل زياداً ان يزوجه ليلاه ..

فابتسم امير صوفة لضيفه : او قل تكلف الابتسام تكلفاً لأن شفتيه لم تكونا تعبران الا عن المرارة والألم . ! ثم قال لأبيه وهو هـادىء : أتعرف يا مولاي لماذا جمع سادن الكعبة قومه في هذا اليوم ؟

قال : ليحدثهم بشأن الموسم .

بل ليستشيرهم في أمر آخر ، هو في عينيه أعظم شأناً من المواسم .

اذن لينظر في امور الحجاج قبل ان تفد الوفود .

وهذا ايضاً لم يفكر فيه امير مكة ..

اذن اراد ان يجعل اصنام الكعبة من الذهب ..

لقد ترك امر العناية بالكعبة لمن يخلفه في الحجابة .. انه جمع قومه ليسألهم رأيهم في قصي بن كلاب ..

قالها والاستخفاف في صوته .

فخفق قلب صفوان واضطرب لتلك اللهجة الغريبة التي يخاطب بها الامير أباه ، ذاكراً سيد كنانة ..

اما ابو زياد فقال : لقد عرفت الآن ، فحليل يرغب في ان يستميل اهل الشعاب باختيار قصي زوجاً لابنته ..

قال : اصبت ، فقد وعد قصياً بهذا وستزف حبى اليه بعد يومين .

– ولكن العشيرة لا ترضى وفيها ازاهير الفتيان ..

قال : دع عنك هذا يا مولاي ، فرجال العشيرة سكتوا جميعهم حتى لتظن انهم لم يسمعوا حديث حليل .

– وانت ؟

– اما انا فقد اعترفت للأمير بان صهره أعظم رجال كنانة ، ثم انصرفت وانصرف القوم .. وماذا تريد ان اقول يا مولاي ؟ أأنكر على حليل بن حبشية تلك الرغبة البادية على جبينه ، وفي حديثه ، فينتهي الامر بيننا الى حمل السيف.

قال : خيراً صنعت ، فليزوج حبى من يشاء .

قال : لقد ازدرى حليل قومه كأنه لم يرَ بينهم فتىً واحداً اهلاً لفتاته .

ثم انه ازدرى امر البيت فاختار لابنته رجلاً غريباً عنا يستولي على حجابته بعد موته ..

ونظر الى صفوان قائلاً : ألا يفكر هذا الفتى الشامي في الاستيلاء على الامارة عندما يصفو له الجو ؟

فرأى صفوان ان تغيير الحديث خير من ان يتصدى له بالشدة والعنف فقال: هذا ما لا أعرفه يا مولاي .

– وماذا تعرف اذن ؟

– اعرف ان الاقدار خدمت قصياً ، فتزوج فتاةً تتقدم جميع نساء قومها اما انا فلم أعرف حتى الآن ان افكر في الزواج .

فاضطربت ليلى ..

اما زياد فقال : وما يمنعك من ذلك ؟

خوفي من ان يردني اهلهـا كما رد حليل فتيان خزاعة .. لقد جئتك الآن خاطباً يا مولاي ..

فاجابه ولم يتردد : لقد تعجلت في امرك يا ابن الحارث ..

- بل كنت جباناً يا مولاي ، فلم اطلب ليلى قبل اليوم .

قال : أنزوج ليلى ودم عبدالله الذي قتل غدراً لم يجف بعد ؟

قال : ان زواجي لا ينسيني هذا النصيب الذي احمله من ذكراه .

- ولكن هذا وحده لا يكفي . ستقول العرب ان امير صوفة لم يعبأ بذلك القتيل البريء الذي قضى حياته فداء عنه .

قال : مرني يا مولاي لأذهب يوم زواجي الى قبره ، فأبلّ ترابه بدموعي ، فيقول الناس ان زياداً أرسل صهره يوم عرسه ليبكي مولاه البريء .

ومعنى هذا ؟

- معناه ان العرب لا تستطيع بعد ذلك ان تقول انك نسيت عبدالله .

قال : ذلك أمر لا يفعله صبيان السوق .

قال : اشترط يا مولاي ان يكون زواجي ضرباً من ضروب الحداد ..

وهذا لا يفعله امير صوفة في عرس ابنته ..

وماذا اصنع اذن ؟

اصبر ، وليتزوج قصي الآن ..

ولكني لا اطيق الصبر يا مولاي. اني احب ليلى ، وقد كرهت ان اطلبها من قبل خوفاً من ان يخطر لك اني اطلب جزاء ..

لو طلبتها لكانت لك .. اما اليوم فليس لك الا ان تنتظر عاماً آخر .

فنظر اليه بعينين يجول فيهما الدمع وهو يقول : قل اني لست كفوءاً لليلى فاعرف نفسي ..

لو كان هذا الذي اردت لما ترددت في ذكره .

او قل انك تؤثر احد فتيان صوفة على فتى من كنانة ..

قال : لا تلج في طلبك يا صفوان فزياد بن كعب لا يرضى بان تعـيّره العرب.

– أيعـيّرونك انك رضيت بصفوان بن الحارث صهراً لك ؟؟
– بل يعـيّروننا هذا الزواج الذي تريده ولنا ثأر لم نطلب به ، وقاتلنا يمرح حراً ولم نبلغ غايتنا منه .
قال : زوجني يا مولاي على امل ان احمل اليك رأس عدوك .
– كأنك تريد ان تثبت للناس ان الامير الذي زوجك ابنته لا يستطيع ان يصل الى ذلك العدو . ثم قال : لقد تقدم يزيد اليوم رجلان من صوفة يبحثان عن جبير وقد يعثران عليه ، فاذا رجعا بعد شهر او بعد عام ، وايديهما مصبوغة بدمه ، فليلى لك . والا فهي باقية في قصر ابيها حتى نثأر بعبدالله ..
قال : قد تمر السنون يا مولاي وجبير حي .
– كذلك تمر هذه السنون وليلى عذراء ..
– اذن لم يبق الا ان اغادر مكة باحثاً مع يزيد عن ذلك الغادر الذي يقف بيني وبين زواجي ..
قال : لا ارضى ان يطلب بدم عبدالله غير بني صوفة .
فنهض ابو زياد قائلاً لولده : انا ذاهب الى قاعة الجلوس فاتبعني الآن ..
– سأفعل بعد قليل يا مولاي .
– اتبعني ولا تتردد فانا بحاجة اليك .
فلم ير زياد الا ان يمشي وراء ابيه الى تلك القــاعة الكبرى التي تجتمع فيها صوفة وقد اختار الشيخ مقعده في احدى الزوايا وأمر زياداً بأن يجلس بالقرب منه ، ففعل .

* * *

انظر الى ليلى فقد فضحتها الدموع
انها تبكي .. ولا يسمع لذلك البكاء صوت ، كأنها تخشى ان تغضب اباها ا مظاهر الغرام .
مسكينة ليلى ، كان ذلك الحبيب الجالس امامهــا في الدهليز عزاءها الوحيد بعد عبدالله ، فاذا بالقدر الجائر يحاول ان يسلبها اياه .. وكانت ترى من قبل ،

ان اباها لا يبخل على صفوان بدمه ، يجود به عليه والخجل يملأ نفسه .. فما باله اليوم ينسى صنيعه ، ويخاطب المحسن اليه بمثل ذلك الجفاء .. انه قد تغيّر ، لا تستطيع ، بقوة بيـــانه ، وثغره الضاحك ، ان يحجب ذلك التغيّر الذي لا تملك فيه ...

ولم تكن تجسر ان تنظر الى صفوان . ان عينيهـــا عندما تثبتان في عينيه كالسهم يثبت في قلبها العاشق الذي استرسل في الحب ..

غير ان صفوان رجل .. والرجال في محنتها لا تبكي ..

ولكن لا .. فدموعه كانت اغزر من دموع النساء ، ان ذلك الصرح العالي الذي بناه في حلمه ، ينهار الآن تحت قدمي زياد ، وتلك الحياة التي تمثلها صافية زاهرة ، مسخها القضاء في لحظة واحدة وعكّرت صفوها السحب السود .. ومع ذلك فقد ترك لها أبو زياد بقية من الأمل ..

السكوت يسود الآن مجلس العاشقين . والاثنان ينظران الى الارض كأنهما صنمان .. ولكن الرجال ترجع في ساعات الشدة الى رشدهـــا قبل ان ترجع النساء . فكفكف دمعه قائلاً :

أرأيت يا ليلى ... اني أكاد أخرج من هـــذا البيت كما يخرج العبد الذليل طارده مولاه ..

فتمتمت قائلة : لقد حزن أبي كثيراً على عبدالله فنسي ليلى وصفوان ، ويكاد ينسى نفسه ..

قال : لا استطيع ان اصدق ان الحزن يملي على ابيك هذا الحديث الجاف .

وماذا اذن ؟

انها عاطفة جديدة لا أعلم ما هي تختلج في صدره .

قالت : أتقطع رجائي بظنونك ايها الحبيب ؟

اجـــل ، وانا قد قطعت هـــذا الرجاء . أرأيت اميراً من امراء العرب يقتل ولده فيمنع ابنته من الزواج، حتى يثأر بذلك الولد، واي شريف حجازي يبيع الناس بعبده فيفعل كما يفعل زياد الآن ؟

قالت : لا تنكر على ابي وفاءه لعبدالله .

– اني لا انكر شيئا يا ليلى ، لقد نشأ عبدالله في هذا البيت ، وكان الرء
الامين الصادق لأبي زياد وزياد . ولكن تلك الامانة وهذا الصدق جعلها ابا
سبباً لطرد صفوان بن الحارث من قصره ، كأن الوفـــاء للأحياء لا يذكر ،
الوفاء للاموات ..

قالت : لا تذكر الطرد يا صفوان ، فأبي لا يفعله .

قال : اصبت فهو لم يأمر عبيده بان يحملوني ويقذفوا بي الى الخـــارج .. ا
حكى لي حكاية لم اصدق منها كلمة ، ثم ختم حكايته بقوله : اني لا ازوجك ،
اظفر بقاتل عبدالله ..

– وما معنى قوله ؟

– معناه انه لايريد ان يجعلني صهراً له . لقد احببت ان اطوف في الجـ ،
باحثاً مع يزيد عن جبير فلم يرضَ . وانا اخشى ان ينقضي العـــام والقا
مستخفٍ في زاوية من الارض ، ثم تمر الايام فأذوب غراماً ويستولي اليأس ع
هذا القلب .

فلم تستطع ليلى ان تحجب لدمع .

فقال : لا تبكي ايتها الحبيبة فأني سأبقى على العهد حتى يحملوني الى القبر

– وماذا ينفع هذا العهد وانت بعيد ؟

– ولكني لا أقدر ان افعل غير ذلك وابوكِ يمنع قربي .

قالت : قد يخدم الحظ يزيداً فيقتل جبيراً وينتهي الأمر .

قال : وسيقول ابوكِ عندئذٍ : لقد قتله رجل ليس من صوفة وهـــذا ،
ارضاه ... نعم سيقول ذلك ورب الكعبة .

فشهقت بالبكاء وهي تقول : لم يبق الا ان تفتح الارض فاها فتجذبني ا
الأعماق .

– بل بقي شيء آخر افكـّر فيه .

فنظرت اليه وهي تمسح الدموع .

فقال : بقي ان تصبحي زوجة لصفوان على رغم جميع الناس .
قالت : أتنزعني من بين ذراعي ابي يا صفوان ؟
– لو كنتِ بين ذراعي هبل لحملتك والسيف في يدي حتى اصل الى الشعاب وعيون القوم تنظر اليّ .
– وفي تلك الساعة تثور العشيرة .
– ان بني كنانة لا يخشون الثورات .
– وتجتمع عشائر مكة جميعها ثم تمشي تحت راية ابي الى القتال .
– واذا فعلوا .
– اذا فعلوا انتزعوا ليلى من يدك كما انتزعتها من ايديهم وملأوا الشعاب جثثاً .
فارتجفت شفتاه قائلاً : ورب الكعبة لا تصل ايديهم الى ليلاي وفتيان كنانة في الوجود . ونهض وهو يقول : واذا اردت فاخرجي الآن وليلحق بنا من يشاء .
فمدت يدها الى الامام والبكاء يتردد في صدرها قائلةً : اسألك باسم هذا الحب الطاهر الذي بسط فوقنا جناحيه ان تمحو من ذهنك هذا الفكر الذي لا اطيق ان تظهره لي .
قال : أتؤثرين البقاء بعيدة عني حتى يقتلني هذا البعد ؟
– خير لي ان أموت من ان أرى دماء العشائر تهرق لأجلي .
هب ان الحرب انتهت كما تريد أفيطيب لابنة زياد العيش على جثث الشباب وفوق اشلاء اهل مكة ؟ اذن يكون حبي سبباً لهلاك القوم وهذا ما لا اراه .
فأطرق ملياً ثم قال : تحدثني نفسي بان الفراق الذي أراده ابوكِ لا بدّ منه ولكن ما اراد .
قالت : لقد بدأ القدر ان يجور ونحن في فجر الحب . ولكن مهلا فسيعود ابي بعد قليل وله رأي آخر .
اما انا فلست واثقاً بما تقولين . لقد رأيت قلب ابيكِ أقسى من الحجر

بل اشد صلابة من الحديد ، ومع ذلك فلنصبر .

قالت : اذا كان هذا عمدت الى خنجر ابي فطعنت به قلبي وتركت هـــذا الوجود الذي لم أر َفيه وانا في زهرة العمر غير الشقاء . ثم قالت : هنيئاً لك يا حبى فقد بلغتِ الغاية وتزوجت قصياً ..

قال : أتفكرين في الموت ايتها الحبيبة ؟

– نعم وما قيمة الحياة ان لم أجتمع بمن أحببت .

فرفع يده وهي ترتجف قائلاً :

اقسم بمن بنى البيت ، لئن قتلت نفسكِ لأقتلن زياداً وابا زياد وكل من في هـــذا القصر من عبيد وغلمان ، حتى امحو آثار بني كعب ، ثم انطرح جثة مضرجة بالدم في الموضع الذي تضطجعين فيه.

وجعل يطوي عمامته الموضوعة بين يديه ثم ينشرها وهو لا يعلم ماذا يص

فاهتزت لهذا القسم الهائل وقالت له   اذن سأحيا .. نعم سأحيا ولكن لأجلك .

هكذا كان الحبيبان في تلك الساعة . يعمد الواحد منهما الى رأي ، فينهاه الآخر عنه . ثم يبكيان . ثم يبتسمان للأمل الباقي . وهما في كل ما يفعلان مظهر بليغ من مظاهر الغرام كما رأيت .

وكان زياد وابوه يتهامسان في زاوية القاعة والعاشقان ينظران الى البا. الذي يخرجان منه . وقد ضاق الصدران .

* * *

لقد ضيعت المروءة يازياد .

قال : سترى يا ابي اني لم اضيع شيئاً .

– بلى . وقد فضحت نفسك وفضحت اباك .

– وكيف ذلك يا مولاي ؟

قال : أتجفو هذا الفتى النبيل الذي انقذ حياتك وتهزأ به ؟

قال : لا تغضب قبل ان تسمع عذري .

وما هو هذا العذر وانت مدين له بهذه الحياة ؟ يقول لك انه سيثأر بعبد الله بعد الزواج فتقول لا . ثم يسألك ان تشترط ما تشاء فلا ترضى ، فكنت في ذلك كالعربي الجبان الذي يحفظون رأسه في ساحة الحرب ، ثم يستخف بمن حفظوه . قل لي يازياد اي وفاء املى عليك ما قلت بل اي شيطان اوحى اليك به ؛ وانت ترى ان الفتى كان ارفع من ان تجزيه على المعروف ، واعز نفساً من ان تمد اليه يدك بأحسان . بل قل لي اي شريف في مكة انبل خلقاً واكرم محتداً من صفوان بن الحارث الذي تبخل عليه بليلاك ؟ ومن هـو العربي الذي تطمع بأن تجعله صهراً لك ؟ أتبعث بليلى هدية الى تبّع ، أم تجعلها هدية للنعمان او امرىء القيس ؟ قـال يازياد ولا تخف شيئاً ، لقد كدت انسى نفسي وانت تحدث هـذا الكناني ، وخيّل اليّ انك غيرك ، اذ لا يخطر لي ان زياد بن كعب يستهين بكرامته وينسى وفاءه الى هذا الحد .

قال : اصبر يا مولاي ، اقص عليك ما لا تعلم .

فاستند الشيخ الى وسادته واصغى اليه ، فقال : لقد خبرتك الآن ان قصياً تزوج حبى .

نعم .

وانت ترى ان سادن الكعبة سيمسي آلة بين يدي صهره ، يقذف بها الى حيث يشاء .

ثم ماذا ؟

ثم تمرّ الايام فيثب الكناني الى كرسي حليل ويملك البيت .

قال : ان البيت ملك العرب .

اجل وقد أردت انه يملك حجابته فيملك كل شيء .

قال : انه حديث قديم سمعته منك قبل اليوم .

وانا اعيده عليك الآن ، لئلا تنساه بعد قليل .

وما الغرض من ذلك ؟

– الغرض منه ان اثبت لأبي ، ان الشرك ينصب لنا من وراء الستار ونحن غافلون .

– وصاحب هذا الشرك ؟

– قصي بن كلاب لا سواه ، يشاركه في ذلك سادن الكعبة نفسه وولداه

فابتسم قائلاً : وهل نسي المحترش الأبله انه وارث ابيه ؟

– اسقه كأساً من الخمر ينسى كل شيء . لقد رأيتـــه ينظر الينا نظرة الأزدراء وهو يثني على قصي .

– وكيف يساعد حليل صهره ، وهذه المساعدة تقيله عن العرش ؟

– ان لم يفعل اليوم فعل غداً ، وحبى من وراء زوجها تمهد له الأسباب .

قال : تلك ظنون لا اصدّقها يابني .

– اقسم لك يا مولاي ، انها حكاية صحيحة لا اشك فيها .

قال : أتعرف الغيب يا زياد ؟

– لا ، ولكن اسمع ما يخبرني اياه غلمان قصر حليل .

فدهش قائلاً : ماذا تقول ؟

– اقول ان غلاماً في قصر حليل ، نقل اليّ حديث المحترش السكران مع ابيه ، وحبى وقصي حاضران .

– ولكني لا اعلم شيئاً من ذلك .

– ستعلمه الآن . كان المحترش يقول لأبيــه . سأنزل لأبن كلاب عن حقي في ولاية البيت ، ولا ادع خزاعياً يبلغ غايته منها .

– وبعد ذلك ؟

– وكان ابوه يقول : لا يجلس أحـد في مقعد الحجابة وانا حي ، فاذا مت فاصنعوا ما تشاؤون ، وقد يموت حليل غـداً يامولاي ، بطعنة رمح او بضربة سيف ، فيلبس المحترش حـلة الولاية ، ثم يخلعها على صهره فتسود كنانة مكة ، ويصبح اهل الشعاب سادة لنا ، نخضع لهم ونحني امامهم الرؤوس.

فجعل يردد كلمة حليل . اصنعوا ما تشاؤون . ثم قال :

١

أيقولها ابن حبشية ولا يبالي ؟

– نعم وكان عليه ان يقول : ساوصي بها لقومي . ليعلم ابن كلاب الطامع ، ان الحجابة لا تكون من بعده الا لعشيرته .

فأخذ يعبث بشعر لحيته وهو ساكت . فقال زياد :

ماذا رأيت يا مولاي ؟

– أرى ان تعمد الى واحد من أمرين . إما ان تزف ليلى الى صفوان ، فيكون رسول خير بينك وبين قصي ، كما كان يقول عبدالله . واما ان تكون صريحاً فتذكر له كل شيء وتحرمه ليلى . ولكن أتغمط النعمة يا بني ، وتعاقب البريء بذنب المجرم ؟

قال : لقد اتهمني بوفائي يا مولاي ، وانا لا استحق ذلك ، اني احب صفوان ويعجبني كريم خلقه . ولكني لا اطيق ان ازوجه ، ثم اشهر السيف على قومه بسبب ذلك الزواج . أجل ، لم يبق إلّا ان يشحذ بنو صوفة سلاحهم ويتهيأوا للقتال ، فالشرك الذي ينصبونه لنا لا نريد ان نقع فيه .

قال : زوّجه يابني ، فيطرح سيفه بين يديك .

ألم تسمع انه عاهد قصياً على الطاعة ، واقسم له يمين الاخلاص ؟

ولكنه يحب ليلى فلا يخون اباها .

قال : أتريد ان نسأله الآن ؟

أتسأل الشريف الأبي عن مثل هذا ؟

قال : اذكر له قصياً وليلى فليختر احدهما .

لنفرض انه اختار الاول فماذا تصنع ؟

- اذا فعل جعلت موعد الزواج بعد ان تنتهي الحرب بيننا وبين قومه .

قال : ما رأيت موعداً اغرب منه ورب الكعبة . ومع ذلك فقد وعدته ليل يوم يقتل جبير .

قال : ثق يا مولاي اني لا اعلم ماذا افعل .

اما انا فاني اعلم ، اخرج الان وحدثه بما تشاء عن قصي حتى تقرأ سره .

– ومتى قرأت هذا السر ؟

– تبوح له انت بكل شيء فالصراحة خير ما تلجأ اليه؛ثم ترى بعد ذلك ما يبدو منه ولكل حادث حديث .

– وانت ؟

– وانا اخرج ايضاً فاسمع كل شيء .ولكني خائف يا بني .

– مما تخاف يا مولاي ؟

– اخاف ان يدبّ اليأس في صدر ليلى فتسوء العاقبة .

فضحك قائلاً : ومن قال ان ليلى برّح بها الحب

– انا وقد يصرعها ان لم تتدبر الامر .

– أتظن ؟

– بل اعتقد ولو كان عبدالله حياً لوصف لك غرام الاثنين .

قال : اذا ذكرت ليلى قومها واباها نسيت هواها .

قال : انصح لك بأن ترفق بالقلوب العاشقة فليس في العالم سلطان اقوى من سلطان الغرام . قم الان .

وتقدم الشيخ ولده الى الدهليز وقد اشرق وجه زياد .

غير ان آثار الدمع لا تزول في ساعة . فقد رأى الاثنان تلك الاثار على خدود العاشقين وفي الجفون . وكان ذلك دليلاً على ما جرى في ذلك الاجتماع القصير

* * *

– ٤ –

جلس زياد بالقرب من صفوان وهو يبتسم له . والفتى ينظر اليه برصانة وهدوء وهو يعبث بعمامته . فلم تستطع ليلى تجاه ذلك المظهر الجديد ، الا ان تبتسم بدورها ، لجدها الضاحك . وابيها الزاهي الجبين . ان تلك الابتسامة ، التي لا معنى لها ولا لون على ثغر زياد ، اعادت الامل الضائع الى القلب اليائس الحزين .

وكان طلحة في الدهليز ، يضع المسك في وعائه ويرسل نظره من حين الى

حين الى تلك العمامة الخضراء التي يضعها صفوان على ركبتيه ، وهو مضطرب كثير التفكير . انها تلك العمامة التي كانت تغطي وجه جبير بن عبادة وهو ذاهب الى الوادي .

لكن العمائم تتشابه وليس لطلحة عذر في ان يظن الظنون .

وبعد ان استوى زياد في مقعده ، اومأ الى غلامه بالانصراف ووضع يده على كتف صفوان قائلاً له :

أتأذن لي ان اسألك سؤالاً قبل ان نعود الى ذكر الزواج .

قال : للأمير ان يسأل عما يشاء !

قال : خبرني من هو قصي بن كلاب .

فنسي الفتى انه يخاطب ابا ليلى ، بل كاد ينسى غرامه . ولم يذكر في تلك الساعة غير عزة نفسه وعز قومه. ان لهجة زياد لهجة مستهزيء، وسؤاله عن قصي سؤال سيد مسلط عن عبد ذليل يخضع له ، فقال : هو قصي بن كلاب يامولاي .

قال : اسألك عن شأنه في كنانة .

قال : شأن الزعيم الذي يضحك قومه اذا ضحك ، ويغضبون اذا غضب .

– ومتى بلغ هذا المقام الذي تذكر ؟

– بعد رجوعه من الشام كما رأيت .

– ولكن للزعامة في العرب شروطاً يا صفوان .

– اذكر بعضها يا مولاي .

– بل اذكرها كلها فترى من هو صاحبك .

– قل يا مولاي ولا تنس شيئاً .

قال : ان يكون الزعيم ذا مال يطعم جياع عشيرته ، ويحسن الى فقرائها وصعاليكها ، ويصل سادتها وأبطالها .

– والشروط الأخرى ؟

– وان يكون بعيد الصوت بين القبائل ، وليس في قومه من هو اطول سيفاً منه .

– وهل بقي شيء ؟

– بقي ان يكون له الرأي الذي لا يعدل عنه ليطيعه الناس .

قال: اما المال فقصي ليس عنده منه درهم ليطعم جياع قومه اذا وجد في كنانة جياع . واما اسمه فيكاد ان لا يكون معروفاً بين احياء العرب في الحجاز .

– وكيف جعلتموه سيداً وانتم عبيد له ؟

– لا اعلم يا مولاي . فما هو الا ان قدم من الشام حتى اصبح امر الشعاب في يده كأنه ورث الزعامة فيها منذ جيل .

– ولكنك لم تقل كلمة عن خبرته في ضرب السيف ؟

فقال في نفسه : يريد زياد ان يستطلع الاسرار .

ثم قال : لم أرقصياً منذ رأيته يحمل سيفاً . ان رعاة النوق يا مولاي يتعلمون الرمي ويتركون السيف وقصي منهم .

– اذن فهو صاحب راي .

قال : اما الرأي فليس في شيوخ الحجاز ورؤسائه من يجاريه فيه ، ولولاه لما كان في الشعاب من يسأل عنه .

فجعل يقول : وهذا وحده لا يكفي ليسود قصياً . ومع ذلك فانا اسألك سؤالا آخر .

– هات يا مولاي .

– من دله على حبى ابنة سادن الكعبة ؟

– ذلك ما لا استطيع ان اقول لك شيئاً عنه . كنت أراه يزور سادن الكعبة في قصره ولا اسأله عن ذلك . ولكني عرفت من احدهم انه رأى حبى فأحبها ثم طلبها من ابيها فزوجه اياها دون ان يتردد في الأمر ودون ان يشترط عليه في ذلك .

فقال لأبيه : يريد ابن الحارث ان يقول ان زياداً قد اشترط . وماذا يفعل قصي بعد زواجه يا صفوان ؟

– يستوي في مقعد الرياسة حتى تأتي ساعته .

ولكن سمعنا ان هذا المقعد في الشعاب لا يرضيه .

- وماذا يطلب سواه ؟

- المقعد الكبير الذي يشبه العرش .

- أراك تعني حجابة البيت يا مولاي ؟

- نعم ، فمولاك يطمع فيها ولا يرضى الا بأن يخضع امراء الحجــاز جميعهم لسلطانه . .

فاصفرّ وجه صفوان ، ثم رأى ان يخفي ذلـك الاصفرار بالقليل من الجد ، فقال وقد ارتفع صوته :

انها رواية عجوز من عجائز بني بكر . هب ان ابن كلاب يطمع بما ذكرت ، أفيبوح بهذا السر لمن حوله وانا لا اعلم ؟

- ومن قال لك انه باح به ؟

قال : اذا كان ذلك صحيحاً ولم يبح به لأحد ، فانت يامولاي من الانبياء .

قال : يكفي ان تعلم ان القضاء فضح سره فعرفناه .

- اما انا فلا اتردد في القول ان هذا القضاء كاذب لا صحة لأخباره .

قال : وانا ارجو ان يكون كاذباً حتى . .

ووقفت تلك الكلمة في حلقه فلم تخرج .

فقال : حتى ماذا يا مولاي ؟

حتى لا تحمل السيف دفاعاً عن الكرامات .

فدهش قائلاً : لنفرض ان ابن حبشية اعطى صهره حجابة البيت، أفتكون مطيته انتها كاً لحرمة العشيرة ؟

نعم .

قالها ثم قطب حاجبيه .

فقدحت عينا صفوان شرراً وابصرت ليلى ذلك الشرر .

فحجبت وجهها بكفيها كي لا تراه ، ثم قال : في اي شيء تهان كرامتها يا مولاي ؟

– ان الحجابة لا تكون الا لسلالة قحطان .
– ومن جعل لهذه السلالة هذا الحق ؟
فأشار الى سيف معلق في الدهليز وقال : هذا ..
فوجه صفوان نظره الى ليلى فاذا هي تشير عليه بالسكوت
فعض على شفتيه ولم يقل كلمة .
قال : ماذا رأيت ؟
قال : نحن أصحاب مكة يا مولاي ، ونكاد نكون فيها غرباء ..
فضحك قائلاً : ذلك هو حكم الزمان ..
– ولكن أخشى ان يدور هذا الزمان فيبطل حكمه .. وضحك مثله .
فقال : اصبت، وقصي بن كلاب هو الذي يدفعه فيدور. ان صاحبك اضعف من ذلك يا بني ..
– اما قومه فأقوياء ..
وظهر الغضب في عينيه ..
فأطفأت ليلى ناره بنظرة قصيرة حادة كما فعلت في المرة الاولى .
ولكن تلك النار التي خمدت في العينين كانت تستعر في الصدر .. ان زياداً يستخف باهل الشعاب وهذا ما لا يرضاه ..
فقال زياد : يخيل اليّ ان الحرب ستدور رحاها بيننا وبين قومك يوم يخرج قصي من عزلته ..
قال : والحرب محك الرجال يا مولاي . والآن فقل لي أتحارب بني كنانة لأن سيدهم اصبح صهراً لحاجب البيت ..؟
بل نحاربه عندما يمد يده الى الحق الذي ذكرت ..
قال أتطمع ايها الأمير فيما يطمع قصي ؟
فسكت قليلاً ثم قال : اما الآن فلا اطمع بسدانة الكعبة لنفسي .
– وبعد الآن ؟
– ننظر في الأمر .

- اذن لا نستطيع ان ننظر الآن فيه من الناحية الأخرى .
- وكيف ذلك ؟
قال : هب ان قصياً اراد السدانة لنفسه ، وانت ليس لك فيهـــا مطمع كما تقول ، أفلا يجوز ان تضع يدك بيده وتكون عوناً له على بلوغ الغاية ، فيعترف لك بهذا الفضل ويسلم اليك ما تشاء من شؤون الحجاز ؟
قال : توارث اجدادي امـــارة النفر حتى انتهت الى أبي ثم اليّ ، أفتريد ان يزن عليّ صاحبك بما هو ملك يدي ؟
قال : سيكون لك غيرها يا مولاي .
فقال في نفسه : اردت ان أقترح عليه هذا فسبقني اليه ..
ثم قال : حسبي يا بني ان اكون امير صوفة ..
- وما يمنعك من ان تكون سيد الموسم ؟
- ان زياد بن كعب لا يخون قومه ..
وعندئذٍ أومأ ابو زياد الى ليلى بالانصراف .
ففعلت وهي مترددة ... خائفة .. مضطربة القلب .. وبين الدهليز جدار من الطين فيه نافذة مستديرة عالية تسمع منها ما يدور من الاحاديث بين الثلاثة كأنها حاضرة .
واذا جدهـــا يقول لصفوان : انك تحب ليلى يا بني كما تحب صنم العشيرة اليس كذلك ؟
نعم وكما أحب زياداً وابا زياد ..
ونحن الاثنين لا نجد في مكة صهراً خيراً منك .. ولكن ماذا تفعل يا بني اذا احتكمت العشيرتان الى السيف في آخر الأمر ؟
فلبث ساكتاً ..
فقال : لا تتردد في الجواب يا صفوان . ان ليلى ليست معنا ونحن وحدنا في هذا الدهليز لا يسمعنا احد ..
قال : وماذا تريد ان نفعل يا مولاي ؟

قال : أنزوجك ليلى اليوم ، ثم تنصرف غداً لتشهر السيف علينا تحت لواء قصي بن كلاب ؟

مسكين صفوان . ان الكلمات التي يقولها الشيخ كلمات ناعمة هادئة ليس فيها ما يجرح كبرياءه او يمس عزة نفسه . بل هي كلمات موزونة يجب ان يقبلها او يردها تمثل ذلك الهدوء اذا استطاع .. أيقول للاميرين ، سأكسر السيف عندما أتزوج ليلى ، وفي هذا القول خيانة وضعف ؛ ام يقول لها سأتزوجها ثم أحمل رمحي فأطعن به أباها وجدها واحارب قومها حتى يظفر قصي ؟ .. انه موقف خانته فيه ذاكرته وذهنه ، فلا يعلم ماذا يقول .. وقد اطرق كأنه لم يسمع صوت أبي زياد .

فقال : ماذا يا صفوان ؟

فخطر له خاطر فقال :

أليس حليل بن حبشية امير الناس كلهم في الحجاز ؟

- بلى .

- أيعلم ان صهره سيمد يده إلى سدانة الكعبة ؟

- نعم يعلم .

- اذن كيف يرضى بان يزوجه حبى فتخرج السدانة من قومه ؟

- لانه يريد ان تبقى الولاية لأهل بيته ، لقد رأى ان المحترش غير اهل لهذا ، فآثر ابنته على جميع من حوله ..

قال : لتمنع العشيرة هذا الزواج .

- لا تستطيع ان تفعل لأنها لا ترى شيئاً ..

ثم قال : أريد الآن ان اعلم أتؤثر قصياً على ليلى ام ماذا ؟ قل الآن ..

فرفع رأسه قائلاً : كلاهما عزيز عليّ يا مولاي .

- ولكن هذا وحده لا يكفي ، ان الموقف يحتاج الى اختيار واحد من الاثنين ..

قال : نفس عزيزة وقلب خفاق .. اختار الاثنين يامولاي لقلبي ونفسي !

قال : ان اهل الشعاب يحبونك وهم يعرفون أباك
– قد يكون ذلك .
– وليس في مكة كلها من يضمر لك شراً غير جبير بن عبادة ، فلماذا تقذف بنفسك الى أتون النار وراء ابن كلاب وانت قـــادر بدونه ان ترتفع الى ذروة المجـد ...؟
قال : اني لا أطلب مجداً .
– وماذا تطلب اذن ؟
– اخدم بني قومي كما اخدم الغريب . وابني لعشيرتي بيتاً أضع اسمه في الجوزاء اذا استطعت ..
– ليكن هذا البيت لك وحدك يابني .
– ان البيت الذي بناه لي ابي لا استحقه ..

فعادت ليلى الى البكاء. لقد عرفت ان هذا الاباء الذي يظهره صفوان سيسلبها اياه. وان ذلك الغرام الذي يخفق في الصدر سيضيعه الشرف. ولولا ذلك اليأس القاتل الذي تغلل في نفسها لتاهت عجباً بذلك الحبيب الذي يؤثر وفاءه عـــلى غرامه .. ويطرح قلبه على قدمي قصي زعيم عشيرته .

ومدت عنقها تصغى الى الجماعة .. وكان ابو زياد يقول :
نحن لا نطلب اليك يا صفوان ان تخون قومك .
كما انك لاتطلب الي ان اكون وفياً لهم .
قال : نسألك ان تعتزل قتالنا ، انت ومن حولك ، يوم يشهر السيف ، لأننا نكره ان نقاتل صهرنا ونلقي بابنتنا الى الهوة .
– وانا اسألك واسأل مولاي زياداً ان تعتزلا حربنا – اذا استعرت نارها – لأن الموت خير لي من ان اجرد سيفي في وجه ابي وجدي .
فنظر الشيخ الى ولده ، فقال :
اني لا اطيق ان أرى ذلك الكناني الجائع ينشر ظله فوق الكعبة .
– ارجو منك يا مولاي ان تكف عن هذا ، ، فابن كلاب يملك من المال ما

يملأ بيت العرب ..

– نعم وقد اصاب ذلك المال في الغزو الذي قام به ..

قال : جسبه انه يعطي قومه ولا يحتاج الى احد .

– بل اعطيتموه ثم جعلتموه سيداً لكم .

فزفرت ليلى ، على الرغم منها زفرةً سمعها صفوان ، فتلجلج صوته وهو يقول : مولاي ، الا اكون ولداً لك اذا زوجتني ؟

– نعم .

قال : واني اضمن ان يكون قصي لك ولداً فماذا تريد بعد ؟

– لا اريد ان اضم اليّ هذا الولد الذي يستخف بابيه .

قال : لقد خسرت رجلاً هو خير من عرفت من الرجال ..

– بل خسر هذا الرجل نفسه كما سترى .

قال : بقيت لي يا مولاي كلمة كنت اوثر ان لا اقولها ولا اذكرها عمري كله ..

– ما هي ؟

ألم تقل لي يوم دعاني عبدالله اليك انك ستجزيني على صنيعي ؟

– بلى واقول لك ذلك الآن !

– وكنت تقول يا مولاي اني لو سألتك ان تجود علي بدمك لما بخلت به ، أليس كذلك ؟

– بلى الا ان تسألني الرفق بقصي والسكوت عنه فهذا ما لا افعله ولو قتلت.

فهمّ بان يقول له : سأسأل قصياً ان يرفق بك يا زياد بن كعب .. ولكنه لم يشأ ان يسمع زفرةً أخرى من زفرات ليلى فقال : اطلب من امير صوفة ان يجعل ابنته ليلى جزاء لي .

قال : اتطلب شيئاً غير هذا ؟

– اجل ، اطلب ان تشترط ما شئت الا ان اخون قصياً فهذا ما لا افعله ..

قال : زوجتك على شرطين اثنين .

- لقد كثرت هذه الشروط وكانت واحداً.. اذكر الشرط الثاني يا مولاي لقد عرفت الأول وهو قتل ابن عبادة !

- اما الثاني فالحرب التي ذكرت .

- اي الحرب بينك وبين قصي ؟

- نعم وهذا الزواج لا يتم قبل ان تنتهي !

فكاد الفتى ينسى أخلاقه وأدبه !. ان شروط زياد شروط طائشة جوفاً ليس لها وزن .. ! ولكن سلطان الحب أملى عليه الهدوء الى النهاية . فقال : لقد عرفت الآن يا مولاي انك لا تريد ان تزوجني ليلى ..

- ومن دلك على ذلك ؟

- الحديث الذي اسمعه منك .. لنفرض ان قصياً لا يفكر في هذه الحرب التي تذكر ..!

- اما نحن فنفكّر فيها كما ترى !

- اذن ستكون البادىء يا مولاي .

- اجل ولا يستطيع امراء مكة الا ان يدافعوا عن الكرامة المهشمة .

- واذا مرت الاعوام والحرب باقية ؟

تصبر كما تصبر ليلى فالصبر خير ما تلجأ اليه .

قال : للحرب واحد من وجهين يا مولاي : إما ان تنتهي بصلح واما ان يظفر الواحد بآخر او يقتله . فأي وجه تشترط وجوده ؟

قال : اذا قتلت فليلى حلال لك !

فغطى رأسه بالعمامة وهمّ بالخروج ؛ فقال ابو زياد : أتنصرف الآن ياصفوان؟

- نعم وماذا اصنع في بيت يطردني صاحبه ؟!

قال : عدنا بانك تترك قصياً وخذ ليلى الآن ...!

فاجابه قائلاً : لم اكن نذلاً لينتصر غرامي على شرفي، اني باقٍ على عهد قصي حتى تقوم الساعة .

- وتنسى ليلى ؟؟

– اما ليلى فستظل صورتها في هذا الصدر حتى تفارقني الروح ... ومشى خطوتين يريد الذهاب ، فاستوقفه قائلا : أصديق انت ام عدو .

قال : سيثبت لكما وفائي عندما تدور رحى القتال .

– أتكون وفياً للعدوين المتحاربين في وقت واحد ؟

قال : سأبذل دمي في سبيل قومي على ان لا اشهر السيف في وجه زياد وهذا يكفي .

فأرخى زياد نظره الى الأرض ودم الخجل يصبغ وجهه . غير ان صفوان لم يره لأنه قال كلمته وهو في آخر الدهليز . كما انه لم ير تينك العينين السوداوين اللتين شيعتاه بالدموع .

* * *

رفع زياد رأسه يخاطب ليلى فقال : ليلى ، أتحبين صفوان كما يحبك ؟

فمسحت دموعها وهي تبتسم ابتسامة يأس .

فقال : لا احتاج الى جواب ، فقد قرأت دلائل هـذا الحب . وانا احبه يا ابنتي كما تحبينه وليس في شباب مكة اعزّ عليّ منه !

فقطبت حاجبيها بعد ذلك الابتسام كأنها لاتريد ان يهزأ ابوها بغرامها كما هزأ بصفوان .

وعرف زياد ما يجول في ذلك الذهن المضطرب فقال : أقسم لـــك اني أوثر هذا الكناني على جميع الفتيان ؛ فنظرت اليه قائلةً : اصبت يا مولاي فقد رأيت الآن بعيني مظاهر هذا الإيثار .

قال : أترين اني استطيع ان افعل غير ما فعلت ؟

– وماذا فعلت يا مولاي ؟ أتقول للفتى لست أهلاً لليلى ، وتطرده كأنـــه عدو ، ثم تقول انه احبّ الناس اليك ، فوضع يده على جبينها قائلاً : خير لك يا ابنتي ان تبكي غرامك عـــاماً او عامين من ان تخسري هذا الغرام وتبكيه الى الأبد .

– لقد خسرته اليوم وانتهى الأمر .

قال : اذا كان صفوان بن الحارث صادقاً في حبه فانت لم تخسري شيئاً ، ألا تعلمين ان الحب نفسه أملى عليّ ما صنعت ؟

– بـــلى . واخشى ان يتمادى هذا الحب فيملي عليك بأن تأمر بضرب عنق صفوان اذا ذكر الزواج مرة اخرى .

فرأى زياد ان الحب يكاد يقتلها . فخفق فؤاده وهو يقول : أتشكين فيّ يا ليلى ؟

قالت : لقد نشأت في ظلك وكنت باراً بي يا مولاي حتى انسيتني امي ولم اشك فيك .

– والآن ؟

– والآن فانا اسلم اليك أمري وأضع قلبي بين يديك .. ولكن .. ولكن اعطيت صفوان حبي كله واخاف ان يصرعني البعد ، آه لو كنت اعلم يا ابي ما هو الغرام لآثرت عليه الموت . واسترسلت عندئذٍ في البكاء وقـــد أحست انها جاوزت الحدّ في ذلك الأعتراف ، فقال زياد والدمع في عينيه :

ان صفوان سيبقى لك يا ليلى ولكن أتريدين ان يتلوث شرف قومك وانت ابنة سيدهم ؟

– وكيف يتلوث هذا الشرف ؟

– ان ابن كلاب الذي يخضع لنا اليوم يريد ان يخضعنا بقوة السيف بعـــد أيام !! وصفوان الذي وهب لك فؤاده يطيع ذلك الرجل الى حد انـــه يبذل دمامه في سبيل رضاه .

قالت : الطاعة شيء والغرام شيء آخر يا مولاي.

– اجل ولكن طاعته تجرح ليلى وتهين آ ل كعب . أفلا يقول الناس في مكة ان ابن الحارث الكناني لم يتزوج ليلى ابنة زياد الا ليجرّد في وجه ابيها السيف؟ أفلا يقولون انه يستهين بزوجته حتى ليحارب اباها وقومه ولا يبالي ؟؟

فحنت رأسها لذلك البرهان البليغ الذي لا تستطيع رده .

أما هو فاستطرد قائلا : وماذا يصنع عندئذٍ زياد بن كعب ؟ أيجمع صوفـة

ويمشي على رأسهم ليقتل صهره فيقتل الأمل الباقي في صدر ابنته ؟ ام يترك **مكة** ويعتزل الحرب فتقول العرب لقد فرّ امير صوفة من وجه عدوه كما يفرّ **الذليل** الجبان !! قولي يا ليلى ماذا تريدين ان اصنع في تلك الساعة ؟

فلم تجب ،

قال : أتضمنين سكوته اذا أمسيت زوجة له ؟

قالت : وهل يليق بالمرأة النبيلة ان تدعو زوجها الى الخيانة وهو من رؤساء الناس ؟

- اذن ماذا ؟

فنظرت الى جدها قائلة : لقد رأيت رأياً يا مولاي التمس قضاءه .

وغصت في البكاء .

قال : اذكريه .

– عدني يا مولاي انك تسمع لي .

فالتفتت الى زياد فاذا هو يبكي ، فقال : أعدك باسمك يا بني ؟

– افعل .

قال : ما هي حاجتك يا ليلى ، اني لأقضيها اذا لم تكن ذلاً .

قالت : ألا ترى ان بني خزاعة يملأون مكة ؟

– بلى .

– أليس فيهم من يطمع بحجابة البيت بعد حليل ؟

– كلهم اصحاب مطامع .

اذن ليغضب هؤلاء للعز الذي يهشمه قصي بن كلاب قبل ان يغضب بنو صوفة .

– ومعنى ذلك ؟

– معناه انهم اصحاب الحق الأول واحق بالدفاع .

– ونحن ؟

– اما نحن فلا نلجأ الى السيف إلا اذا أكرهنا اهل الشعاب على حمله .

- اي انك تريدين ان تتلاحم سيوف القوم ونحن ننظر الى الدم يهرق في الساحة ولا نمد اليه يداً .

- نعم يا مولاي إلا اذا مدّ ابن كلاب يده الى بني صوفة .

- وما هي الغاية من هذا ؟

فترددت في الجواب ، فقال زيـاد : الغاية منه ان لا نلتقي نحن وصفوان في المجال أليس كذلك ؟

- اجل فأنا اخشى ان يقتل احدكما الآخر .

وفي تلك اللحظة ، بينما يتردد في ذلك الأقتراح ويهمّ بابداء رأي آخر يرضي به ليلى ، اقبل غلامه طلحة قائلاً : بالباب ابو ضمرة الخزاعي ومعه رجلان.

فقال : لقد بدأ القوم يغضبون .. ادخلهم يا طلحة !

وكان ابو ضمرة سيداً عظيماً من سادات خزاعة له في العشيرة الكلمة الاولى والرأي الأول بعد حليل ! فدخل الثلاثة وابو ضمرة يقول لزياد :

لقد تعجلت في المجيء ايها الأمير ونحن بحاجة اليك .

فاجابه قائلاً : لقد انساني نفسي حديث سادن الكعبة فخرجت وانا لاألوي الى شيء .

قال : ولأجـــل ذلك الحديث قدمنا الآن . وجلسوا وليلى بينهم لا تترك الدهليز . ثم قال زياد : هات يا ابا ضمرة .

قال : جئت اسألك عما سمعت في قصر حاجب البيت .

- لقد سمعت انا ما سمعت انت فما رأيك ؟

- لقد أهان حليل قومه ونحن لا نرضى !!

فأراد ان يكتمه ما في صدره، فقال : لقد نظرت الى الأمر من ناحية واحدة ايها الامير كما نظرت انا ، وهذا هو الخطأ .

فجعل يتفرس فيه مستغرباً ؛ فقال : اجل وبعد القليل من التفكير عدت الى الصواب .

قال : اعمد الى الجلاء يازياد .

قال : سمعت ابن حبشية يقول : انه يريد ان يزوج حبى .

- نعم !

- ولا اعلم كيف يهين قومه بهذا الزواج !!

قال : لقد ردّ فتيان خزاعة ولم يردّ الغريب .

- انه حر في اختيار من يشاء من الفتيان زوجاً لابنته .

- ولكن هذا الزوج تعقبه امور يضيع معها الشرف .

قال : اضرب لي مثلاً !

قال : قد يخدع قصي بن كلاب حماه ؛ فيوصي له بسدانة الكعبة بعد موته ،

- أيفعل حليل ؟

- ان الذي يفعل الأولى يفعل الثانية .

- واذا حدث ما تظن ؟

- تشتعل النار في مكة وتنقض صواعق الحرب على الرؤوس .

- ولكن قل لي من يشعلها ؟

- اما انا فلا اطيق ان يجلس قصي في مقعد الحليل .

قال : هب ان الرجل لم يوص لاحد بحجابة البيت فمن هو الخزاعي الذي يخلفه ؟

فنظر ابو ضمرة الى جانبيه وهامسه قائلاً :

أنا !!

فمرت سحابة سوداء امام عيني زياد . ان أبا ضمرة يطمع في المنصب الاول في بلاده ، ويظهر رغبته في ذلك ولا يبالي !! أفيحمل السيف في سبيل الحجابة ليستغلها غيره ؟ انه اذن يبذل دمه ودماء قومه ليمهد لأبي ضمرة سبيل الصعود الى العرش ، وهذا هو الجنون .

وكاد يضيع رصانته وهدوءه لولا بقية دهاء في صدره اعاده الى هداه فقال .

وكيف نسيت ان لحليل ولداً ؟

قال : اذا ذكرت الرجال لا يبقى لهذا الولد الأبله ذكر . !

- أصبت ، فحدثني الآن بما تشاء !

- جئت استشيرك في الامر قبل حدوثه .

فاستند الامير الى وسادته قائلاً : لقد كنت احدث ابي بما ستحدثني الآن ، قل كيف تمنع الزواج وتبدأ الحرب .

- اما الزواج فلا استطيع ان امنعه الا اذا خرجت خزاعة على حليل وهذا ما لا نفعله اليوم .

- وبعد ذلك ؟

ننتظر وصية حليل فنجعلها سبباً للقتال .

فضحك قائلاً : أتنتظر شيئاً ليس له وجود الا في ذهنك ؟ ومن قال لك ان الرجل يفكر في وصيته وسيكتبها بعد حين ؟

- لقد قيل لي ذلك ..

- ولكني أحب ان اعرف القائل .

- حليل نفسه ، فقد أطلعني على سره وهو مريض .

- لقد فعل هذا وهو مريض ؛ اما الآن فقد نسي كل شيء ...

لم ينسَ شيئاً ، فالعلة في جسمه وقد تصرعه في هذه الايام او بعد .

- واذا أوصى للمحترش ؟

- أرسلنا اليه فتاة تسقيه الخمر ثم ننتزع الوصية منه .

- ثم تنحيه يا أبا ضمرة عن كرسيه وتجلس فوقه .

نعم ، وفي تلك الساعة نحتاج الى الرجال لان ابن كلاب سينتصر للفتى مع أهل الشعاب ،

- فاذا كتب له النصر استولى على الحجابة والا فانت خليفة حليل .

- أجل .

- وماذا تطلب اليّ الآن ؟

- أسألك ان تضع يدك بيدي لأبلغ الغاية .

فقال في نفسه : سأكسر هذه اليد قبل ان تمتد اليك . وقال له : سنعود الى

النظر في هذا الامر عندما تأتي ساعته .

– ولكن ارجو ان تعدني بأنك ستكون حليفاً لي .

فأجابه ابو زياد قائلا :

حسبك انه لن يكون حليفاً لغيرك .

فقام ابو ضمرة ولم يزد ، ثم خرج وهو يقول لرفيقه :

ان زياد بن كعب يريد ان يكون حاجباً .. !

* * *

قال زياد لابيه بعد خروجهم : ماذا رأيت يا مولاي ؟

– رأيت عيوناً كثيرة تنظر الى ذلك الباب الكبير الذي يدخل منه الحجاج الى بيت الآلهة .

– اي ان هناك امراء سبقونا الى التفكير فيه .

– وعلى أي امر عولت الآن ؟

– على قبول الرأي الذي اقترحته ليلى ، ان هذا السيف لا يجرّد من غمده في سبيل أحد .

فأشرق وجه ليلى لتلك الكلمة .. ان وجود أبي ضمرة فى تلك الساعة أزال ذلك العداء الكامن في صدر زياد ؟ وقد قام في ذهنها ان أباها نسي قصياً وان صفوان اصبح لها بدون شرط . مسكينة ليلى . لقـــد استرسلت في الظنون واستسلمت الى الاحلام .

ان أباها الطامع بالسلطان ، لم يكن يطيق ان يشاركه احد في ذلك الطمع ، بـــل لم يكن يطيق ان يفكر رجل في مكة ، في الامر الذي يفكر فيه ! وذلك سر من الاسرار لا تعرفه ، فقالت : أتعتزل الحرب ؟

– أجل ، وسأجلس وراء هذه النافذة فأرى كيف تجول الخيل .،

فهمت بأن تسأله عن شروطه فعلقت كلمتها في الشفتين ..

فقال : قولي يا ابنتي ما تشائين ، فتمتمت قائلة : أريد ان أقول ان الشرط الثاني الذي ذكرته لصفوان لم يبق له وجود ؛ فضمها الى صـــدره وهو يقول :

هوذاك ! وسأدعو صفوان بعد ساعة لأنقل اليه هذا .

وكأنه لم يشأ الا ان يفضح سره فقال : ان زياداً يستطيع ان يثأر بعبدالله دون ان يحتاج الى أحد والحرب التي ستستعر نارها لا تمنع الزواج . !

- ولكن ماذا ؟

- ولكني أردت ان أختبر حب الفتى فوضعت له شروطاً ...

فحاولت ان تجيب فاسكتها قائلا : لقد كثرت حوادث الطلاق في الحجاز الان . وامير صوفة لا يريد ان يزف ابنته الى رجل يطلقها بعد شهر . قومي الآن . واكتمي صفوان ما ذكرت ، واستعيني بالصبر كما قلت ؛ فارتمت بين ذراعيه وهي تذرف دموع الفرح .

ونهض الشيخ وهو يقول لولده : أحسنت يا بني ، أحسنت ...

* * *

- ٥ -

كان زواج حبى وقصي ، مظهراً من مظاهر النفوذ والعز اللذين يتمتع بهما سيد الشعاب ، في كنانة .

وكانت خزاعة فريقين : هذا يدعو لابن كلاب وعروسه الاميرة الحسناء ، وهذا يضمر الشر للاثنين ، وينظر اليهما بعيون تتقد فيها نار الضغينة والحقد .

من هذا الفريق ، ابو ضمرة ومن حوله ، وزياد بن كعب وابناء قومه .

ولقد كان في الساحة اثنان لا ثالث لهما يطمعان في سدانة الكعبة ، هماقصي وزياد ؛ فخلق الزمان طامعاً آخر يفكر في القضاء على الرجلين ، هو ابو ضمرة المراعي !!

وقد يخلق طامعاً جديداً من خزاعة نفسها او من بني بكر ، يستهين بالحادثات في سبيل الحصول على ما اراد ، ويتخذ الحيلة او الغدر ، او الدهاء وسيلة لنيل بغيته .

تلك سنة لا يغيرها الدهر ، فأصحاب المطامع على اختلاف العصور يمشون

في طريق المجد فينتهي الطمع ببعضهم الى الخيبة ، ويرفع البعض الآخر الى القمة.

ولم يكن قصي يعرف أبا ضمرة ، بل لم يكن يعرف من اولئك الأمراء غير امير صوفة ، وانت تذكر ذلك اللقاء بين الاثنين ، في قصر حاجب البيت .

وقصي لا ينسى شيئاً مما يراه . ان زياداً جاهره بالعداوة عندما وقعت عليه عينه ، فليس من السهل ان يرضى عنه بعد ذلك الجفاء ومع ذلك فقد كان يبتسم للوجوه العابسة والعيون النارية ، ويرسل الى الناس جميعاً نظراته الساحرة ،التي استهوت قلب سادن الكعبة وقلب حبى وقلوب الجماعات من قبل .

وكان بنو كنانة يهتفون لسيدهم ولحليل ، ويطوفون علـى الخيل حول تلك الساحات الغـاصة بالناس ، ويهزجون أهازيج الفرح والأستبشار ، ثم تنادوا وانصرفوا الى الميدان ، وهناك اطلقوا أعنة الخيل ، وجعلوا يروحون ويجيئون واصوات اناشيدهم تملأ الفضاء . وقد خرج العروسان ووراءهما الامراء يشهدون السباق ، ثم شاركوا الفرسان في اللعب بالقلوب النافرة ، والأيدي المضطربة التي ترتجف فيها الرماح .

إلا « حليل » فلم يخرج من قصره ، لأن المرض القاسي ما برح يجور عليه .

حتى غربت الشمس ، والناس – على عاداتهم – في الميدان الفسيح يتقاذفون برماح لا حراب فيها . وقد تعبوا وتعبت الخيـل ، فانصرف بنو كنانة الى الشعاب يحملون سيدتهم الجديدة وجواريها في الهوادج ، ويحملون زعيمهم الاكبر على الاكتاف .

وفي ذلك اليوم ، بدأ قصي حياته الجديدة التي ملأها مفاخر وامجاداً .

* * *

لقد جعلت العرب جبل السراة قاعدة لتقسيم الجزيرة .

والسراة سلسلة جبال تمتـد من اليمين شمالاً ولا تنتهي إلا في أطراف بادية الشام ، فتكون الجزيرة ، في ذلك الحد الطبيعي ، شطرين كبيرين ، من الغرب ومن الشرق .

اما الشطر الشرقي فاكبرهما،وهو ينتهي شرقاً عند حدود العراق وقد سموه نجداً ، والشطر الآخر المنحدر من سفح ذلك الجبل الى شاطىء البحر الأحمر سموه الغور او تهامة ، وسمّوا الجبل الفاصل بين تهامة ونجد ، الحجاز ، والحجاز جبال فيها المدن والقرى كما رأيت .

امـــا القسم الذي يقع في الجنوب ، وراء الحجاز ونجد ، فسموه اليمن ، وحضرموت ، والشحر ، وذلك من قديم الزمان .

* * *

ان يزيد بن ربيعة اليوم ، في الغور ، في تهـامة . وهو يبحث فيها عن قاتل أبيه الذي هو قـاتل عبدالله . ولكنه مسكين ! أرأيت ثائراً يطلب بدم أبيه وهو لا يعرف البلد الذي يقيم به ولم ير لمن يطلبه وجهاً ؟. انها خطيئة لا يغتفرها العقل ليزيد ..

اجل كان العربي يطلب عدوه ولو احتجب في السحب ولكل بعد ان ينسى ذلك العدو ضحيته وينصرف الى عمــله او يستسلم الى لهوه . وبعد ان يستعين الثائر الذي لا يعرفه ، بمن يرشده اليه .

أمـــا يزيد فلم يستعن باحد كما قرأت الا بجرأة غريبة لا تقف عند حد ، وبشيء من الدهاء لا يكفيه ..

والجرأة في مثل هذه المواقف تضيّع الرجال ؛ أضف الى ذلك ، ان جبير بن عبادة لم يكن مثل زملائه المجرمين الذين يحفظون حياتهم بالفرار ..

كان خائفاً لا يعرف الراحة وساهراً لا ينام الليل ويقظان لا يغفل عن شيء الى حد انه كان يعمد الى سيفه عندما يسمع دبيب النمل . والى جانبــه رجل كالزئبق .. عيناه عينا ذئب . وقلبه قلب نمر ، وحكته حكة الحية .. ويداه ، من العشرين الى السبعين ، ملطختان بالدمـــاء، هو عدوان اليمني!. فليس من الطبيعي اذن ان يظفر يزيد الغريب الذي نشأ في الشام ، بالرجلين المجرمـــين الذين يقيسان أرض العرب بالذراع ، ولهما في كل بلد اشيـــاع وانصار يفدونهما

بالمهج ؛ بل ليس من الطبيعي ان يضع الفتى يده على قاتل ابيه وعينا القاتل تنظران الى مكة لتتبينا الوجوه ..

وعدوان حي ، يقرأ ما في الفضاء ، ويهزأ بالسماء .

* * *

لم يجد يزيد ، عبد اللات بن حارثة . وعمر بن الأسود ، رسولي زياد ، في تهامة.. وقد سأل عنهما كثيراً فلم يقل له احد انه رآهما وهما اللذان تعرفهما جميع الاحياء ؛ ان الاثنين مرا بذلك البلد الذي وصل اليه عند غروب الشمس .

وجعل القوم يسألونه عن أصله وفصله فيقول:انا من الشام وقد جئت اطوف في جزيرة العرب باحثاً عن عمل اقوم به .. والناس يصدقونه، فمظهره ، ولهجته يدلان عليه ، وأهل ذلك البلد ، مثل جميع اخوانهم العرب ، يرحبون بضيفهم ويفتحون صدورهم للغريب النازل بينهم ، قياماً بتلك العادات النبيلة المعروفة في الجزيرة وخدمةً لانفسهم ، فيما يشترون من ذلك الغريب وفيما يبيعون .

وجعل يزيد بدوره ، يسأل عن التمر والصوف والمسك ، في ذلك البلد ، كأنه تاجر يستبضع هذه الصنوف . وقد أملى عليه الدهاء ان لا يسأل عن جبير خوفاً من ان يثير الظنون ؛ لكنه كان يبحث بين تلك الجماعات ، عن رجل يجعله موضع ثقته ، ويفضي اليه بما في نفسه .! كأن السر العظيم الذي يحمله في صدره لا يستطيع ان يحمله وحده ، أو كأنه لا يقدر ان يصارع الافكار الكثيرة التي تجول في رأسه ..

وهكذا لا تراه هادئاً مطمئناً ، حتى تراه أبله قليل الجلد تبوح عيناه بما في القلب من اضطراب ؛ حتى وقعت عينه على فتى لا يجاوز العشرين : ضعيف الجسم غائر العينين ، يدل اصفرار وجهه على الألم الكامن في صدره ، والكآبة البادية على جبينه تنطق بما يحس من مرارة وهم ؛ وقد اضطجع على الرمل وراء الساحة ، كأن الاحاديث التي تدور حوله لا تستحق نظرة واحدة منه ؛ فخفق

ا. يزيد، وجذبته تلك الكآبة الى الرجل ثم أصبح ذلك الخفقان اضطراباً لأن الفتى كان يشبه أخاه !

ومشى بضع خطوات كأنه لا يراه ، ثم جلس بالقرب منه وهو يقول للناس بصوته الهادىء ولهجته العذبة : سننظر بعد يومين في الاشياء التي تعرضون ...

ومكث ساعة لا يقول كلمة ولا يلتفت الى أحد ؛ فانصرف بعضهم، وتفرق البعض الآخر في دلك الحي ، وذلك الفتى يعبث بعباءته البالية ؛ فقـال له : اتأذن لي ان أسألك سؤالاً ؟

فابتسم قائلاً : سل ما تشاء .

قال : يخيل اليّ انك مثل غريب عن هذا البلد .

- لا بل ولدت فيه ونشأت تحت سمائه .

- وممن انت ؟

- من بني بجيلة اصحـاب هـذه البيوت ، وأومـأ الى طائفة من الخيام مضروبة وراءه .

واسمك ؟

موسى بن حبيب .

- وهل ابوك حي ؟

- ان ابي وامي لا يموتان لأن الشقاء لا يموت ..

قال : لقد ملك اليأس عليك امرك كما أرى .

- اجل وخلق الشؤم يوم خلقت ..

قال : ارجو منك باسم هذا الشؤم ان تقص عليّ ماضيك .

وانا ارجو منك ان تفر مني كما تفر من الموت ..

بـل ألح في طلبي ولا ارجع عنه ؛ فتنهد قائلاً لقد كان ابي من اشراف قومه وسادتهم وله في حيه والاحياء الاخرى الصوت المسموع ..

وانا أرى نور ذلك الشرف يشع في عينيك ..

فقال ولم يبالِ بمـا سمع : وقد تزوج عشر نساء وولدن له اثنتي عشرة بنتاً ولم

يرزق ولداً ذكراً .

– وجميعهن في هذا الحيّ ؟

– نعم ولكن تحت التراب !

قال : ماذا ؟

قال : لقد قتلهن جميعاً ، في شهرهن الأول ، ثم سأل آلهتـه ان تهب له ولداً ولو كان شؤماً عليه وعلى قومه ، فكنت انا ذلك الولد الذي قذفته الآلهة الى هذا الوجود .

فضحك يزيد .

فقال : اخشى ان يعقب البكاء هذا الضحك .

قال : انك تشبه اخاً لي قتلته الحرب .

قال : لو بقي حياً لكان مثلي ، أتريد ان تسمع ايضاً .

– نعم فاذكر حكايتك كلها ، ثم أذكر حكايتي .

قال : ولدت في ليلة غزتنا فيها جموع بني مازن .

– اذن ولدت في الميدان .

– وفي الصباح ماتت امي،وأبي يسترجع نوقه التي ساقها القوم وقد فقد منها النصف . !

– ثم ماذا ؟

– وكان لي عم هشمته السيوف فحملوا اشلاءه ودفنوهـا في الموضع الذي ولدت فيه ، كأنهم ارادوا ان يغمسوا قدميّ في الدماء . !!

قال : أنها حكاية غريبة يا موسى .

– وأغرب من هـذا كله ان المراضع اللواتي جعلوني بين ايديهن طواهن الردى ، الواحدة بعد الاخرى ، حتى جاوزت العامين ، فضمني أبي إليه وكان قد استعاد ما خسره من النوق .

– وماذا جرى بعد ذلك ؟

– سكت الدهر بعـد ذلك خمسة عشر عاماً لايرسل سهامه ولا يجفو حتى

بلغت السابعة عشرة ، وابي لا يأذن لي في الخروج من الحيّ خوفاً على مواشيه !

ـ أكان يؤمن بهذا الشؤم ؟

ـ نعم ! وانا لا اعلم لماذا يمنعني من الخروج الى البرّ ، فلما كان شتاء السنة الثامنة عشرة من عمري ، لحقت بابي الى المرعى وأنا أقول له : أتجعلني في البيت عمري كله يا مولاي؟فنظر اليّ والدموع تجول في عينيه ثم قال فعلت هذا لأترك لك من بعدي شيئاً تستعين به على الدهر ،انك شؤم على نفسك ،وعلى أبيك ، وعلى القوم.

قلت : وكيف ذلك .

قال : تلك ارادة الآلهة فلا تسألني شيئاً بعد .

وسكت موسى ويده على رأسه .

فقال يزيد هات ايها الرفيق.

قال : ألا يكفيك ما سمعت ؟ خـذ ايضاً : ألم يذكر لك أحد شيئاً عن ذلك الوباء الغريب الذي ظهر في هذه الارض ؟

ـ واي وباء هذا ؟

قال : في ذلك الشتاء نفسه ، أي منذ سنوات ثلاث ظهر في بجيلة وباء أفنى بعض دوابها ، ولكنه لم يبق لأبي ناقة واحدة تحمله وتحمل زاده الى بلد آخر .. !

ـ وماذا صنع أبوك

وما عساه ان يصنع ؟ وضع رأسه على حجر في الناحية الأخرى من الحي ثم نام !! وهو نائم الى الآن !

فتمتم ابن ربيعة قائلاً : مسكين انت يا موسى .

واي مسكين . ! فأنا من ذلك الحين لا أملك شيئاً ، والقوم يحولون وجوههم عني وأنا احول عنهم وجهي .

وكيف تعيش ؟

يجود عليّ القوم بخبزهم ويطرحونه لي كما يطرحونه للكلاب .

قال : اصبت فهكذا يعيش الخاملون .

فجعل يحدّق اليه والابتسامة القاسية على شفتيه .

أما يزيد فاستطرد قائلاً : أترضى بالخبز يطرح لك وانت في زهرة عمرك وقد وفرت الخيرات في الجزيرة الواسعة الارجاء ؟

قال : أتريد ان احيا ليموت غيري ؟ اني أخفي وجهي في ثوبي خوفاً من ان تقع عليه عيون الناس ؛ ولو لم اكن جباناً لأغمدت هذا الخنجر في صدري ونمت الى الأبد كما ينام ابي .

قال : الموت خير من هذا ورب الكعبة ،

فأشرق جبينه وقال : أقادم انت من مكة ؟

– نعم .

– وفي اي بلد ينتهي سفرك ؟

– لا اعلم فقد اعود الى مكة ثم ارحل الى نجد .

قال : لقد ذكرت الموت الآن فأسألك بحق البيت الذي تحجه العرب ان تكون رسوله . !

قال : ويلك أأكون رسول الموت ؟

– وما الذي يمنعك من ذلك وانا أستغيث بك والتمس هذا منك .

قال : ما كنت قط جلاداً . انك في مقتبل شبابك وستحيا .

قال : اسأل قومي ان يقضوا عليّ فلا أسمع جواباً لسؤالي . وأسأل الغريب ان يفعل فلا يرضى .

– أليس لك عدوّ !

– الناس كلهم اعدائي ولا عدوّ لي !

– وبنو مازن الغزاة ؟

– عندما أصبحت قادراً على حمل السيف نسي هؤلاء الغزو كما نسيه قومنا وتداعى الفريقان الى الصلح . ولولا ذلك لوقفت في وجه الغازي حتى تدوس حوافر الخيل فأستريح .

ثم جعل يعيد قوله : لو لم اكن جباناً لقتلت نفسي من ثلاثة اعوام .

– بل لو لم تكن أجبن من رأيت لتركت هذا البلد الذي لم تبصر فيه غير

الذل والموت .

قال : لقد فكرت في الرحيل اكثر من مرة ولكني لم اجسر عليه ..!

قال : ما رأيت احداً يخشى الذي تخشاه يا ابن حبيب .

- كما انك لم ترَ احداً في مثل هذا الشقاء .

- وما الذي تخافه من رحيلك ؟

قال : لا مال عندي احمله الى بلد آخر .

قال : يجعلك احدهم راعياً لنوقه فترفع هذا الرأس الذي حنته الاقدار .

- واذا سار الوباء خلفي وأفنى ما أرعاه ..؟

- يقتلونك وينتهي الأمر .

قال : اصبت فقد ذهلت عن هذا .

اذن رضيت بالسفر الآن ؟

أأسافر معك ؟

نعم !

الى أين ؟

قلت لك لا اعلم الآن .

ولكن لي كلمة قبل ان نتفق .

ما هي ؟

- هي ان تخبرني من انت؛ ثم انصح لك للمرة الأخيرة ان تتركني فقد تنقض عليك صواعق السماء وانا معك !!

فدبت قشعريرة الخوف في جسم يزيد . ولكنه استطاع ان يغلب خوفه بهذه الجرأة الغريبة التي يقل وجود مثلها في قلب رجل ثم قال :

لتنقضّ هذه الصواعق فلا ابالي ، فتفجر الدمع من عينيه وهو يقول : هذه يدي امدّها اليك واعاهدك على الوفاء .

قال : وتقسم لي يا موسى انك صادق في ما تقول .

اقسم لك ان حياتي هي لك منذ الآن .

– وما الذي دعاك الى هذا الاخلاص ؟

– العطف الذي رأيته منك ، فأنا لم ارَ قط صديقاً ، ولم اسمع قط حديثاً عذباً مثل هذا الحديث .

قال : أليس لك بيت في هذا الحي ؟

فأشار الى خيمة في الخلاء مفتوحة الجوانب وقال : هـــذا بيتي فأي غرض لك به ؟

– نبيت فيه ثم اقصّ عليك كل شيء .

– انك لا تجد فيه فراشاً الا الرمال .

– والرمال في نظري خير من وسائد الخزّ ، قم فامشِ أمامي وسأتبعك ، فمشى وهو مطرق كأنه يخشى ان ينظر الى السماء فتسقط على الارض .

وكان يفكر عندئذٍ في ذلك الملاك الذي ارسلته اليه الآلهة ، من الحجاز ،، جوار البيت .

وفي الوقت نفسه ، كان يزيد يفكر في ذلك الفتى الذي سيجعله في سفر ، الشاق أخاً له ..

* *

دعي صفوان الى قصر زياد فتردد في المجيء ، ليس لأن نار الغرام خمدت ، صدره ، بل لانه كان يحاول ان يجعل نفسه فوق ذلك الغرام كما قرأت ، غير ان التردد لم يطل أمره ؛ فالنفوس وان ثبتت في المجـــال لا تستطيع ان تثبت ال النهاية . ان سلطان الحب المستبد، لا يغلب ؛ وتلك النار التي تخمد ساعه لاتلبث حتى تضطرم في الاحشاء .

ومشى وهو يستلذ احلامه ويبني القصور .

وكانت ليلي قد طلقت البكاء وهي تحادث أباها وتنتظر وصول الحبيب الذي خرجت روحها معه عندما خرج من الدهليز ، كما يخرج العاشق الذليل .

وهي واثقة بأن طلحة لا يعود إلا وهو ينقل خبر قدومه ؛

فلما وصل صفوان ، رأى نظرات عذبة ووجوهاً ضاحكة ، فاسترجع ذلك

الأمل الذي كاد يضيّعه وجلس في مقعده ولم يصافح احداً كأنه في بيته ،
فوثق زياد بأن العاطفة العالية تمــلأ صدر الفتى ، وبأن الحب يغمر نفسه ،
ولولا تلك العاطفة وهذا الحب لما فكر في الرجوع .
فقال : ستسمع رأياً جديداً يا صفوان .
قال : ولا تزول الأخطار إلا اذا كثرت الاراء يا مولاي .
قال :أتعرف أبا ضمرة الخزاعي ؟
لاعرف سواه ..
- لقد جاء بعد خروجك يسائلنا ان نغضب معه للكرامة الزائلة ...
-اذن عدنا الى النظر في الكرامات !!
اجل وهو يريد ان يسبق صاحبك في الاستيلاء على الكعبة وقد يسلبه حبى . !
- وانا اريد ان اجعل النور ظلاماً والظلام نوراً . ! قل لماذا دعوتني يامولاي :
- دعوتك لأقول لك ان الشروط قد تغيرت .
اي انها كانت اثنين فاصبحت ثلاثة ؟؟
- بل نقصت فأمست واحداً يسهل عليك قضاؤه .
قال : عرفت فقد محوت الحرب وبقي جبير .
- نعم فليلى برأس هذا اللعين .
فبرقت عيناه قائلاً : لقد اضحت ليلى لي .
قال : اخاف ان تطوف في الجزيرة كلها فلا تجد له أثراً .
اما انا فيهون عليّ هذا الطواف في سبيل من أحب .. ولكن ألا تقول لي
شيئاً آخر .
- بلى ، سأعتزل حرب صاحبك ولا احمل السيف الا اذا أراد ان يمد يــده
الى ما املك .
فابتسم وهو يقول : يكفي ان يغضب أبو ضمرة وحده .
وكأنه ادرك كل ما يجول في ذهن الأمير فقال له : لقــد أردت ان تمتحن يا
مولاي فليكن ما اردت .

– ومتى تسافر ؟
– بعد يومين ، فقد زفّت حبى الى قصي .
– اي ان صاحبك وضع قدمه في اول درجة من درجات العرش .
فقال : ليس هناك عرش وابو ضمرة حي ..
ونهض فصافح الرجلين ، ثم مدت ليلى يدها اليه ولولا ادبه وحياؤه لجثا على ركبتيه ولثم تلك اليد المرتجفة المحترقة بنار الهوى .
وكان القلبان يخفقان والواحد منهما يسمع اضطراب الآخر .
كلاهما يخشى ذلك السفر الذي لا يعلم متى يكون الرجوع منه .
وانصرف صفوان الى الشعاب يتهيأ للسفر .

* * *

لقد اعجبني هذا الفراش الذي تضجع عليه يا موسى. والآن فقل لي ،أتعرف بلاد تهامة ام ماذا ؟
– لقد ذكرت لك ان أبي لم يكن يأذن لي في الخروج من الحي ، فانا لا اعرف بلداً غير هذا .
– اذن فنحن الاثنين غريبان .!
– نعم وخير لك ان تختار لسفرك عربياً غيري ، اذا كان لك في تهامة غرض تقضيه .
– لقد اخترت الآن ولست براجع .
– وما يمنعك من اختيار رجل آخر فنصير ثلاثة ! ألست من اولئك الحجازيين اصحاب المال الذي لا يفنى .
قال : املك من الذهب حفنتين هما في جيبي ، ومع ذلك فأي رجل اختاره وانا لا اعرف الرجال ؟
– ادلك على فتى يعدّ طيور تهامة التي تسبح في الفضاء ويحصي النخل المغروس في الصحراء .
– ومن هو هذا ؟

ـ ابن خالٍ لي جعلته الاقدار وحده .
ـ وأين ابوه ؟
ـ قتل في حرب نشبت بين هوازن وهذيل . قتله احد فتيان مكة .
قال : وأين يقيم هذان الحيان ؟
ـ هناك .. وراء مكة ، في الشرق .
ـ اذن فالفتى هجر حيه وهو يقيم بينكم .
ـ اجل وهو عاجز عن ان يثأر بقتيله .
ـ أتذكر اسم قاتله يا موسى ؟
ـ يقولون أن أحد أمراء الحجاز أرسله ليستعيد ماشيته المسلوبة ، واسمه
.. نعم جبير بن عبادة .
فخيل اليه ان صوت موسى صوت إله . واخـــذ ينظر اليه ويستعيد ذلك الاسم .
فاعاده الفتى ولم يتردد .
فقال له : أنستطيع ان نرى الفتى الآن ؟
قال : سيجيء الساعة فهو الذي سيحمل اليّ طعام القوم .
فحبس يزيد انفاسه ومدّ عنقه الى الخـارج يخترق نظره حجب الليل ليرى ذلك الذي جعلته الاقدار وحده .
ولم يلبث حتى اقبل تغطي جسمه عباءة سوداء .
فقال موسى وهو لا يلتفت اليه : لقد خدمنا الحظ يا سنان فاجلس .
وكان الفتى قد رأى يزيد ، فقال : من انت ؟
ـ رجل ُقتل ابوه وعجز عن ان يثأر به ...
فانحنى ليتبين وجهه وقد اهتزّ لِما سمع .
فقال يزيد : اجلس فأني بانتظارك وسأقول لك من انا وما هي حاجتي اليك
ورفع موسى رأسه وقال : حدثني ياسنان ولا تخف فقد قال لي هذا الرجل ان الذي يرى وجهي لا يرى الموت .

قال : ولكني لا اعلم يا موسى من هو ضيفك .

– يكفي ان تعلم انه من مكة وهو يبحث عنك .

فقعد وقد زال اضطرابه ثم قال للضيف : والآن ؟

– اما الان فجبير بن عباده قتل أباك وأنت أضعف من أن تطلب بدمه اليس كذلك ؟

– نعم !

قال : اتعرف جبيراً اذا رأيته ؟

– ورب الكعبة لو رأيته في مثل هذا الليل لعرفته .

– وكيف لا تطلبه وانت في هذا العمر ؟

فخفض صوته قائلاً : ان الذي يرعى غنم الناس ليشبع جوفه لا يستطيع ان يطوف في البلاد لأجل الثأر !

– واذا ارسلت السماء الى هذا الراعي من يساعده في ثأره ؟

– يترك غنم القوم ويتبعه الى حيث يشاء .

اذن فاعلم انك رفيق لي منذ اليوم .

قال : يظهر ان لك عليه ثأراً .

– هو ذلك ! فقد قتل ابي وانا اطلبه منذ اعوام ولا اجده .

– اي اننا اخوان تجمعنا غاية واحدة .

واخذ يقص عليه ماضي جبير وحاضره حتى انقضى الهزيع الأول من الليل ، ثم قال : وقد اثبتوا لي من بضعة ايام ، انه لجأ مع مولاه الى تهامة ولم يقدروا ان يذكروا البلد النازل فيه .

قال : لست من تهامة لأعرف طرقها وقراها . ولكني واثق بأنه لا يفلت من يدي اذا كان تحت هذه السماء .

– وهل انت واثق ايضاً بانه غير موجود في هذا البلد ؟

– لو كان موجوداً فيه لما قدر ان يستخفي

– أتعلم ان له مولى يمنياً يدعى عدوان ؟

ـ اعلم ذلك ولكني لا اعرف الرجل .
قال : اسمعهم يقولون انه ادهى الناس .
ـ ليكن شيطاناً ؛ فنحن لانريد الموالي بل نريد السادة .
ـ ولكنك لا تستطيع الوصول الى جبير وعدوان حي .
ـ اذا كان هذا فالاثنان يموتان .
فاحس يزيد ان قوة جديدة انضمت إلى قوته ، فقال : متى تترك غنمك ؟
ـ اتركها غداً اذا كان لا بد من السفر .
قال : افعل وسأعطيك درهمين كل يوم .
فوضع يده على بطنه قائلاً : حسبي ان يشبع هذا :
ـ الا تطلب اجراً ؟
قال : اما الأجر فذلك الدم الذي سأشربه .
ـ وانت يا موسى ؟
ـ واما انا فأحمل الزاد والماء وأرى وجه السماء وهذا أجري .
قال : نمكث هنا غداً ؛ فيطوف سنان بين الأحياء لعله يرى احداً ، ثم ننصرف بعد غد .
فوافقه سنان في الرأي ثم قال يزيد : الى اي بلد ننتهي اذا مشينا غرباً ؟
ـ الى روضة وهي بلد صغير في زاوية من الارض ذهبت اليه في العام الماضي.
قال : حسنا وسنقضي هذا الليل في بيت موسى ثم نتفرق عند الصباح على ان نلتقي هنا في مثل هذه الساعة .
قال أفلا يكون موسى شؤماً علينا ؟
قال : دع عنك هذا الشؤم الذي لا يفكر فيه غير البله .
فتمتم قائلاً : مسكين فقد خسر كل شيء .
وخرج من الخيمة وهو يقول : سأبيت الليلة في الحي فالى اللقاء في الساحة .
قال : لا تنس سلاحك !
قال : السيف الذي تركه لي ابي سيكون سلاحاً لي .

وحجبه الظلام عن عيني يزيد ؛ فاستلقى على الرمل قائلاً : لقد اعجبني هذا الفتى وسيكون نعم الرفيق اما موسى فلم يجب ، لأنه عاد الى التفكير في شومه.

* * *

- ٦ -

كان البرّ في الجانب الشرقي وراء الشعاب ، كبيراً فسيحا كله ميادين تجول فيها الخيل ، وقد جعل قصي ساحاته الأولى مجالاً يتعلم فيه الرمي والضرب بالسيف ؛ وذلك بعد الزواج .

كأنه لم يشأ ، قبل زواجه ، ان يضيع الزمان . ولا يشاء بعده ، ان يضيع شيئاً منه .

وفرسان بني كنانة ورماتهم ، يشتركون في التعليم ، ويبرون السهام لذلك الزعيم الكبير ، الذي اراد ان يجاري النعمان الغساني في الرمي . حتى اضحى في شهر واحد سيد الرماة . وحنت له فرسان العشيرة الرؤوس ، كلما جرت الخيل في الساحات .

فكر غريب ليس في الحجاز انضج منه ، وعزم كالحديد ليس في الحجاز اشد منه ، وطموح الى العزّ ليس في الحجاز أبعد منه ؛ فقصي فكر الحجاز وقلبه ، دماغه وروحه ، فارسه وسيفه .

احبه قومه حتى ليستهينوا بالموت في مجال الدفاع عنه . ولم يكن في مكة احب اليهم منه ، غير الاصنام التي يعبدون .

والرجل يعرف ان يستمر ويستغل . رأى صورته تتغلل في صدور القوم ففتح صدره لقومه . ورأى الحب يلمع في العيون فأحب الى النهاية . ثم انثنى يبني ذلك الصرح العالي الذي يهزأ بالحادثات . انه مظهر بليغ من مظاهر العبقرية والعظمة والنبوغ .

انظر ، ترَ بني كنانة الابطال يمدون اعناقهم ليسمعوا خطاب الفتى ، ويصغوا الى السحر يخرج من بين شفتيه . كأنه هبل القائم في جوف الكعبة ،

يوحي اليهم بالهيبة المقدسة . ويبعث في النفوس الاحترام والخشوع . أو كأنه رسول السماء ، يملي عليهم ما في السماء من قوة خالدة ورجاء . !

وكانت حبى ترافقه الى ميادينه، الى البر الطليق الحرّ ، فتجذب القلوب الى ذلك الزوج الذي يضع بيديه القويتين اسس المجد الذي لا يبلى ثم تأخذ السيف لتضرب كما يضرب قصي . وترمي عن القوس كما يرمي ؛ كأنها تريد ان تشاركه في جهاده ، وتضع يدها حيث يضع يديه ، لتبلغ معه الغاية التي يريد .

ان الزوجين تملك مشاعرهما فكرة واحدة ، السيادة .

ولم يكن قصي يكتم زوجته شيئاً ؛ بل باح لها في الليلة الأولى بما في نفسه من اسرار ، فاستولى عليها الخوف لحظة ؛ ثم رأت انه قادر على تنفيذ كل ما يفكر فيه . ولكنها كرهت ان يترك قصي الشعاب ، ولم يمر على زواجه اكثر من شهر.

وحاولت اقناعه بالعدول عن السفر فلم تفلح ؛ فاي بلاد يريدها ذلك الرجل الذي لا يحب ان يستريح ؟ انه يريد بلاد العراق ؛ فيرى النعمان الأول على عرشه

ويسمع حديثه ، ويشهد تلك المظاهر التي يسود بها شعبه . ولماذا يريد ان يفعل هذا ؟ لانه سيصير ملكاً ولم يرَ قبل اليوم ملكاً على عرش . وسيطوف في بلاده ليلمس بيده حكمة الملك وعدله وعظمته وسلطانه . ويصغي الى اقوال الناس فيه ؛ حتى يرسخ كل ذلك في ذهنه . ويتم له الدرس الذي اراده ؛ فيرجع الى الحجاز وقد وفرت له اسباب الملك . وان لم يكتف بما رآه ، يركب فرسه الى بلاد الفرس ، ليحضر مع الجماعات ديوان بهرام جور . وينظر الى ذلك الفتى الخليع المستهتر الذي جلس على اعظم عرش ، واضحى سيد الملوك في ذلك الزمان .

ومن يرد قصياً اذا قال ؟ ومن يثنى تلك الارادة الجبارة اذا مشت الى الامام ؟؟

انه كالطود الراسخ لا يضطرب ولا يتزعزع .

وقد رأت حبى ، ان الاستسلام اليه في كل شيء . . نعم في كل شيء ، خير ما تصنعه في حياتها معه .

على انه لم يكن مستبداً برأيه ، بل لم يكن يقدم على أمر الا بعد ان يشبعه، بالاشتراك معها ، بحثاً ، ويقتله درساً ، وبعد ان يدعو قومه ويشاورهم فيه .

وكان الرؤساء يحترمونه ولا يخافونه ، فاذا سألهم رأيهم أظهروا له مـا في الصدور بالصراحة والاخلاص ؛ فلما عرفوا انه يريد العراق ، أقبـلوا يسألونه عن اسباب السفر ويعرضون عليه الخيل والمال .

فقال : في الحيرة سوق اريد ان احضرها هذا العام .

قالوا : وفي الجزيرة اسواق تجتمع فيها العرب ..

– ولكن العراق ارض لها ملكها وانا احب ان اشهد اسواق الملوك .

ثم قال لاخيه : ايطيب لك السفر يا زهرة ؟

– ان الأمر الذي يطيب لك يطيب لي .

قال : لو كان صفوان حاضراً لذهب معنا . قولوا لخداش بن عبيد ان يحضر الآن .

فأقبل خداش ، فقال له : الى العراق يا خداش .

– الى العراق يا مولانا . !

قال : واين شيبة بن حبيب ؟

– مع القوم في الساحة .

– فلما دخل قال : ترغب في المسير الى العراق ؟

فاجابه ولم يتردد : اللجام في فم الفرس والسيف في سرجه ..

وجعل يدعو الرؤساء الواحد بعد الآخر الى السفر وهم لا يسألونه لماذا حتى سأل احدهم فاجابه قائلاً :

لو كنت سيد الشعاب مثلك يا مولاي ، لقلت : اركبوا .. فيركب القوم وهم لا يعلمون الى اين ..

فابتسم قائلاً : ما سمعت جواباً أبلغ من هـــذا .. ان الزعامة لا تليق الا بامثالك .. وهكذا ، في مثل تلك الصورة الرائعة ، كان يطيع القوم ابن كلاب ويمشون في ركابه الى حيث يشاء .

صبحوا الحيرة مدينة النعمان ، في يوم اشتد حره .. وارسلت شمسه ألسنة من نار ..

وكانوا ثمانية من ابطال الشعاب ، يرأسهم قصي .

فلجأوا الى القصب النابت على ضفة الفرات . يضجعون في ظله . على الرمل الرطب . ويتبردون في مياه النهر الفياض ، وليس بينهم من يعرف الحيرة الا شيبة بن حبيب ، قدمها وهو غلام ، مع ابيه ، يشتريان النجائب

وكانت ضفتا الفرات في تلك الساعة ، تغصان باهـــل الحيرة واضيافها من كهول وشباب وغلمان تركوا منازلهم الحارة ليقضوا يومهم في الرياض الزاهرة والجنات المثمرة على الجانبين . وعلى الشاطيء اكواخ من الاغصان جعلوها مظال للجواري والاطفال ، ومجالس للطعام عندما يحتدم الحر .. والناس يرددون قائلين : سيجيء الملك ..

ثم يقول بعضهم : ان الملك لا يخرج الا في المساء .

فقال قصي لشيبة : أرأيت النعمان قبل اليوم يا عم ؟

قال : لا فقد كان ولياً للعهد يوم قدمت الحيرة .

وقصر النعمان ؟

- اما قصره فرأيته من الخارج ولم اجسر على دخوله .

قال : لا تعلم متى يدخلون على الملك في هذا البلد .

قال : نسأل الناس الذين نراهم على هذا الشاطيء .. ونادى أحدهم فقال له : أمن الحيرة أنت ؟

نعم .

وهل تعرف الملك ؟

ومن لا يعرف الملك في العراق .!

قال : أيجيء الى هذا الشاطيء كل مساء .

فضحك قائلاً : قد ينقضي الشهر والاثنان ولا نراه .

- ولكنهم يقولون انه سيجيء اليوم .

– اجل فقد اعد له الحراس هذه الخيام التي تراها في الجانب الآخر ،واشار الى خيام ثلاث عليها الرايات .

وجلس الرجل كانه يستلذ الحديث عن الملوك ثم قـــال : سترون الحراس يمشون امامه وخلفه وهو بينهم على جواده ، ثم يطل بنوه وخاصته ومن يتبعهم من رجال الخورنق يحملون السياط .

قال : نحن غرباء كما ترى ونريد ان نحضر مجلس الملك فهل يؤذن لنا في هذا ؟

قال : يجلس الملك للناس أربع مرات في الشهر .

– ويحضر مجلسه من يشاء ؟

– نعم والويل لمن يمنع عربياً من الدخول في ذلك اليوم !

– ومتى كان مجلسه الاخير ؟

– منذ ثلاثة ايام، وشهدته الجموع من اليمن والشام بينهـــا بضعة رجال من الفرس ..

- اذن يجلس من جديد بعد خمسة ايام .

– اجل وتفد الناس الى الخورنق من جميع الاقطـار ، أتريدون انتم ان تقابلوه ؟

– نعم ونحن مكرهون على الانتظار .

– وهل انتم من اصحاب الحاجات ؟

– لا ! ولكن لم نشهد قط مجالس الملوك .

قال : اذا لم تكونوا بحاجة اليه فلا سبيل الى المقابلة .

وكان قصي ساكتاً فقال له : والآن فهل لك ان تبقى بيننا ريثما يجيء ؟

قال : اغيب ساعة ثم أعود .. وانصرف الى قومه يقص عليهم في الكوخ ، حكاية هؤلاء الغرباء .

* * *

مكثوا بضع ساعات بين القصب وهم يلعبون ويضحكون ، الا قصياً فقد

كان ضحكه ابتسامات قصيرة تظهر على ثغره ، ثم لا تلبث حتى تختفي .. ان عينيه كانتا تنظران الى الشاطىء الآخر ، الذي سيزوره النعمان .. ثم وضع يده على جبينه وسبحت روحه في فضاء الحجاز ..

وبينـــا هو غائص في اللجة ، اقبل ذلك العراقي يقول : انظروا الى هؤلاء الغلمان اللابسين الاثواب القصيرة . انهم غلمان الملك تقدموه الى الخيام .

فاتجهت العيون الى الموضع الذي اشار اليه ، ثم قـال : لقد اقبلت الخيل .. هذه راية العراق يحملها سعيد بن جرول . ان الملك لا يخرج من قصره اذا لم تخفق حوله الرايات . وهؤلاء حراسه ابناء الامراء والأشراف ..

وكان الحراس حلقة ضيقة انفرجت قبل الوصول الى الفسطاط الكبير الذي نصب لذلك العربي الغازي . فقـــال قصي : من هو راكب المهر الاشهب الذي يسير وراء الحراس ؟

- هذا الجراح التميمي حاجب النعمان .

وبانت عندئذ فرس لا تقع العيون على احسن منها . ولمع الديباج على كتفي فارسها فقال قصي : انه الملك ورب الكعبة .

قال : اصبت ! هذا هو الملك . ولم يستطع القوم ان يتبينوا من وجهه غـير جانب واحد .

لكن قصياً لم يكن ينظر الى النعمان ..! ان ذلك المظهر الغريب الذي ينشر ظلال العظمة والجـلال بهر عينيه واستهواه ؛ حتى نسي نفسه وظن انه صاحب تاج !! ثم صحا فقال : والفارس الذي يتبعه ؟

- هـــذا المنذر ولي عهده ووراءه اخوته ، بينهم شاس بن زهير بن جذيمة يطلبون الملكة ..

« هو شاس بن زهير الذي قتله رباح بن الأشل الغنوي ، وهو راجع من العراق يريد قومه . وقد قرأت ذلك في الاجزاء السابقة » .

واخذ يعد الخاصة فيقول : وهؤلاء اخوة الملك وابناء عمه وامراء الخورنق ، ثم فرقة الحراس الاخرى التي تسير وراء الموكب .

قال : وماذا يفعل ابن زهير العبسي في الحيرة ؟

– انه ضيف على صهره الذي يؤثره على جميع اخوته .

– أليس للملك زوجة غير العبسية ؟

– بلى . عنده هند بنت زيد مناة من بني غسان ، وولي العهد ولدها لأنها الزوجة الأولى ..

– يخيل الي انك من رجال القصر .

– بل انا من العامة ولكن الناس جميعهم يعرفون كل من في البلاط .

وكان عرض النهر حيث يجلسون اكثر من خمسين ذراعاً ، فرأى قصي الملك يجلس بين وسائده على الأرض ويجلس حوله رجاله والغلمان بين يديه وقد فاحت رائحة المسك .

وكانت زوارق صغيرة مربوطة الى الشاطيء ، وفيها العراقيون يتغنون ويسألون الناس العبور الى الضفة الاخرى؛فلما استوى النعمان جالساً في فسطاطه سكتت اصواتهم لا يسمع على الجانبين غير همس المياه .

وهم قصي بأن يعبر مع رفاقه ؛ فرأى الحراس يحيطون بالفسطاط والخيمتين المضروبتين بالقرب منه .

ان الملك العربي يريد ان يخلو بندمائه واتباعه ، في تلك الساعات القصيرة التي يقضيها على الفرات .. ولا يجد عربي سبيلاً الى الوصول اليه .

فآثر سيد الشعاب البقاء بين القصب ينظر الى النعمان؛ وقد استطاع ان يرى العظمة البادية على جبينه .. ثم رأى الخمر توضع في الاقداح . ويتناول الملك كأسه فيشرب ؛ ثم يأذن لمن حوله فيجرعون ما في الكؤوس ..

فقال : هذه ظاهرة من ظواهر الضعف في الملوك ..

فقال خداش : ان الملوك جميعهم يشربون ..

قال : لو حفظوا مقام الملك لشربوا في مخادعهم .. وكأنه ذكر ذلك العراقي الجالس وراءه ، فقال له :

أليس لك رأي في هذا ؟

فاجابه قائلاً : كل شيء يراه الملك جائزاً فهو جائز ..

كأنه يقول له : لا تعد الى مثلها بعد الآن ..

قال : لقد نسيت ان الملوك ليسوا من الناس.ونظر الى ابناء عمه وهو يقول: كل شيء يراه الملك جائزاً فهو جائز . انه درس لا انساه ويجب ان تذكروه .

فلم يعلم احد ما وراء تلك الكلمة من الغاز .

ومكثوا ساعة واهل الفسطاط يشربون حتى بدأ الملك ينظر الى جانبه كالمرأة الحسناء تنظر الى عطفيها ، وكان ذلك اول مظهر من مظاهر السكر .

ثم سمعوا ضحكه . ورأوه يهزّ رأسه ويتمايل طرباً . ثم يستلقي على الوسائد ويضرب نعله بالمخفقة التي بيده كأنه يرتاح الى تلك الحكايات التي يقصها عليه الندماء . وكان ذلك ابلغ ما رأوه .

فقال قصي في نفسه : لقد كتب لنا ان نحضر مجلس سكران ؛

حتى غابت الشمس وأهل الحيرة يروحون ويجيئون والملك لا ينهض عن وسائده ولا يكف عن الشراب . فظن الحجازيون انه سيقضي الليل في مكانه ،

فقال احدهم : يظهر ان النعمان سيبقى الى الصباح .

وقال آخر : وسيضع رجليه في الفرات وينام على الرمل .

فاجابهم رفيقهم قائلاً : لا يمر الهزيع الأول من الليل حتى يغادر الشاطيء الى الخورنق .

واين هي الانوار ؟

– ان الملك يؤثر الظلام .

قال : لا أعلم .

فقال خداش : لأنه يكره ان يراه الناس مترنحاً على ظهر فرسه . وقاموا فصافحوا ذلك الرفيق ومشوا يريدون الحيرة .

وسارت الجماعات أمامهم ووراءهم ينشدون الاناشيد ويرتجزون كأنهم في عيد . !

وكان شيبة بن حبيب ، يعرف المنازل التي ياوي اليها الغرباء فتقدمهم مستعيناً

بمن يراه من الناس . فرأوا تلك المنازل تغص بالوافدين من كل بلد ، وكل جنس ، هذا جاء يقصّ ظلامته على الملك وهذا يبيع ما يحمله في السوق . وهذا ينقل الى قومه طيوب العراق . وكان بينهم رجلان اثنان من ابناء فارس ، يحملان رسالة الى الملك من الجالس على عرش الفرس ، وقد آثرا النزول بين وفود العرب ،على النزول بين ابناء قومها لسر من الاسرار . ان الرسالة التي يحملان ، يجب ان يكتما ابناء فارس امرها حتى يدفعاها الى النعمان ويأذن في الجواب .

على ان عربياً يعرف الفارسية ، سمع حديثهما وعرف السر ، فجعل يروي ذلك الحديث لكل نازل غريب .

فأراد قصي ، بواسطة ذلك العربي ، ان يستدرجهما الى الاقرار فلم يتم له ذلك وكل غرضه ان يطلع على الصلة، بين ملوك الفرس والملوك اللخميين العرب. لكنه عمد الى الصبر ، فيستنتشر امر الرسالة في الخورنق ، ويتحدث به اهـل الحـيرة بعد ان يقرأهـا النعمان . هكذا قال له اولئك الذين يعرفون اسلوب الملك في شؤونه مع الاعجام .

اجل ! كان النعمان اذا وردت عليه رسالة لأمر خطير ، يعمد الى استشارة وزرائه واصحاب سره ، على مرأى ومسمع من النـاس ، فيستفتي بذلك رعيته التي يسوسها بعدل واخلاص ؛ ثم يقوم بقضاء ذلك الامر مطمئن الوجدان .

ونام القوم تلك الليلة وهم مستسلمون الى احلامهم .

اما قصي فلم ينم الا غراراً ، لان الأحلام طلقته في ذلـك الليل الحار الذي يذيب الاجسام .

وشبح ذلك الملك الجبار ، النعمان العظيم ، الفاتح السكران ، لم يزل مـاثلاً امام عينيه .

بل قل ان العرش كان ماثلاً في تلك الساعة امام تينك العينين الساحرتين .

* * *

ان الافراد الذين يفكرون في الصعود الى العروش ، لا يعبأون بالقـدر اذا جار وبالزمان ان طال . والذين يطلبون العـلى لا يضيعون الصبر . وقصي بن كلاب من هؤلاء .. تمر الاعوام وهي في نظره كالأيام .. حتى يبلغ غايتـه . ويستوي في المكان الذي يطمع فيـه . نعم ، وقد عرف كيف يقضي الايام في الحيرة ، ريثما يجلس الملك لشعبه وينظر في الظلامات .

كان الناس يعرفون عادة الملك في مجالسه . يدخلون جماعات عندما يأذن الحجاب . ويستندون الى جدر القـاعة الكبرى صفوفاً ووفوداً ، على رأس كل وفد زعيمه او خطيبه حتى يدخل الملك من باب آخر ويجلس على سريره .

وقد وصفت تلك العادة لقصي ، فدخل مع الناس برأس قومـه . ووقف وراء الصفوف التي سبقته في الدخول ؛ وكان الملك لا يدخل القاعة الا اذا دخل الناس جميعاً ، فإذا تأخر احدهم منعوه من الدخول في ذلك اليوم .

فلما امتلأت القاعة وساد الصمت والهدوء . ظهر الجراح التميمي على الباب الداخلي ثم ظهر الملك .وبعد لحظة اقبل المنذر ووجوه البلاط ، فاهتزت القاعة لأصوات الهتاف ثم انحنت الجباه حتى كادت تلامس الارض، فأجال الملك نظره ثم اتجـه الى سريره فتربع فيه . وقد تدلىّ طرف ردائه من الامام فتسابقت الوفود الى لثم ذلك الرداء ،

وهو ينظر اليها بالعين الواحدة التي يبرق فيها شعاع العظمة والقوة والنباهة والدهاء . ثم أومأ اليهم فقعدوا واذن في الكلام ، فقام واحد من بني نهـد فقال :

كان عمي جندل بن الربيع يرعى غنماً له في أرض له في ناحية السواد ، فأقبل عليه سويد بن غمرة من بني تميم فقتله وسلب ولديه غنمهما ثم لجأ الى حيـّه .

قال : ويلك أعجزتم انتم بني نهد عن الأخذ بالثأر ؟؟ وماذا تطلب من الملك والثأر عند خاصة العرب وعامتها مقدس لا يتركه إلا الجبان .

فقال : ماعجزنا يامولانا ، ولكن الرجل لجأ الى الحيرة ونحن لا نطلبه فيهـا اجلالاً لك ..

قال· سنأمر من أجاره بأن يتخلىّ عنه ويصرفه الى بلاد قومه ، اذكر اسمه !
– وانا آمن
– قل وانت آمن .
– انه في مجلس الملك الآن !
فنظر الى ما حوله وهو يقول :
ما نعلم ان احداً من خاصتنا يجير الناس بدون اذن ، قل من هو ايها النهدي !
– الجراح التميمي حاجب مولانا الملك .
وكان الجراح واقفاً بالباب فقال له :
أفعلتها يا جراح ؟ أتجير ابن عمك وتفتح له ابواب الخورنق ونحن لا نعلم ؟ ! احضره الساعة .
فتمتم يقول : جاري يا مولانا .
قال : ان الملك يعرف كيف يرعى حقوق الجار .. علينا به .
فخرج المسكين وهو يخشى ان يغضب الملك فيأمر بقتل سويد فتضيع حرمته بين العرب ولكن ماذا يصنع وتلك الارادة لا تردّ .
وظل الملك ساكتاً حتى أقبل سويد وهو يرتجف ، فقال : سويد بن غمرة قاتل جندل بن الربيع
– نعم ايها الملك .
– خبرنا كيف قتلته .
فتلجلج صوته ثم تلعثم وارخى نظره ،
وكلمة اخرى يقولها النعمان ، يسقط سويد على الارض من خوفه .. !
لكن النعمان لم يلجّ في طلبه بل قال : كنت جاراً لحاجبنا فلا نسلمك الى عدوك ولكن نأمرك الآن بالانصراف الى حيث تشاء فالملك لا يجير رعيته من رعيته . اخرج الآن .
فهمّ بأن يقبل رداءه فمنعه قائلاً :
لا تلمس هذا الرداء لئلا تصبح في جوارنا . اخرج ولا تبقَ في الحيرة ساعة

واحدة ، وانت يا النهدي ، لك ان تطلب بدم عمك عندما يجاوز سويدالحيرة اما فيها فلا . لقد حذرناك فانصرف .

فأثنى الرجل وشكر ، ثم خرج مع الغلامين ولدي جندل القتيل .

– اما قصي . فقد امحت صورة الملك السكران من ذهنه ، وانطبعت فيه صورة اخرى هي صورة الملك العادل .

وقام آخر فقال : خرجت من منزلي في بني أسد احمل لك الطيب والعود . فبينا انا بين الوريد والريحانة عرض لي رجل عرفت انه محارب بن سليم فقال : اعطني ما تحمله او اقتلك !

فقلت : ويلك هذا للملك ! فلم يسمع ، بل وضع رمحه بين عيني وهم بأن يطعن ، لو لم اتخلَّ له عن ناقتي . وحملي .

– متى كان ذلك ؟

– منذ اربعة ايام .

– واين يقيم الرجل ؟

فأشار الى فتى كبير الوجه طويل الشعر وقال : هذا هو !!

فقال : يا محـــارب ، أتعرض للناس في طريقهم ويذكر لك اسم الملك ولا تبالي ؟ !

فلم يجب .

قال : أصدق هذا الرجل ام كذب ؟

– بل صدق ، ابيت اللعن ؟

– اذن تستخف بمولاك وتعترف باستخفافك !

– بل كنت محتاجاً يا مولاي ، فاجترأت على ما لم يجترىء عليه غيري.

– كان عليك ان تذكر لنا هذه الحاجة .

قال : بيني وبين الحيرة مسيرة اربعة ايام وقد خفت ان يقتلني فقري وانا على الطريق !

قال : وهل بعت الطيب الذي اخذت ؟

– بعته بثلاثين درهماً يا مولاي وناقة جرباء !

فقال للناس : ما سمعنا اغرب من هذا !

فاجابه قائلاً : « كما انك لم ترَ اكثر فقراً واشد حاجة من هذا » ! وأومأ الى نفسه . ثم قال : وقد اتيتك يامولاي اعترف لك بذنبي وأسألك ان تحسن اليَّ فالثلاثون درهماً لا تكفيني .

فصاح الأسدي : والناقة يا مولانا .؟

فقال : لقد نسيناها . ماذا فعلت بها يا محارب .؟

– وانا قد نسيتها ايضاً .!! انها عندي .،، فلا تفجعني بها يامولاي !

فاختلجت عين الملك المغمضة ، وظهر على ثغره ما يشبه الابتسام وهو يقول: كم هو ثمن طيبك يا أخا أسد ؟

– مئتا درهم يا مولاي .

– اعطوه الف درهم وناقتين . ولكن اذا حملت للملك شيئاً بعد فاحمه بسيفك وإلا فلا تفعل .

فقال محارب : وانا يا مولاي ؟

– اما انت فأمرنا لك بثلاثين سوطاً جزاء اجترائك .. خذوه الى الرواق واضربوه ثم اعطوه الف درهم جزاء صدقه !

ولفت نظر القوم فى تلك الساعة ، رجل طويل القامة ذو لحية صغيرةوعينين براقتين توسط القاعة وقال : لقد غصبني عمال الملك في «الجوامر» ضيعة لي ليس لي ولولدي غيرها .

قال : اما انت فقد عرفنا حكايتك مع هؤلاء العمال ألم تدفع ما عليك من الخراج هذا العام ؟

– لا يا مولاي .

– ماذا تريد ان نصنع والخراج لا بد من دفعه ؟!

قال : يدفعه الملك عني على ان أرده ضعفين .

فضحك قائلاً : يحاول صاحبنا ان يجاري الملك في الكرم . لقد نزلنا عن حقنا بالخراج عامين كاملين ، واعطيناك قيمة هذا الخراج عن عامين آخرين

وسنأمر عمالنا برد ضيعتك .

وهكذا جعل القوم يتظلمون ويشكون وشفتاه تخرجان أحكام رحمته وعدله حتى خرج كل من في المجلس ، ولم يبق غير قصي ورؤساء العشيرة ؛

فعرف انهم من الحجاز فقال : وانتم يا جيران الكعبة ماذا تطلبون ؟

فوقف قصي فقال : نحن اضياف الحيرة منذ ايام وقد استأذنا في الدخول لنشهد مجلس الملك .

قال : ممن انتم ؟

فاشار الى رفاقه قائلاً : هؤلاء سادة كنانة وانا اصغرهم .

قال : لقد عرفتنا بنفسك فانت سيدهم ، أليست لكم حاجات يقضيها لكم الملك ؟

– لا مولانا ليس لنا حاجات في العراق .

– وماذا تنقلون الينا من اخبار الحجاز ؟

– لا نجد في الحجاز خبراً يستحق ان يسمعه الملك .

قال : زرنا الكعبة مرتين قبل ان نجلس على العرش وسنزورها في العام المقبل او الذي بعده .

قال : حسب الحجاز شرفاً ان النعمان العظيم يطأ ارضه .

– بل حسب النعمان شرفاً انه يجثو امام الآلهة ويقدم لها هداياه وخضوعه !

فقال خداش : لا نذكر يا مولانا ان مكة استقبلت قبل اليوم ولي عهد العراق ..

قال : دخلناها يومئذ بين الوفود ولم يعلم احد من اهلها اننا فيها ، هكذا اراد والدنا الملك وهكذا فعلنا .

قال : نلتمس منكم يا مولانا ان تدخلوها هذه المرة كما تدخل الملوك .

قال : عندما نجاور بيت الله نخلع عنا ثوب الملك لنلبس ثياب الحجاج ، ان عظمة الملك تنتهي عند اقدام الاصنام .. ثم قال : اما السادن عندكم فمن احسن الناس وقد حدثناه ثلاث مرات وهو لا يعرف من نحن . ولكن سمعنا ان له ولداً

لا يعرف نفسه ولا يرعى للبيت حرمته .

فقال قصي وقد ذكر السكر : لو لم يكن المحترش شراباً للخمر لكان خير خلف ، انه يشرب حتى يصرع وليس في الحياة شيء أحب اليه من هذا !.

– وابنته حبى ? أترد بعد امراء العرب فلا تتزوج احداً منهم ?

قال انك تعرف يا مولانا كل مـا يجري في الحجاز . لقد تزوج حبى قصي بن كلاب الذي يخاطب الملك !

– انت

– نعم وكان ذلك منذ شهر .

– اذن تزوجها كناني ولم يحفظ حليل عادة قومه ! ان عينيك ايهـا الفتى تدلان على نفس كبيرة ستخضع الحجاز .

قال : ان مكة تخضع لحليل والحجاز يخضع لامرائه .

– ولكني ارى انك ستمحو هذه الامارات .

قال : لم افكر في هذا يا مولاي . ومع ذلك فالطريق وعر المسالك لا يجرؤ الفتى الضعيف على اقتحامه .

وفي تلك اللحظة قال الجراح التميمي : ان الفارسين اللذين حملا رسالة ملك الفرس الى مولانا الملك بالباب يستأذنان في الدخول .

قال: لقد امرناهما بالانتظار ريثما نشاور رجالنا ونكتب لهما جواب الرسالة. ليدخلا .

فدخلا وعلى كل واحد منهما طيلسان اخضر يلبسه الاشراف، وحنيا رأسيهما للملك الذي امرهما بالجلوس ، وقد أشرق جبين قصي ومد عنقه ليسمع شيئـاً جديداً ...

ثم قال الملك موجها كلامه الى قصي : أفي الحجاز قوم ينتمون الى المسيح بن مريم ?

– ليس لهؤلاء في الحجاز ذكر يا مولاي .

قال : ان بهرام جور لا يطيق ان يرى في بلاده من يقول انه نصراني !! ليس

لأنهم اتباع للمسيح فحسب ، بل لانهم رعية لملـــك الروم وهم يأكلون خيرات الفرس .

فلم يقل قصي كلمة . ان امر النصـارى مع بهرام جور لا يعنيه ، وليس من الحكمة ان يخرج عن رصانته في مجلس النعمان .

ثم عاد الملك الى القول: وقد كتب الينا حليفنا الملك يسألنا رأينا في الحرب اذا هي احتدمت نارها بينه وبين عدوه .

– أتنشب الحرب لأجل هذا ؟

– أجل فملك الروم يعد عدتهـا اليوم وقد بلغ الملـــك ان جنوده في الشام وسيزحفون الى أرضه عندما يبدأ فصل الربيـع .

– وتساعدهم جنود غسان على ما أرى .

قال : اذا كان قـد بقي لغسان قوة فلتفعل . لقد مللنا الحرب واتعبنا الفتح فبتنا نؤثر الانصراف الى النظر في شؤون العراق ونحن في هـــذا القصر ، على اكتساح الاقطار الآمنة التي لا نربح منها غير سفك الدماء ، ولا نضم الى العراق منها الا الانقاض ولكن ، نقسم برب الكعبة لئن بدرت بادرة من الغسانيين في سبيل الروم ، لنركبن خيلنا هذه المرة ولا نفارق ظهورهـــا حتى ندك بصرى ونعفي آثارها ، ونجول ربوع الشام كالنار الآكلة تلتهم كل شيء .

وجعل يقص على الناس اخبار التدمير الذي قـام به في فتوحه وغزوه وهو يبتسم كأنه يقص حكاية من حكايات لهوه على الفرات.. ثم اخذ يصف تلك اللذة الغريبة التي يشعر بها عندما تتدحرج الرؤوس في الميدان ولم ينس ان يخص ولي عهده واخوته الامراء بكلمة شكر ..

لكن الناظر اليه كان يرى على وجهه وفي عينيه آثار الألم كأن الزهد الذي املى عليه هجر ملكه ، كما تقدم ، بـــدأ يتغلل في نفسه الجبارة التي هي اعظم نفوس الرجال الذين جلسوا على عرش الحيرة ، من قبل .

وجال في الحديث جولة طويلة ثم قـال بالفارسية للرسولين : يقول الملك في

رسالته انه ندب شعبه للقتال وبدأ يحشد الجند ، فهل كثرت طوائف هذا الجند في المدائن ؟

– ان فيها بضعة آلاف ليس غير .

– وكيف استقبل الشعب دعوة الملك الى حرب النصارى ؟

– كما كان يستقبل هذه الدعوة في ايام يزدجرد .

فقال لاهل الشعاب : لم يبلغ بهرام جور الحد الذي بلغه ابوه في بغضه النصارى ، كان يزدجرد يضطهدهم بعنف كلما طاب له ان يرى الدم في الاسواق ...!

– اذن هو عداء موروث يا مولاي .

– نعم وهذا العداء لا يزول حتى تفنى احدى الدولتين الفرس او الروم او حتى تتراجع الواحدة عن الاخرى بحكم القوة .. والتفت الى خاصته قائلاً : ان الحرب التي ارادها بهرام جور لا بد لنا منها فماذا تقولون ؟

فقال المنذر : ليأمر الملك فتخرج السيوف من الاغماد .

– وانتم يا ابناء عمنا ؟

قالوا : اما نحن فليس لنا الا الرأي الذي يراه مولانا الملك .

فقال : السيف السيف .! انه وحده يحفظ الهيبة ويوطد اركان الملك . ثم قال : اذا اردت ان تسود فاضرب عدوك ضربة ينسى معها غروره ولا يرتفع له بعدها صوت . بهذا نوصي اولادنا واتباعنا فالحياة هي القوة وعلى الضعيف ان يموت ..!!

واطرق ملياً كأنه يفكر ، ثم رفع رأسه قائلاً : اكتبوا الى بهرام جور :اننا مع جنودنا على ظهور الخيل .

وفي مثل ذلك السؤال القصير الذي وجهه الى اتباعه ، كان يستشير اولئك الاتباع في شؤون الملك .!

اجل ، يكفي ان يذكر لهم ذلك الأمر الذي يفكر فيه وينتهي كل شيء ، كما رأيت .

ان النعمان قلب العراق وفكره واهل العراق عبيد له يطيعونه في كل مـــا يريد !

اي انه كان في العراق وهو ملك ، كما هو قصي في الشعاب ولا عرش له .

واخـذ يتنبأ عن الحرب فيقول : أيعلم بهرام جور اين تقف جنود الروم في زحفها الى بلاده ؟

فقال الفارسـان : من يدري اذا كان يعلم هذا . إنه الآن يبث العيون في انحاء القطر الفارسي وعلى حدوده ، وقد يبعث الرجال الى الشام تتفحص عن احوال الاعداء .

– اما نحن فنعلم ماذا يريد ان يفعل ذلك الأمبراطور المستخف بالناس ، إنه يتظـاهر بالدفاع عـــن حقوق النصارى لتنضم اليه تلك الطوائف وتمشي في الحروب تحت لوائه . ولو عقل القوم لعرفوا انه يخفي وراء ذلك المظهر الكاذب رغبة يستعين بالسماء والارض لتتم له ، هي الاستيلاء على بلاد العرب وما حولها من بلاد الفرس ليبسط نفوذه من قلب الشرق الى قلب الغرب وتنشر رومـــا جناحيها فوق العالم كله !! نعم . ونقسم برب الكعبة أنه لا يطمع بغير هذا ولم يفكر قط في تلك الفئة المسكينة التي تتبع المسيح بن مريم .

أنسي ذلك الرومي ، ان الذين جلسوا قبله على عرش روما اضطهدوا اتبــاع المسيح قبل ان يضطهدهم يزدجرد ، هـدموا ومعابدهم ولم يبقوا فيها حجراً على حجر وشردوهم في الآفاق ؟ أنسي تلك المذابح التي جرت فيها دماء المسيحيين كما تجري الانهار ، في اسواق رومـــا وبيروت وانطاكية وفلسطين ؟؟ نه اذا نسي ذلك فالعالم لم ينس وسيعلم بعد حين ان بلاد العرب لم تكن لقمة سائغة في افواه الروم .

فقال المنذر : أتعلم ياMولانا في اي بلد تدور رحى الحرب ؟

قال : اذا كان لا بد من ان يزحفوا الينا فجنودنا وجنود الفرس واقفون بالسلاح لا يخطون خطوة واحدة الى الامــام ، حتى يبلغ الروم نصيبين ، وفي نصيبين تختبر الرجال .

وعلى رغم ذلك الغضب الذي رأى القوم صورته الهائلة سمعوه يقول: ولكننا مللنا الحرب فمتى ينتهي منها الروم فننتهي نحن ؟ على اننا نحن الذين رفعنا بهرام الى عرش آبائه فلا نخذله . ان الذي يستعين بنا لا نرده ولو كان عدواً . وليفعل الروم ما يطيب لهم فالعرب فتيان الميادين .

ونهض كما ينهض الليث الجريح وهو يجر ذيل ردائه واختفى وراء ذلك الباب الذي دخل منه .

فلما هم القوم بالانصراف ، ظهر الملك ثانية على عتبة الباب وقال لولي عهده : اعطوا هذين الفارسين رسالة الملك وليرحلا اليوم .

قال : لي كلمة يا مولاي !

فاستند الى الباب وهو يصغي اليه .

فحـــاول ان يهامسه فأبعده قائلاً : لا تخفض صوتك يا منذر فالنعمان لا يخاف احداً !

قال : ألا ترى يا مولاي ان نزيد على رسالة الملك سطراً واحداً ؟

قال : ماذا ؟

– نكتب اليه ان يعد جيشين ينفصل الواحـــد منهما عن الآخر ونفعل نحن مثـــله ...

– والى اين يسير الجيشان ؟

– يسير الواحد منهما الى نصيبين بقيـــادة الملكين . ويزحف الآخر الى شواطىء الروم وجبالهم في فينيقية فيملأ البلاد خوفاً وذعراً .

– ومن يقوده ؟

– انا يا مولاي فتتضعضع الروم ويتراجع جيشهم مضطرباً من نصيبين ؛

فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : ان لك رأياً فاكتب ما شئت .

فقال قصي لرجاله :

ان ولي العهد ابعد نظراً من النعمان وسيكون له شأن .

واحتجب اتباع النعمان في دهاليز الخورنق ، أمـا هو فخرج مع رفاقه الى السوق ، وقد ارتفعت فيها الاصوات وكثر البيع والشراء .

* * *

– ٨ –

بعد ظهر ذلك اليوم ، وصل الى الخورنق رجل يدل مظهره على انه من ابناء العرب .. وطلب مقابلة الملك قائلاً : انه من الحجاز !! وذلك قبل ان يجلس الملك للمظالم .

فاذن له ، والنعمان يظن انه احـد اولئك الرجال الذين شهدوا مجلسه في ذلك اليوم ،

فلما مثل بين يديه رأى وجهاً لم يره فقال :

من انت ؟

قال : جابر الخزاعي من مكة .

– أأنت من رجال حليل بن حبشية سادن الكعبة ؟

– نعم يا مولاي !

– اذكر حاجتك اذن ؟

وكان الجراح التميمي واقفاً ، فقـال : اني انقل الى مولاي الملك حديثاً لا يحسن ان يسمعه احد .

فقال على الأثر : اذهب يا جراح واغلق الباب ، ثم قال : والآن فهات ما عندك .

فجعل ذلك الرجـل يتكلم والملك مصغ اليه ، وعينه المغمضة تختلج ، على عادتها ، اختلاجاً قوياً هو دليل هياج النعمان وثورة نفسه ، حتى امعن في حديثه وقص على الملك حكاية اهتزت لها اعصابه واسود جبينه ، فصـاح قـائلاً : افتح الباب يا جراح !

ففتحه ويده على سيفه !! ان لهجة الملك لهجة غضب يعرفها ذلك الحاجب الامين ؛ ففاجأه بقوله : أتذكر اولئك الحجـازيين الذين وطأوا بساطنـا في هذا اليوم ؟

- وتعرف ذلك الفتى الذي يرأسهم وكنا نحدثه ؟

- نعم .

- اذن تخرج الى السوق الساعة وتأمره بالمجيء .

- واذا لم اره يا مولانا ؟

- تقلب الحيرة بطناً لظهر حتى تجده .. فانتنى يريد الذهاب ، فاستوقفه قائلاً : اسمع ، اذا كان مسافراً فأرجعه ، وان كان نائمـاً فأيقظه واذا لم يستسلم فاضربه وليس عليك من بأس اذا حملته كتلة من الدماء . اخرج الآن ولا ترجع بدونه فتذهب عنقك ..

قال : لنفرض يا مولانا انه ترك الحيرة فماذا اصنع ؟

- تلحق به مع عشرين من الرجال وتفعل كما أمرتاك .

فخرج الجراح وهو لا يعلم في أي شيء استحق قصي ذلك الغضب .

والتفت الملك الى ذلك الذي يدعى جابراً قائلاً له : امـا انت فامكث في الرواق ولا تتركه حتى ندعوك .

ونهض يروح ويجيء في تلك القاعة كالنمر الهـائج وليس في القاعة احد من رجال البلاط .

حتى مل الانتظار ، فنادى احد غلمانه وقال :

قل لسعيد بن جرول ان يعد السيف والنطع وراء هذا الباب .

وذلك امر لا يفعله النعمان الا عندما يخرج عن حده .

فمن هو العدو الذي اخرج الملك عن ذلك الحد ؟.

كان قصي في السوق يسأل الناس كيف تقام الاسواق ... بل كان اذا رأى فرساً تباع او جملاً يشرى ، يعمد الى سؤال البائع والشاري عن الثمن !! كأنه يريد ان يلبس تاج الحجاز وهو عـالم بكل شيء ، ورجاله معه يذكرون له ما يعرفون عن السوق .

فبينا هو على الحال التي وصفنا تصدى له الجراح قائلاً : لقد شهدت مجلس الملك اليوم ونسيت اسمك فارجو ان تذكره لي .

وكان يخاطبه كما يخاطب الملك لأنه لم يستطع ان يقتحم ذلك الجلال اقتحاماً!
فاجابه قائلاً : اسمي قصي بن كلاب !
– اذن فاتبعني يا قصي بن كلاب باسم الملك .
– الى اين ؟
– الى الخورنق فالملك يأمرك بالمثول بين يديه .
ومشى امامه كأنه يقول له : لا تتردد في الذهاب ، فتبعه ساكتاً وهو يفكر في ذلك الطلب الفجائي .
فأقبل خداش فقال : أيطلبه الملك وحده ؟
– نعم .
– ولا يؤذن لنا في اللحاق به ؟
– ليس ما يمنعكم من هذا ولكن لايؤذن لكم في الدخول .
فقال خداش لرفاقه : لنتبع سيدنا !!
وساروا جميعاً وراء الاثنين حتى بلغوا الخورنق فوقفوا ببابه الخارجي ودخل الجراح وقصي . وما لبثا حتى اصبحا امام النعمان في قاعة الجلوس .
فقال لحاجبه : احفظ الباب ولا تأذن لأحد . امـا انت ايها الفتى فتعال ،
وخطا بضع خطوات الى احد المقاعد فجلس فيه وهو يقول : ويلك مـن انت ؟
قالها وصوته يرتجف .
فقال قصي وهو هـادىء : لقد ذكرت لك اسمي يامولاي ولم اكن كاذباً انا ابن كلاب الكناني !
قال : سنتبين كذبك بعد قليل . قل اين نشأت حتى بلغت العشرين مـن العمر ؟
فعرف قصي التهمة ، فقال ولم يبال : في قضاعة .
– واين منازلها ؟

– بين تبوك ومعان فيما يلي دومة الجندل .
– اذن نشأت في ظل بني غسان.
– بل نشأت في ظل ربيعة بن حرام زوج امي وانا لا اعرف من ذكرت الا بالاسم .
– وماذا كنت تصنع في قضاعة ؟
– كنت ارعى غنم ربيعة وذلك ما يفعله جميع الفتيان في البادية .
– وبعد ذلك ؟
– عرفت اني لم اكن قضاعياً ، فتركت القوم الذين ربوني ولحقت بوطني .
– ولكنك نسيت ان الحارث الغساني دعاك اليه قبل الرجوع الى هـــذا الوطن ومكثت في قصره ثلاثة ايام !!

فابتسم قائلاً : لقد كذب من نقل هذا الى الملك !

– قلنا لك اننا سنعرف من هو الكاذب ، وماذا فعلت وانت في الحجاز يا ابن كلاب ؟
– ماذا فعلت ؟ .. ماذا فعلت في الحجاز يا مولاي ؟؟ ان الحجاز بـــلادي وبلاد آبائي فلم اكن اظن ان الملك سيسألني عن ذلك .
– واذا سألناك ؟.
– اذا سألني الملك اقول : اني افعـــل في وطني ما اشاء على ان لا أغضب ملك العراق .
– بل اغضبته وتآمرت عليه مع مولاك المقيم بالشام . ألم تذهب منـــذ اشهر الى بصرى ؟
بلى .
– أفلا يجوز ان نسألك عما صنعت فيها ؟

قال : اني طالب مال وقد رأيت قومي اهل الشعاب يرحلون الى ذلك البلد في كل صيف فرحلت معهم .

– ثم رجعت الى منازل قضاعة ، وبينها وبين الشام مراحل ، ثم عدت ثانية

الى بصرى لأمر لا نعرفه فما هو ؟

قال : اما ذهابي الى قضاعة فلكي ارى امي واخوتي ومن حولهم من اهل واصحاب واما رجوعي الى الشام فلأن قومي كانوا ينتظرونني فيها .

– ومن رأيت في بصرى من كبار الغسانيين ؟

– رأيت النعمان بن الحارث ولي العهد في بلاط ابيه ،

– والملك ؟

– ما رأيت له وجهاً .

– وهل كنت تعرف ولي العهد من قبل ؟

– لا ، بل دخلت لأتفرج على القصر لأني لم ادخل قبل ذلك قصور الملوك .

– وكان معك اخوك زهرة .

فخيل اليه ان النعمان نفسه كان في ذلك اليوم ، في بلاط الغسانيين ،

فقال : كان اخي ورجل آخر من تجار الشام ، فلما اصبحنا داخل القصر قادنا الحاجب الى رواق طويل يطل على السهل ويتلهى فيه ولي العهد بالرمي ..

– ثم ماذا

– فأذن لنا النعمان في الجلوس معه وجعل يرسل سهامه الى الاهداف ونحن نرى من ضروب الرماية ما لم يره عربي .

فارتفع صوت الملك قائلاً : وتجرؤ ايضاً على اظهار اعجابك بعدّونا ايها الفتى ؟!

– وهل يريد الملك العظيم الذي أخضع الأقطار بقوة سيفه ، وحفظ ملكه الواسع بعظمته وحزمه ، ان اكذبه القول واجعل اعجابي هزءاً ؟؟ اني يا مولاي من اولئك الناس الذين لا يبيعون وجدانهم ولا يمسخون اقوالهم ..

لقد أحاطني ذلك الأمير الفتى بعطف عال وعناية طيبة، ورأيت منه مظهراً جليلاً من مظاهر البطولة فمن اللؤم ان اخفي ما رأيت .

فكاد الملك يظهر استحسانه ، لولا ذلك الغضب الذي تغلي مراجله في الصدر ولولا تلك الوشاية الساقطة التي ملأت نفسه غيظاً .

وقطب حاجبيه وقال : كأنه من اللؤم ان تنسى عطية الغسانيين ، اذكر لنا ماذا اعطوك ؟

قال : لم اطلب إحساناً يا مولاي .

– وماذا طلبت اذن لقاء ذلك العهد الذي وافقتهم فيه ؟

فابتسم ثانية وهو يقول : ان ذلك العهد لا وجود له الا في مخيلة الكذوب الساعي ..

قال : سمعنا انهم اسبغوا عليك النعم وملأوا راحتيك مالاً ، ولنا على هذا دليل لا تقدر ان ترده .

– ولكن أيذكر مولاي الملك هذا الدليل ؟

نعم ، هو انك ذهبت الى بصرى مقلاً فرجعت مكثراً فمن اين اتاك المال ؟

– من اخي رزاح بن ربيعة بن حرام .

قال : متى كان رعاة الغنم يبذلون الاموال ؟

– ومتى كان الغسانيون يعطون الناس بدون حساب ؟

فحدق اليه بتلك العين القاسية وقال : عندما يجعلونهم عيوناً على ملك العراق !!

فتراجع قصي الى الوراء وهو يقول :

أتظن يا مولاي ان في هذه الارض ملكاً يقدر ان يجعل الفتى الماثل بين يديك عيناً على أحد ؟؟

قالها ونور الكبرياء يضيء في وجهه .

فأجابه وشفتاه ترتجفان : انك اذن ارفع من الملوك يا ابن كلاب !!

– بل انا مثل جميع الناس مولاي ، ولكن نفسي ..! ان نفسي متمردة عاصية لا تطيق ان يستخف بها ملك .

قال : أتجرؤ على هذا ايضاً ؟

– ولماذا لا افعل وانا اخاطب ملكاً تتحدث العرب بعدله ؟

قال : ما رأيت أثراً من آثار هذا العدل قبل الآن .

- ولكني سمعت يا مولاي وهذا يكفي .

- بل يجب ان ترى عيناك ما سمعت اذناك ، لقد أعددنا لك الساعة ما تستحق من الجزاء .

قال : ماذا ؟

فأومأ الى الرواق قائلا : ان السيف والنطع وراء هذا الباب .

فقال وهو لا يخرج عن هدوئه : أتأمر بقتلي يا مولاي ؟

- إجل فانت القائل ان العرب تتحدث بعدل النعمان .

- ولكنك لا تعلم يا مولاي ماذا تقول العرب اذا فعلت .

- وماذا تقول ؟

- ستقول ان ملك العراق نسي في احدى ساعات الغضب انه ملك فأمر بقتل بريء . !!

قال : لو أصغى الملك الى مثل هذا القول لما كان في البلاد مجرم ، ان جميع الذين تثبت خيانتهم يزعمون انهم ابرياء !!.

- اما انا فلو كنت من هذا الصف لما خفت الموت .. لقد اتهمت يا مولاي رجلاً هو اعظم مما تظن .

قال : أصبت ! ولولا هذه العظمة التي ذكرت لما جعلك ذلك الغساني عبداً تنقل اليه اخبار العراق .

فرفع صوته قائلاً : لقد قلت لك يا مولاي ان الملوك لا يستطيعون ان يجعلوني من العبيد ..

- ولكن المال يستطيع ذلك .

قال : لقد ذكرت هذا المال مرتين يا مولاي ، وانا اعترف لك انه مالي ، لا شأن للغسانيين به وانت لا تصدق ، كأنك تريد ان تقذف بي الى اشداق الموت دون ان تصغي الا الى ذلك الكذوب الساعي الذي استهان بك يوم نقل اليك ما لا صحة له .

– واذا كان ذلك ؟

– اذا كان ذلك ، فلا حيلة لي في ردّك عما تهمّ به فافعل ما تشاء . ولكن .

– ولكن ماذا ؟

– ولكني انصح لأهل العراق ان لا يحجوا البيت بعد ذلك لأن دمي له ثمن عند اهل الشعاب يا مولاي .. !

قال : أتهددنا ايها العاجز ؟

– وهل تطلب إليّ ايها الملك ان استسلم الى الموت وانا ساكت لا اقول كلمة؟ وتربة كلاب !! وحق البيت الذي تقدسه العرب لئن قتلتني حملت اليك العربان الف جثة من ابناء قومك واشتعلت في الجزيرة كلها نارٌ لا تخمد وفي مكة كناني أتظن يا مولاي اني عربي تائه في الصحراء ، ليس له من يطلب بدمه الذي تهرقه ظلماً في هذا القصر وتلطخ به العرش؟. وهل يخيل اليك اني صعلوك تقتله عندما تشاء دون ان يرتفع بعده صوت ؟؟ إنك ورب الكعبة لا تعلم ماذا تفعل وسترى بعد ساعة . نعم سترى بعد ساعة ، ان لم اخرج من قصرك حياً ، ان اولئك الرجال السبعة الذين شهدوا معي مجلسك ، سيملأون سوق الحيرة جثثاً ويستهينون بالموت ، الى حد أنهم يؤثرون ان يحصدهم السيف على الرجوع الى الحجاز وقد خسروا سيدهم . !

وابتسم ابتسامة الليث الجريح وهو يقول : قم فدلني على النطع ومر رجالك بأن يضربوا عنقي ولكن لا تنسى ان دمي سيبقى في عنقك حتى يثار الحجاز بي .. !!

ولكن ذلك المظهر الغريب لم يؤثر في النعمان ، فقال هازئاً : لقد نسينا انك اصبحت صهراً لسادن الكعبة وان اهل مكة ينتصرون لك لأجل هذا .

قال : كنت سيد قومي قبل الزواج الذي ذكرت .

– ثم اعطاك حليل شيئاً من سيادته ، فقام في ذهنك ان النعمان بن امرىء القيس لا يجسر على قتلك – ألا فاعلم يا ابن كلاب ، أنه لو خطر للملك اليمن ان

يدخل قصرنا ليكون عيناً علينا لضربنا عنقه ومـا نبالي بالجيش الجرار يزحف الينا بعد ذلك .

فعاد الى هدوئه قائلا : ألا يريد النعمان بن امرىء القيس ان يصدق اني من الابرياء ؟

قال : هب ان الذي نقل الينا خبرك كان كاذباً ، أفتقول لنا الآن مـا هو غرضك بالمجيء الى الحيرة ؟

قال : اما انه كاذب فنعم ؛ واما غرضي بالحيرة فقد اردت ان اشهد سوقها لاني لم اشهد في الشام اسواق العرب .

– ولكن في الجزيرة اسواقاً غير سوقنا وهي اقرب اليك منا واوسع مجالاً .

فرأى قصي انه لا يستطيع ان يخفي غرضه الى النهاية ، فقال :

ولا اكتمك يا مولاي ان لي غاية اخرى .

– ما هي ؟

– هي ان اشهد في هذا القصر كيف يجلس النعمان العظيم لمظـالم الناس ، ثم انصرف الى بلاد قومي .

– وغير ذلك ؟

– ليس هنالك شيء آخر يا مولاي واقسم لك .

قال : لقد عرف الحارث الغساني ان ملك الفرس لا يطيق ان يقيم النصارى بين شعبه ، وانه سيستعين بنا على طردهم من بلاده ، فبعثك الينا تستطلع اخبار هذا الطرد لينقلها بدوره الى سيده القيصر ، ثم يعد الاثنان عدة الحرب .

قال : ما سمعت اخبار النصارى الا من الملك .

– بل سمعتها من قبل وقد قصهـا عليك الملك في مجلسه وهو لا يعلم انك عدوه .. واما قولك انك اتيت لتشهد مجلسنا فما نصدقه ، ولا يخطر بالبال انك تقدم من الحجاز الا لأمر فيه نفع لك .

فبرقت عيناه قائلاً : مـا قدمت الحيرة الا لأرى مجلس الملك ، أفتريد ان تعرف لماذا ؟..

– نعم !.

– اذن فاعلم اني أريد أن أصير ملكاً ..!!

فضحك طويلاً ثم قال : انت ايها الفتى ؟

– نعم وسأضع بيدي تاج الملك على هذا الرأس ..

قال : اذا بقيت حياً ..

– سأبقى لان الملك لا يقتل ملكاً بريئاً هو ضيفه .

فكف النعمان عن مظاهر الاستخفاف وجعل ينظر اليه بعين جديدة هي غير تلك العين القاسية التي كان يرسل منها اليه السهام ، ثم قال :

وتجعل عرشك في مكة ؟

– اجل وفي جوار البيت ليصبح مقدساً محترماً مثله .

– وماذا تصنع بسادن الكعبة ؟

– لا تسألني عن هذا الآن فقد ذكرت لك كل ما استطيع ذكره ولم أخف عنك شيئاً ..

– ولكن هذا لا يكفي .

– بل يكفي ، عندما تعلم ان امر الحجاز في يدي وسأحدث فيه حدثاً بعد حين يتغير له وجهه ..!

– ومن قال لك ان النعمان يطيق ان يرى رجلاً يبني في الحجاز عرشاً ؟

– ان النعمان لا يتصدى لشؤون الحجاز إلا إذا أراد ان يخسر عطف العرب جميعها ويجعل القبائل الكثيرة اعداء له ..!

– وهل يطيعك القوم ؟

قال : أيستطيع الرجل ان يصعد الى القمة الا على اكتاف قومه ؟..

فأيقن النعمان عندئذ بان قصياً ملك مثله .. ولكنه لم يشأ ان يستسلم لظنونه قبل ان يلمس براءته مما اتهم به ، فقال :

وتربة امرىء القيس لا تخرج من هذا القصر حياً الا اذا كنت بريئاً ..

قال : لا تبين براءتي الا اذا ذكرت اسم الساعي بي ..

– بل نفعل اكثر من ذلك ، ان الذي قص علينـا حكايتك موجود في هذا الرواق وسندعوه الآن ..

فنهض عن مقعده وهو يقول : وانا اقسم برب الكعبة لا اغادر الخورنق الا بعد ان يعترف الساعي بكذبه ..

فقال : يا جراح .. أدخل الحجازي الذي ينتظر امرنا في الرواق .

فتلفت التميمي يميناً وشمالا فلم يبصر احداً ، فقال :

لا ارى في الرواق رجلاً يا مولانا .

قال : انظر فلعله في الرواق الآخر .

فقال قصي : احجازي هو ؟

– اجل ومن جيران الكعبة .!

فعض قصي على شفته وهو يفكر في زياد بن كعب ..

قال : عد اعداءك في الحجاز يا قصي ..

– ليس لي فيه اعداء ايها الملك .

قال : رأينا عدوك الآن وهو من النبلاء .

– النبيل لا يتكلم من وراء الستار .. ما اسمه يا مولاي ؟

– دع عنك اسمه فستراه .

قال : يخيل الي أنه خرج من القصر والحراس لا يعلمون .

– وكيف يفعل ذلك وقد أمرناه بالبقاء ريثما تجيء .

– قال : نحن الآن في وضح النهار والنام لا يظهر الا في ظلام الليل ..

وأرسل نظره الى الباب وهو لا يصدق‌ان ذلك الحجازي يجسر على الظهور

وقد أصاب في ظنه ، فان الجراح كان يقول للملك : لم ار في أروقـة القصر ظلا لهذا الرجل !

قال : ويلك ومتى خرج منه ؟

– لا أعلم يا مولانا .

فوقعت المخفقة من يد النعمان وارتسم الغضب على جبينه ..

أسعى ذلك العربي الغريب بالناس ثم يستخف بالملك فلا يعبأ بامره ولا يبالي بمـا قاله له ؟؟! انها اهانة لا يصبر عليها النعمان ، فقـال : صفه يا جراح لحرّاس الباب الخارجي واسمع جوابهم .

فغاب لحظة ثم أقبل يقول : لقد خرج غيره من الناس فلم ينتبهوا لصفته ..

فقال : فرّ ورب الكعبة ..!

ثم تناول مخفقته قائلاً : اخرج في أثره مع فريق من الحراس ولا تعودوا الا وانتم تجروه جراً ..

ومد يده الى قصي وهو يقول : لقد استهان بنـا النذل وكذب .. فهذه يد الملك تمتد اليك .

فقبلها الفتى بالاحترام وظهرت الابتسامة على شفتيه .. ولكنه ظـل ساكتاً حتى اختفت آثار الغضب فقال: أرأيت الآن يا مولاي ان هذا الفتى لا يكذب.

– رأيت وسمعت فانت الآن في جواري ولك ان تقيم بالحيرة مـا شئت .. ولكن ألا تعلم من هو صاحبك هذا ؟

– لو عرفت من هو لسميته لك ، ان في مكة رجلاً واحـــدا لا ينظر الي بعين الحب .

– أتذكره ؟

– لا يا مولاي فأنا لا أريد ان أتهم أحداً دون ان اراه ..

قال : ذلك درس تلقيه على الملك الآن ... وما هي صفته ؟

– طويل القامة اسمر اللون وهو في فجر الكهولة ..

قال : ليس هذا صاحبك الذي هزأ بنـا ، انه ربعة وعيناه زرقاوان يبرق فيهما الرياء ..

فتنهد قائـلاً : اشكرك يا مولاي فقد محوت الظنون التي كادت تقتلني منذ ساعة .. انه اذن عدو لا أعرفه .

– ستعرفه عندما يقبض عليه الجراح ..

قال : لو اراد ان يمثل مرة اخرى بين يدي الملك لما عمد الى الفرار .

وبينا هما يتحادثان سمعا صوت الجراح التميمي فناداه الملك قائلاً :
ماذا صنعت ؟
قال : لم يخرج من الحيرة احد منذ هذا الصباح ..

قال : لقد بحثت عنه في اروقة الخورنق ودهاليزه فلم تر له وجهاً ، وسألت الحراس فقالوا لك انهم لم يبصروه. ثم تقول الآن انه لم يخرج من الحيرة ، فلم يبق الا ان تغزو بخيلك وحراسك هذه السماء فلعله ركب ظهر طائر وتغلل فيها .

فقال قصي : ألا يقوم رجالي بباب القصر ؟
– بــلى .
قال : اذا أمر الملك فليحضروا فلعلهم رأوه .
فقال الجراح : سألتهم فلم يعرفوا اكثر مما عرف الحراس .
قال : لينس الملك هذا الحجازي الكاذب فقد نجا ..

فأجابه قائلاً : لقد اردنا ان نجعله فوق النطع الذي اعددناه فلم نقــدر فأكرهنا الزمان على النسيان .

ونظر الى التميمي قائلاً : قم فاخرج الى ساحة الخورنق وتمشّ بـين الوفود ويدك على سيفك . انك لا تعرف غير هذا . اخرج ولا ترجع الا اذا دعوناك . وقال لقصي : وانت ايها الفتى لقد روعناك فانس هذه الساعة كما نسينا صاحبك وسيصل اليك احساننا وانت في السوق . واذكر ، ان في العراق ملكاً يطيب له ان تسود الحجاز وتصبح ذا عرش . ولكن اذا رأيت ذلك الرجل الربعـة الأزرق العينين فانقل اليه تحية الملك .

وفي تلك الساعة اقبل بعض الوفود .

فلما دخل الجراح ليستأذن لهم قال له : خذ وفودك وانصرف عنا فلا نطيق ان نقابل احداً في هذا المساء .

ومدّ يده ثانية الى سيد الشعاب ثم احتجب وراء البـاب الآخر الكائن في صدر القاعة .

فمشى قصي الى الخارج وهو يفكر في ذلك الرجل الشريف الذي قدم الحيرة من الحجاز ليسعى به . وعلى رغم تلـك الصفة التي ذكرها له النعمان ، كانت صورة زياد بن كعب لم تزل ماثلة امام عينيه .

* * *

- ٩ -

عندما رأى رجال قصي سيدهم خارجاً من الخورنق مشوا امامه الى المنزل الذي يقيمون به وهم لا يقولون كلمة .

ذلك لانهم رأوا آثار التفكير على جبينه والاضطراب في عينيه .

ولم يكن خداش بن عبيد معهم ؛ فلما وصلوا قال قصي :

اني لا أرى خداشاً فأين هو ؟

فاجابه احدهم قائلاً : لقد رأى احد ابناء عمه في سوق الحيرة فلحق به .

– أيكون في الحيرة رجل آخر من كنانة ونحن لا نعلم ؟

– اذا لم يكن من كنانة كان من خزاعة وكلنا في مكة ابناء عم كما ترى .

فابتسم قائلاً : اراك تعني ذلك الرجل الذي خرج من الخورنق .

– نعم وقد خيل الينا انه من الخزاعيين امراء مكة .

– ولكنكم قلتم لحاجب الملك انكم لم تروه .

قال : لقد كرهنا ان ندلّ الملك على حجازي .

– ومن قال لكم ان الملك يضمر له شراً ؟

– رأينا ذلك الشر في عيني الجراح .

– ومع ذلك فلستم واثقين بأنه من خزاعة .

– لقد استطاع خداش ان يرى عينيه ؛ فقام في ذهنه انه رأى تينك العينين من قبل .

– والى اين لحق به الآن ؟

– مشى الى السوق فمشى وراءه ونحن لا نعلم الى اين !

قال : اريد ان اعرف الرجل قبل ان نغادر الحيرة .

– ألم تره في مجلس الملك ؟

– لا ، حتى ان الملك لا يعرف اسمه الذي ذكره له .

قال : سيرجع خداش بعد ساعة حاملاً اخباره .

– بل أرغب اليك ان تذهب انت في أثر خداش تستعجله في قضاء هذا الامر .

قال : لنفرض ان الرجل اختبأ في مدينة النعمان .

– نمكث على ابوابها شهراً كاملاً حتى نراه خارجاً منها .

فعرف الرجل ان قصياً لا يلجّ في ذلك الطلب الا لأمر خطير يهتم له الاثنان هو والنعمان .

فهمّ بالذهاب فرأى خداشاً بالباب ، فقال له : كنت الآن ذاهباً في طلبك .

قال : أعاد مولانا ؟

فقال قصي : لقد عدت وأنا اسأل عنك ، قل الآن ارأيت ذلك الرجـــل الذي خرجت في اثره ؟

– رأيته ودار بيننا حديث اقصه عليك .

فاستوى في مجلسه قائلاً : لا تنس كلمة .

قال : يظهر ان لك شأناً مع الرجل .

– نعم وما رأيت في حياتي أغرب من هذا الشأن .

– اذن كنت مصيباً في لحاقي به .

– اجل فخبرّنا الآن كل ما سمعت ورأيت .

فجعل يروي لهم حكايته مع الرجل وهم يصغون اليه .

* * *

خرج جابر الخزاعي من الخورنق محجباً لا يبين من وجهه غير عينيه ، كما قرأت .

فرآه خداش ، وعرف ان عينيه خزاعيتان فمشى خلفه وهـــو لا يعلم اي باعث قذف بذلك الخزاعي الى العراق ثم الى قصر النعمان .

وكان جابر قد رأى القوم ، فارتجفت ركبتاه اولاً ثم هدأ روعه وسار لا يلتفت الى الوراء . حتى اختلط بالناس في السوق وجعل ينظر الى جانبيه كأنه طالب حاجات له ، يختارها بعد الدرس والاختبار . فتغلل خداش مثله بين الصفوف التي تغص بها السوق ، وعيناه تتبعان جابراً لا يطرف لهما جفن ..!

ولكن، لم يبق على جابر. بعد ان بلغ آخر السوق الا ان يدور دورة قصيرة بين البيوت ، ثم يصبح في الخلاء ، وهنالك الطرق تمتد الى الاقاليم .

فخشي خداش ان يفعل ذلك فتضيع غايته ، فأسرع في مشيه وكان متثاقلاً حتى رأى البرّ امامه وجابر يهمّ بأن يركب ناقة له كانت هناك .

فوضع يده على كتفه قائلاً :

أرى عباءة حجازية وعينين أعرفهما .. فلم يستطع صاحبنا ان يخفي نفسه ، بعد تلك المفاجأة التي رأيت فقال له: خداش بن عبيد، وماذا تصنع في الحيرة ؟

– قدمتها مع قصي بن كلاب وسادة العشيرة ، وانت ؟

– اما انا فقد قدمتها وحدي كما ترى . قالها وهمّ بالركوب .

فعرف خداش الصوت ، فقال : خيل اليّ انك انت قبل ان اسمع صوتك أتعود الان الى مكة ام ماذا ؟

– أعود الى ، ذو طلوح ، فامكث فيها بضعة ايام ثم انتقل الى ديار بني غطفان فا بقى فيها ليلة واحدة .

– ومتى قدمت الحيرة ؟

فتردد في الجواب ثم قال : منذ عشرة ايام !!

– اذن جئت لتحضر السوق ، ثم لترى الملك وقد رأيته اليوم فهل اعطاك شيئاً ؟

– لولا طمعي بعطية المال لما دخلت الخورنق . نعم اعطاني ما في هذا الجراب من مال .

– عجباً . ! أيجيء ابو ضمرة احد أمراء خزاعة الذين يملكون في مكة كل شيء فيمد يده الى النعمان طالباً احسانه ؟؟

– لقد كنا نملك كل شيء قبل هذا العام الجدب الذي لم يترك لنا شيئاً. ومع ذلك فليس لأحد ان يرد عطية الملوك ولو كان من اغنى الناس .

فابتسم قائلا : ولكن لم نر ملكاً اعطى احداً درهماً بدون طلب .

فكاد ابو ضمرة يفقد صبره لما يراه من فضول خداش الذي لا معنى له . ولكنه كان يخشى ان يقول كلمة فيفضح نفسه وتظهر الغاية من مجيئه الى العراق، فقال : اصافحك الآن على ان نتلاقى في مكة بعد شهر .

قال : لي كلمة اخرى ايها الأمير ؟

فقبض على زمام ناقته وجعل ينظر اليه وعيناه تقدحان شرر الغضب والحسد ..

ان خداشاً من رجال قصي وهذا يكفي . ! ثم قال : كلمتك يا خداش .

قال : ألم تبصر قصياً في بلاط الملك ؟

– لم أبصر غير الملك وحاجبه .

– والآن ، منذ ساعة . ونحن قائمون بباب البلاط . ألم تقع عينك علينا نحن جيرانك في مكة ؟

قال : لم تقع عيني الا على الحراس الواقفين كالتماثيل .

– حسبت انك لا تريد ان ترى احداً من اهل الحجاز .

فتمتم قائلاً : اني لا اريد ان أرى احداً من اهل الشعاب .

ووثب الى ظهر ناقته وهو يقول : الى اللقاء فنحن قوم لا نطيق البقاء في العراق اكثر من يوم .

– ولكن مضت عشرة ايام وانت فيه !

فلم يسمع خداش جوابه لانه كان قد وضع رمحه بين اذني ناقته فجرت كالفرس الكريم . كذلك لم يسمع خداش تلك الجملة الاولى التي ترددت في صدره وخرجت كالهمس من فمه .. ووقف ينظر اليه حتى غاب عن نظره ؛ فرجع

وهو يعجب لذلك التحجب الذي يلجأ اليه امير مثل أبي ضمرة في عاصمة اللخميين .

* * *

ذلك ما قصّه خداش على القوم .

فقال قصي : انا احد ابناء مكة ولا اعرف من امراء الخزاعيين من هو ابو ضمرة هذا ؟

– هذا سيد حيّه ومن امراء المواسم .

فتنهد قائلاً : كنت أوثر ان يعثر عليه حراس الملك فيمثل بين يديه من جديد !

– وهل طلبه الحراس ؟

– اجل طلبوه لأمر لا يخطر ببال أحدكم ، ألم تعلموا لماذا قدم الخورنق ؟؟انه جاء يدلّ النعمان على عدو له !!

فارتفعت اصواتهم قائلين : امير من الحجاز يفعل ذلك ؟

– نعم وقد خدمه الحظ فكان عدو الملك في الحيرة .

– وماذا صنع النعمان ؟

– ارسل حاجبه فدعا ذلك العدو وحدثه بالأمر .

– ثم انفجر صدره فأصدر الحكم عليه بالموت وانتهى كل شيء .

– لا يا خداش . ان الملك لم يشأ ان يصدر ذلك الحكم الا بعد ان يعترف عدوه بذنبه امام الساعي به !

– وبعد ذلك ؟

– وكان ابو ضمرة في الرواق فلما طلبه لم يجد غير الجدر .

قال : هب ان ابا ضمرة كان كاذباً في سعايته ، أفيهون عليك ان تسلم سيداً من سادات مكة الى الملك ؟

قال : ورب الكعبة لو عرفت في تلك الساعة ان الرجل في حضن ملك الفرس لما تردّدت في القبض عليه ولو قتلت .

فاستولى الاستغراب على القوم . .ان ذلك العداء يضمره قصي لرجل من جيران الكعبة لم يكن من شيم النبلاء . ومع ذلك فهو لا يعرف ابا ضمرة وقد لا يعرف ذلك العدو .

فقال خداش : وما الذي يدعوك الى هذا وانت ابن كلاب ؟

– يدعوني اليه ان الرجل الذي صوره للنعمان عدواً كان بريئاً .

– وكان عاجزاً عن اثبات براءته فتوليت انت أمر الدفاع عنه .

– أصبت فهو احب الناس اليّ ولا يستطيع احد ان يتولى ذلك الأمر كما يتولاه قصي .! ان ذلك العدو البريء هو انا !

فاصفرت وجوههم وسادهم الصمت !

ابو ضمرة الخزاعي يترك مكة على ناقة له مقتحماً أخطار الصحراء ليقذف بقصيّ إلى اتون النار ؟؟ !! انها تشبه حكايات الجنّ التي تقصها العجائز على الغلمان !!

وأي سبب يحمل ذلك الأمير على ما فعل وهو من انسباء سادن الكعبة الذي أحب قصياً وآثره على فتيان قومه ؟!!

ثم خطر لهم ان سيد الشعاب يهزأ بهم .

فاستعادوا قوله فأعاده ويده على جبينه كأنه لا يطيق ان يستعيد في ذهنه ذلك الحادث الغريب الذي جرى له في بلاط النعمان .

فقال شيبة بن حبيب : ألا تذكر لنا ما الذي قاله للملك ؟

قال : لقد نقل اليه اني من جواسيس الملك الغساني واني لم اقدم الحيرة إلا للأطلاع على اسرار القصر !!

ثم قال : ألا تذكرون ذلك اليوم الذي دخلت فيه بلاط الغسانيين في بصرى في الصيف الماضي ؟

– بلى !

– ان النعمان يعرف ذلك ويزعم ان ملك الشام ملأ راحتيّ مالاً فبعته نفسي بذلك المال .

قال : لقد عرف اللعين ان يوغر صدر الملك ونسي ان الروايات الكاذبة لا تعيش .. وماذا صنع الأعور ؟ وهو يعني النعمان .

– خيل إليّ ان صدره يكاد ينشق من غضبه .. ثم سمعته يتهدّد ويذكر النطع والسيف وانا ساكت هادىء لا يرتفع لي صوت ، حتى انتهى من التهمة فرددتها بصبر وسألته أن يأمر الرجل بالرجوع الى القاعة ، فطلبه الحاجب فلم يره كما قلت .

والآن ! فقد قلت يا خداش ان اميرنا سافر الى مكة أليس كذلك ؟؟

– نعم .

– اذن اسألك ان تدلني عليه يوم نصل اليها .

قال : وما هي غايتك من هذا ؟

– غايتي ان اطبع صورته في ذهني فلا تفارقه عمري كله .

فهزّ رأسه قائلاً : ولكنك لا تحتاج الى ذلك ، فأنا سأمحو لك هذه الصورة بحد هذا السيف .

فصاحوا جميعهم : لقد كتب لأبي ضمرة ان يموت من أيدينا .

قال : أمنع هذه الأيدي من ان تمتد اليه الآن .

– وكيف نصبر وهو يفضحنا في مجالس الملوك ويدفعنا الى هوة الموت ؟؟انه ضعف لايرضاه بنو كنانة .

– بل هي الحكمة فنحن لا نرضى ان نقابل عدونا الا في الميدان .. اصبروا فقد اتت الساعة وسيتعلم الأمير الخزاعي كيف تكون السعايات .

واستولت عليه في ذلك فكرة جديدة ، هي ان زياد ابن كعب وأبا ضمرة هذا مشتركان في الجريمة ، وفاته ان الواحد منهما لا يطيق ان يرى الآخر .

ومن الطبيعي ان يفكر في ذلك اذ ليس من المعقول ان يقوم ابو ضمرة وحده بتنفيذ هذه المهمة الصعبة وهو لا يعرفه ، ولكنه كتم قومه تلك الظنون فلم يبح بها لأحد ، غير ان شيبة بن حبيب لم يكتف بما سمع فقال : يظهر ان لك فيمكة اعداء يا مولاي .

قال : هذا سؤال وجّه اليّ النعمان مثلهولم أتردد في الجواب . ان في مكة

قوماً يقتلهم حسدهم فهم يعيشون كما تعيش الذئاب في الصحراء .
– أتعرفهم يا مولاي وتكتمنا أمرهم ؟
– وهل يليق بالرجال ان يفشوا جميع الاسرار .. قلت لكم ان في الصبر فرجاً ، وسترون ..
وكان الليل قد سدل ستاره على الحيرة . وقد التف كل واحد منهم بعباءته يريد ان يستسلم للنوم . ، فأقبل احد رجال البلاط يحمل عطايا الملك .
فجعلها قصي سبعة أقسام تناولها رجاله ولم يأخذ منها شيئاً .
وعندما اغمض اولئك الرجال اجفانهم استيقظت نفسه ومثلت امام عينيه صورة العرش.

* * *

– ١٠ –

فتى ، حلو الشمائل جذاب الملامح ، يركب بعيراً ابيض . وشعره مثل شعر المرأة مسترسل على كتفيه ..!
رأوه في اول بلد من تهامة . يقف في الساحات ثم سمعوه يصف للناس يزيد ابن ربيعة ولا يذكر اسمه . كأن في ذكره خطراً على صاحبه !!
انه صفوان بن الحارث يطلب رأس جبير . وقد مكث في ذلك البلد يومين كاملين . ثم انتقل منه الى روضة ، البلد الصغير الذي سبقه اليه يزيد ورفيقاه كما مر .وفي روضة لا ضيع أحد... منازلها خيام لا تبلغ المئة . بينها خيمة كبيرة يجتمع فيها القوم كل مساء ، هي خيمة الرجل الذي يحمي الحيّ ، فعرف صفوان أن ابن ربيعة لم يقم بها غير يوم واحد ، ثم تركها الى «هوارة» ،
وفي هو رة عرف انه في « جمح » وهناك تلاقى الاثنان ، فجعل يزيد يقصّ عليه اخبار سفره وحكاية رفيقيه ، وقلب صفوان يخفق مضطرباً في صدره . ان فشل يزيد في سعيه يعني فشله هو في ذلك السعي ولا يبقى امامه بعد ذلك إلا ان يخسر ليلى الى الأبد ، فيخسر صفو العيش ونعيمه ، ويقضي العمر كله محترقاً بنار الغرا

وكان ينظر الى الافق البعيد كأنه يريد ان يتبين ما وراءه ، وقد ذكر في تلك الساعة قول كاهنة الشماب : ان القاتل في تهامة .. ولكن تهامة واسعة الحدود بعيدة الاطراف ، فأين يجده فيها وإلى أي بلد يشدّ رحاله .. وهل تكذب سودة وهي كاهنة كنانة ، والقوم جميعهم يحترمون الرأي الذي تراه ، في السلم والحرب ؟؟

انه موقف تحيّر فيه . أيرجع الى الحجاز فيقول لزياد : لقد عجزت وانا لا استحق ليلى ، ام يطوف في البلاد ولا يعود إلا ورأس القاتل بين يديه ؟! اوهب انه رأى جبيراً وجهاً لوجه واستطاع ان يضرب عنقه أفلا يجوز ان يكون القتيل جاراً لسيد من سادات تهامة ، فتحيط به الخيل ، ويقتلوه حفظاً لحرمة الجار ؟؟. وهل يعمد صفوان بن الحارث الشريف الكناني ، إلى قتل عدوه طعناً بالخنجر في ظلام الليل كما يفعل اللصوص الذين يسرقون الدماء ؟ وكيف ينجو من اهل تهامة إذا ضرب ضربته ولجأ الى الفرار ؟؟

لقد عرف زياد ماذا يصنع فطلب اليه رأس جبير ليحول بينه وبين الزواج ، وهي احدى المكائد التي يستعين بها الرجال .

وكان ذاهلاً وقد غمرته الكآبة .

فقال يزيد : أتسكت ونحن بحاجة الى الرأي ؟

قال : لقد طلقني الرأي في هذا اليوم ، انا واثق بأن ابن عبادة في تهامة ولكني لا أعلم في اي موضع هو .

قال : نزور هذا القطر كله لا نترك فيه بلداً حتى نعثر عليه .

– وتعود الى مكة بعد عام وانت لم تر احداً .

قال : اني اشتغل لنفسي فلا يهمني مر الاعوام .

– وانا ؟

– اما انت فلا يطيب لك ان يمر الزمان وانت بعيد عن الشماب .

– وهذا معناه اني اشتغل لحساب غيري .

– اجل لحساب زياد بن كعب .

فقــال في نفسه : مسكين يزيد فهو لا يعلم اني أبذل دمي في سبيل الوصول الى قاتل ابيه .

وابتسم قائلاً : لك يا يزيد ثأر ولي مثله فلا تسألني عن سببه .. يكفي ان تعلم اني اعطي نصف حياتي من يدلني على صاحبك ..

– وانا أعطيك كل ما أملك، على ان تذكر لي هذا السبب الذي تخفيه ؛

فعاد صفوان الى السكوت .

قال : لقد خطر لي ان اسألك عن هذا يوم تركت مكة .

– لو فعلت لما سمعت جواباً !

– لكني افعل الآن ولا ابالي. قل يا صفوان أتخرج في طلب رجل اهان زياداً وقتل مولاه ؟؟!

– نعم وليس هنالك عيش يطيب لي الا اذا قتلته .

– وأي شأن لك معه وزياد بن كعب ليس من قومك ؟

– لقد ذكرت لك هذا الشأن في يثرب ؛ فاكتف بما ذكرت .

قال : اقسم لك اني لا اذكر من ذلك الحديث كلمة .

– ألم اقل لك ان ابن عبادة عدو احد الامراء واني عاهدت ذلك الأمير على الدفاع عنه ؟

فرفع عينيه الى العلاء قائلاً : بلى فقد ذكرت !

– وتذكر ايضاً تلك الكلمة التي اعيدها الآن « ذلك سري فلا أبوح به » .

فحنى يزيد رأسه وهو غير راض بما سمع ..

فقال : ماذا تريد بعد ؟

فأومأ اليه بأن يتبعه الى ظلال النخيل وهو يقول: اريد ان اعرف هذا السر الذي تكتمني اياه .

قال : سأستمر على عهدي لزياد وهذا سري ..

قال : ما رأيت زياداً عاجزاً عن ثأره . انه من كبار الامراء الذين يملكون الرجال والمال .

– وانا لم اكن عاجزاً عن الوفاء بوعدي . خبرني الآن عن هذا الأبله الذي وضعت يدك بيده وهو لا يعرف غير خيمته ..

قال: انه يشبه اخي الذي قتل في الشام، وقد استعنت بهذه المشابهة على قضاء الامر الذي خرجت لأجله ..

قال : أترحل غداً ؟

– بل ارحل الآن وتعود انت !!

– لماذا ؟

– لأني سأفي بما وعدت زياداً وينتهي الأمر !

فضحك قائلاً : يعد صفوان ويفي يزيد !! انها والله احدى غرائب الزمان!

قال : انك تطلب رأس جبير وانا سأعطيك اياه .

قال : لو كانت هذه غايتي لأرسلت عشرين رجلاً من كنانة يبحثون عنه ويحملون رأسه !

– وماذا اذن ؟

– اريد ان يكون سيفي أول سيف يسقط على عنقه .

– وهل تملك الحجاز اذا فعلت ؟

– لا املك شيئاً ، بل اطفيء هذه النار الملتهبة في الاحشاء ..

– ثم تحمل رأس الافعى فتطرحه بين يدي زياد قائلاً له : هـذا مهر ليلى فزوجني الآن ..!

فنظر اليه مستغرباً ..

قال : لقد صدقت ظنوني فلم يبق سبيل الى الكتمان .

– ومن قال لك اني طالب زواج ؟

– قالوا لي انك عاشق يكاد يقتله الغرام ..

قال : لو أنصفت العرب لجعلتك كاهنها . انك تقرأ الافكار وتعرف مـا في الصدور من اسرار ..

– وأرى ما في العيون من وميض نار ..

فكادت الدموع تظهر في عيني صفوان . ان ليلى كانت تملأ قلبه .. والهم يملأ نفسه . وليس في الصدر ظل لأمل او رجاء .

فقال يزيد : أتظن انك قادر على اخفاء غرامك ؟

فهم بالرجوع وهو يقول : ليس هنالك غرام كما تظن !

قال : لقد عرفت الآن كل شيء فاعترف لي .

فتمتم قائلاً : اكتف بما عرفت ..

- بل اريد ان يصف لسانك هواك ..

قال : أتستلذ احاديث الهوى يا يزيد ؟

- نعم !

- اذاً فاعلم اني عاشق وقد فتنت بجمال ليلى .

- وهل بحت لها بغرامك ؟

- اجل فالقلبان متفقان متعاهدان على الوفاء ..

- ولكنك لا تعلم متى يأذن زياد في الزواج .

- بلى أعلم ان الزواج يأذن فيه رأس ابن عبادة !.

قال : لقد عرف ابن كعب كيف يبعد العاشقين .. وسكت قليلاً، ثم قال : اتذكر يا صفوان ، اننا زرنا امير صوفة بعد رجوعنا من يثرب ؟

- نعم .

- لقد رأيت في ذلك اليوم اموراً لم تزل في الصدر .

قال : ماذا ؟

- ان زياد بن كعب لا يحب سيد الشعاب ..!

- وتعرف هذا ايضاً ؟

- اجل فقد رأيت البغض بصورته الهائلة مطبوعاً على وجهه؛ثم لمست بيدي هذه الصورة في حديثه ، وانا لا اعلم الى الآن اي حادث جرى بين الاميرين حتى تباعدا ...

قال : لم يرَ احدهما الآخر غير مرة واحدة في قصر حاجب البيت .

ويظهر ان تلك المقابلة الأولى كانت كافية .. ثم خفض صوته قائلاً : ان الذي يطمع فيه قصي يطمع فيه زياد ولا يفصل بينهما الا السيف .

قال : اسألك بتربة ربيعة الا تحدثني بهذا ؛ فقلبي اضعف من ان يحمل عاطفتين .. والآن أقترح عليك اقتراحاً ، ألم تقل ان الفتى الآخر الذي يدعى سناناً يعرف ابن عبادة ؟

– بلى !

– اذن خير لك ان تترك هذا البلد معه وحده ؛ ثم اتبعك بعد قليل مع موسى الابله فلا نلفت الينا انظار الناس .

قال : ألا تؤثر الرجوع على الرحيل ؟

– لا ، ولا ارجع حتى امر باحياء العرب جميعها أو أظفر بعدوي ؛ ولكن هنالك امراً لم اذكره لك ، ألم يكن جبير في مكة يرى الناس كلهم من وراء ثياب المرأة ولا يراه أحد ؟

قال : اتراه يفعل في تهامة ما كان يفعله في الحجاز ؟

– هكذا يقوم في ذهني فاحذر النساء !

قال : لولا هذه الكلمة لنسيت ذلك .

ورجعا الى الموضع الذي اختاره يزيد ؛ فمكثوا جميعهم فيه الى الصباح ؛ ثم رحل يزيد وسنان ، على ان يتبعهما في صباح اليوم الثاني موسى وصفوان ..

* * *

نجا يزيد من شؤم موسى ، فوقع فيه صفوان !

وحكاية هذا الشؤم . ان ذلك البعير الأبيض المتمتع بالصحة والعافية ، مات في مساء اليوم الذي سافرا فيه ..

وكان موسى يقول :

ما خلقت إلا لأدفن جسمي في الرمال ، ولا ارفع نظري عن التراب .

وصفوان لا يبالي بقوله ولا يعبأ به .

وقد اضطر الاثنين الى حمل الزاد والماء مسيرة يومين طويلين ، حتى بلغا

حياً كبيراً من احياء مدركة أميره عقيل بن جعدة ، وقد تقدمها يزيد وسنان الى ذلك الحي وهما لا يعلمان اين نزلا .

وكانت بيوت القوم متباعدة والنساء والرجال ينظرون في أمر الماشية الكثيرة التي تأوي الى جوار تلك البيوت .. حتى تحتجب الشمس وراء الافق لتنصرف الرجال الى الجلوس في الساحة الكبرى امام خيمة عقيل ، وتبقى النساء للحلب .

وكان الضيفان قد نزلا في خيمة لا جوانب لها اعدوها لهما بالقرب من بيت الأمير ليحسن اليهما بطعامه الخاص . وتلك هي عادة ذلك الحي في ضيافته ، فلما القيا ما يحملان ، انبطح موسى على بطنه واستقبل الأرض بوجهه لا يرفع رأسه ولا ينظر الى ما حوله !

قال صفوان : ما هذا يا موسى ؟

قال : لا اجسر على النظر الى أحد لئلا يسبق نظري الموت فأكون رسول دمار الى هذا الحي !! فضحك على رغم همه ، وجعل يهزه بسيفه ليجلس معه فلم يفعل ؛ بل لم يتحرك كأنه قطعة جماد !

وكان القمر بدراً يبسط نوره على ذلك البر الهادىء الذي يشبه سطح البحر.

فبينا صفوان يداعب رفيقه لينسى همه أقبل عربي يدعوهما الى الساحة بامر الأمير ؛ فنهض صفوان وهو يومىء الى موسى قائلاً للرسول : لقد أكل كثيراً من التمر حتى صرعته شراهته فهو لا يستطيع النهوض إلا في الصباح . !

قال : عندنا شراب نسقيه .

– دعه فقد يقضي الشراب عليه الآن ، وخرج الاثنان حتى وصلا. فرأى صفوان الأمير قاعداً على الارض ، وسيفه على ركبتيه وهو يصف لقومه شجاعة جده وأبيه في الميادين . وفي الجانب الآخر نار مشبوبة عليها القدور للأضياف .

فقال عقيل : مرحباً بك يا جار الكعبة . ونظر الى عبده قائلاً اين الآخر ؟

– مريض يا مولاي !

فقطب حاجبيه وهو يقول : أفلا يذوق طعامنا ؟

– بلى يا مولاي على ان لا تجعله تمراً فيأكل منه حتى يسقط على الأرض كالزّق المنفوخ !!

قال : طب نفساً فلا تمر عندنا . وانت ايها الفتى الى اين ؟

فقال صفوان : الى آخر حد من حدود تهامة حتى اصل الى البحر ؛ ثم اعود الى مكة ومنها الى نجد .

ونظر الى جانبيه عله يرى ذلك الوجه الذي يبحث عنه .

فقال : سفر طويل لا اظن إلا انه لثأر .

– لا ايها الأمير ولكن نذرت ان اطوف ماشياً في البلاد التي ذكرت ، وانا افعل الان .

– الا تعلم ان العام الكامل لا يكفيك ؟

– اعلم ذلك ولا اهتم له ولكني لم أترك الحجاز حتى تولاني الندم على امر آخر ذهلت عنه ، هو اني لم ادع أحد ابناء قومي ليكون رفيقا لي .

– ومن هو عاشق التمر الذي ذكره الرسول ؟

– هو احد ابناء هذه البلاد يا مولاي . ثم قال : ألا يمر بهذا الحي بعض الحجازيين الذين يبيعون ويشترون ؟

– لقد مرت هذه السنة ونحن لم نر حجازياً . اننا نعرف أهل الحجاز دون ان نسألهم . نعرفهم من لباسهم الذي لا يغيرونه . وقد عرفناك انت انك منهم ولم نسألك . واعلم ايها الفتى ، انه لا ينزل في حينا غريب الا ونعرف من هو .

والتفت الى رجاله وهو يقول : اين نزل الغريبان اللذان اقبلا علينا امس ؟

فأومأوا الى خيمة منفردة تقوم شمالي الساحة قائلين : هذا بيتها .

قال : واحد من الشام والآخر من تهامة نزلا علينا امس واكبرهما حلو الحديث فصيح اللسان .

فأيقن انهما يزيد وسنان ، فقال :

اذا اراد الامير فليجعلنا جميعنا في بيت واحد لان الغرباء يأنس بعضهم بالبعض لآخر .

– لقد فعلت . خذوا الشامي ورفيقه الى الخيمة الاخرى واحملوا لهم الطعام .. وماذا تطلب غير ذلك ؟

فعمد الى البحث معه الى النهاية ؛ ولكن من وراء الستار فقال : أينتمي حيّ الأمير كله الى بني مدركة ؟

– اجل، فكلنا من فرع واحد وليس بيننا نسب غريب .

– ولكني سمعت انكم حلفاء بطون اخرى تمشي تحت رايتك .

– لقد كذب الذي قال هذا .. يجيء ضيفنا ، ولو كان حياً كاملاً ، فيقيم بيننا ثلاثة ايام ثم ينصرف ..

– وما هو حال اللاجئين اليك من العرب ؟

أتعني الذين يدخلون في جواري ؟

– نعم !

– اولئك نفر قلائل ليس لهم شأن في الحيّ .

– أظن أن جموعهم تفد اليك في كل عام .

– اجل فيبقى البعض ويرحل البعض الآخر، وقد يطيب العيش لاحدهم فيقيم بيننا الى الابد .

قالوا : مررت ببني بجيلة فرأيت عندهم جيشاً جراراً من الجيران ، فيه النساء والغلمان .

قال : اخطأت ، فليسوا جيراناً لهم كما تظن ؛ انهم يمرون بديارهم كما يمرّ جميع الناس .

وقهقه ضاحكاً ثم قال : الحيّ لا يلجأ الى الحيّ ، بل الى القبيلة لتحميه من عدوّ له . عندنا اثنان لا ثالث لهما يقيمان في جوارنا هما رجل نجدي وزوجته ؛

فارتجفت شفتا صفوان وجعل قلبه يخفق مضطرباً .. ألا يجوز ان يكون هذان النجديان جبيراً ومولاه ؟. وهل يسأل الامير عن صفتهما فيثير ظنونه ام يعمد الى الصبر حتى ينقضي الليل فينظر في وضح النهار، في أمر هذين الغريبين؟

ولكن الحظ قد يخونه غداً ، وقد يستفيق من نومه في الصباح فلا يجد لهما في الحي أثراً !

فقال : لقد بعد صيت الامير حتى بلغ نجداً فأقبلت عليه منها الوفود .

قال : هذا رجل خائف لم يجره احد في بلاده كرامة للقتيل الذي قتله وخوفاً من قومه .

– انه اذاً من اشقى الناس .

– ولكنه رأى في تهامة من يجيره فهو عندنا منذ بضعة شهور

فقال وقد زاد اضطرابه : أليس له أهل يا مولاي ؟

– كان له عشرة اولاد حصدتهم حروب نجد واليمن .

– ممن هو ؟

– من ربيعة وقد قتل امير قومه .

قال : هب أن القوم في نجد عرفوا مقره وطلبوه .

قال : يفنى حيناً جميعه قبل ان تصل اليه يد عدوه . ان بني مدركة لا يضيعون حرمة الجار .

– وهل يقضي العمر كله في تهامة ؟

– هكذا يقول وقد اعطيناه بعض النوق يستعين بها على أمره . انظر الى هذه النار انه وراءها في الخيمة الصغيرة مع زوجته .

فقال في نفسه : يظهر انه يخرج كل يوم الى المراعي فلا أراه في الصباح .

وكأن الامير أحس شيئاً ، فخفض صوته قائلاً : لقد سألنا ضيفنا الشامي عن اضيافنا كما تسأل انت كأنك معه على عهد !

وسكت قليلاً ثم اراد ان يختبر ، فقال لغلامه :

عليّ بعامر النجدي .

فأحضروه ، وكان كهلا ذا لحية طويلة لمعت فيها الشعرات البيض . فقال له: لقد سألنا هذا الغريب عنك فدعوناك .

فالتفت الى صفوان والذعر في عينيه ..

فقال الامير : ماذا رأيت ؟ اتعرف الرجل ؟

فجعل يتفرس فيه ثم قال : ما وقع نظري عليه قبل الآن .

قال : أحجازي هو ام نجدي ؟

– يدل ظاهره على انه من الحجاز ..

قال : اجلس بالقرب منه لعلك تقرأ ملامحه . ففعل وصفوان هادىء لا يطرف له جفن .

فثبت للامير وهو يحدق اليهما ان الواحد منهما لا يعرف الآخر ؛

فاضمحلت ظنونه وقال لغلامه: قم فارجع فلم يبقَ لنا حاجة اليك . ولكن صفوان المضطرب لم يطمئن. اجل ان الرجل لم يكن عدوان اليمني كما خطر له . وليس في قامته ووجهه مظهر واحد من مظاهره . غير ان الزمان علمه التأني والصبر في اختبار ما يراه . أليس له ان يظن ان عدوان دهمه الموت او ترك سيده ، فاختار هذا السيد رجلاً آخر يخدمه ويماشيه في هواه ؟ ومن يستطيع ان يثبت له ان زوجة ذلك النجدي لم تكن جبيراً نفسه بعنقه القصير ، وجسمه الممتلىء ، وعينيه الصغيرتين ؟؟ انه اذا لا يترك حيّ عقيل بن جعدة الا بعد ان يرى وجه المرأة كما يرى وجوه الرجال .

وقد تكون تلك المرأة سافرة فينقضي الامر في لحظة ، واما اذا كانت محجبة فلا يبقى امامه غير وسيلة واحدة لا يلجأ اليها ، في مثل هذه المواقف الا المجانين ...

وقد مهّد له الحظ سبيل التفكير ؛ فان الامير صرف عنه وجهه ؛ وجعل يحدث قومه بالشؤون الخاصة التي لا تعنيه .

وما لبث عقيل حتى أمره بالانصراف ؛ فرجع الى البيت الذي اعده له ، فراى سناناً ويزيد .

* * *

دارت بين الثلاثة احاديث كثيرة في ذلك الليل .. اما موسى فكان اخرس اصمّ لا يبالي بما يقولون . كأن ذلك الشؤم الذي ينغص عليه عيشه ، لا يترك

فسمعوا عندئذ صوت موسى كأنه خارج من بطن الأرض ، وكان يقول : ان الشؤم يملي على صفوان هذا الرأي ..

فاجابه صفوان قائلاً : كما يملي عليك الجوع هـــذا الكلام . قم فاملأ جوفك الفارغ قبل ان تستسلم الى الاحلام .

قال : انصح لك بان تعدل عن رأيك فللقوم عادات لا يصلح ان تتعرض لها.

- انك لا تعلم يا موسى ما تقول .

- بل أعلم ! فوقوفك وراء خيمةاليمني انتهاكٌ للحرمة وخروج عن الصواب

قال : أيستطيع عقيل ان يمنع الناس من المرور وراء خيمة جاره ؟

- ان الذي يمرّ لا يفعل كما يفعل اللصوص .

- قلت لك انه هذيان الجائع .

- وانا قلت انك ستفضح نفسك .. !

فضحك ، ثم جعل يهامس يزيد ، وبعد قليل ، استولى على الثلاثة النعاس ، وساد السكوت .

* * *

عندما خرج الرعاة عند الفجر ، كان صفوان في الموضع الذي وصفه امس ، ولقد هزأ بانذار الفتى الأبله . ولم يلبث حتى رأى عامراً يخرج من مضربه وفي يده عصاه ، ويمشي الى مربض النوق . ويزيد لم يحضر . فقـــد تعلق به موسى وهدده بالصياح حتى يستيقظ كل من في الحي ، اذا هو خطا خطوة واحدة الى الخارج !

وبعد قليل خرجت المرأة وفي يدها جراب ، وجعلت تنقل قدميها مترددة متثاقلة ، كأنها نسيت في بيتها شيئاً . ولكن صفوان كاد يسقط على الارض من هول ما رأى !! رأى عنقاً قصيرة يغطيها الحجاب .!! وجسماً ممتلئـــاً يمشي بكلكله .! ولم يرَ تينك العينين الصغيرتين.! فخيّل اليه ان جبيراً في قبضة يده.

هذا هو جبير بدون زيادة ولا نقصان .

وجعل يمر يده على قبضة سيفه وجسمه يهتز كأن الارض ترقص تحته .

ولم يعد قادراً عـلى التفكير ، فكرٌ يروح وفكر يجيء وهو يضطرب ... كالعاصفة الهوجاء تعمي البصائر وتضعضع الحواس .

يقتحم ذلك المضرب الهادىء ، فيضرب عنقه . ! ثم يخفي الرأس تحت عباءة ويرجع الى خيمته .. ولكن الدم الحار يسفح على الرمل فيدل عليه .. بل يصبر حتى يخرج من جديد ؛ فيضرب ضربته ثم يحفر للجثة فيدفنهـــا . ثم يجن الليل فيأخذ رأسها ويتوارى في الظلام ..

ولكن الحي في الليل يغص بسكانه .. بـل يتبع أثره الى المرعى ، ويستعين بالحيلة على بلوغ غايته ؛ حتى اذا ثبت له أنــه جبير يعمد الى البراز حتى يقتله ! ثم يقص على الامير حكايته طالباً اليه ان يصفح عن ذنبه ؟!.

ولكن الامير لا ينسى دم جاره ولو كان أذل العرب .. فماذا يصنع اذاً ؟؟ انه يجيء مع يزيد وسنان وموسى الى خيمته ، في الهزيـع الأخير من الليل ، فيضربونه ويضربون ذلك النجدي حتى يموتا ، ثم يحملون ذلك المهر الثمين في جراب الزاد ، ويرحلون عن تلك الارض الى الابد .

ولم يصل صفوان الى ذلك الحد من تفكيره ، حتى اهتز مرة ثانية وارتجفت ركبتاه ؛ ذلك لأنه رأى جبيراً لا يبعد عنه اكثر من عشر خطوات، وهو ينظر اليه .. فاحمرت عيناه وهاج كما يهيج المجنون لا يبصر مـــا حوله ، ونسي الدهاء والصبر بل نسي كل شيء .. ثم وثب فتصدى له قائلاً :

جبير بن عبادة . ! ارفع هذا الحجاب عن وجهك واعمد الى سيفك اذا كان معك سيف !! فـتراجع الآخر الى الوراء وتمتم يقول بصوت نسائي عذب : ألا ترى ايها الفتى اني امرأة ؟

فلم يسمع .. بل وضع يده على سيفه وقال :

لا تتردد في امرك . انك ان لم ترفع هذا الحجاب تموت كما يموت الجبان .

فصاحت المرأة بصوت عال سمعه القوم : يا بني مدركة . ! أغيثوا جيرانكم !

فضيـع صفوان الرشد .. ومد يده اليسرى فانتزع الحجاب وهم بأن يهوي له بالسيف ، فرأى وجهاً جميلاً فتان المحاسن يحمله ذلك العنق القصير ،

فسقط السيف من يده ، ثم غطى وجهه بيديه وهو يقول :
ويلي فقد كنت مجنوناً .!!
كذلك فعلت المرأة .. سترت وجهها بيديها ورجعت الى خيمتها وهي لا تكف عن الصياح .
وكان القوم قد ملأوا الساحة . واقبلت النساء على مضرب الجارة يسألنها عما حدث لها في ذلك الصباح .
ثم وصل عقيل بن جعدة .. الامير العربي الشديد المراس . الحامي قومه .. والباذل نفسه لجيرانه وهو لا يعلم ماذا جرى .
وعينا صفوان تنظران الى الارض وقد اصيب بالذهول ..
ويزيد وسنان مع القوم . كأنهما لا يعرفانه .
اما موسى فكان يتمرغ في التراب ، نادباً سوء حظه .
فقال الامير : ماذا فعل جارنا ؟ فوضعت المرأة على وجهها حجاباً جديداً ، وخرجت تقول : لقد استخفوا بك وانتهكوا حرمتك يا مولانا .
قال : ويلك أعيدي ما تقولين .
فأومأت الى الفتى وهي تشهق بالبكاء .
قال : هذا الحجازي ؟
- نعم وقد تصدى لي وانا اتبع عامراً الى المرعى !
فتميز عقيل غيظاً ومشى اليه .. فأبصر السيف عند قدميه ، فقال لها :
وهذا السيف ؟
قالت : استعان به على نزع حجابي .
وأي شريف عربي ، يتصدى لنساء العرب ، في تلك الصورة التي وصفتها المرأة ؟؟!!.
أيستهان بالاعراض في حي آهل باصحابه وأميره من أعز الناس ؟ وهل يبلغ الاستخفاف بغريب ، الى حد انه يخرج للنساء عند بزوغ الفجر مستعيناً بسيفه على نيل غايته ؟؟ انها جريمة لا تذكر معها جرائم القتل مهما تختلف انواعه .

انه الشرف .. يلوثه صفوان الحجازي . ويدوسه بقدميه !!

فقال عقيل : ارفع رأسك ايها الفتى .. وصوته يرتجف من شدة الغضب ..

فرفع صفوان رأسه فاذا وجهه يشبه وجوه الاموات .

فقال : ألا يهون عليك ايها الضيف ان تحجب نساؤنا وجوههن ؟

قال : لقد أخطأت المرأة فيما ذكرته لك ..

فرمت بحجابها الممزق قائلة : هذا يشهد !

قال : ألم تتصد لها ؟

– بلى !

– وسألتها ان تسفر لك ؟

– نعم ..

– فكيف تقول اذن أنها اخطأت فيما ذكرته لي ؟

فسكت ، وهو ينظر الى يزيد وسنان ..

فقال : أصف لك الآن ما تخفيه . لقد طلبت الى هـذه المرأة ان تظهر لك وجهها فلم تفعل ؛ فهددتهـا بالسيف . ثم رأيت اصرارها على الرفض ؛ فمزقت حجابها بيدك اليس كذلك ؟ قل الآن ..

فلم يقل شيئاً .

فأشار الى الخيمة قائلاً : لقد عرفت امس انها خيمة جـــارنا مع زوجته ؛ فجئت الآن لترى تلك الزوجة كأنك شاعر يريد ان يصف الجمال . !

ثم ذكر اهتمام صفوان امس ، بالسؤال عن اضيــافه وجيرانه فقامت الريبة والشك في نفسه ..

وتحير في الامرين . أيكون صفوان من نجد وقد اقبل يطلب عامراً ، ام هو حجازي كما قال وقد فضح ادبه وأخلاقه في ذلك المظهر الغريب الذي ظهر به ،

وكاد يتناول السيف ويضربه به لولا عزة نفس تحمله عـــلى احترام ضيفه ، وتمنعه من الاستسلام الى العاطفة المجردة التي لا تقترن بالدرس والصبر .

فأخفى غضبه وقال : نسألك فلا تجيب كأنك لا تسمع .. ان هذا السكوت

لا ينفعك فانظر في امرك قبل ان تتعجل فيه .

قال : لقد نظرت وسأقول كل شيء .

– افعل الآن !

– بل اذهب الى مضرب الامير اذا شاء فاعترف له ..

فقال لرجاله : قيدوا يديه واذهبوا معه ..

ثم قال للمرأة : اما انت فاتبعيني وكفي عن البكاء .

واخذ بيده يد ولده الصغير وعاد الى مجلسه .

مد صفوان يديه فقيدوهما وهو يبتسم .

ثم نظر الى يزيد وأومأ اليه بحاجبيه ان لا يقول كلمة اذا سألوه .. ومشى بين الرجال وهو لا يبالي، فقد رأى ان يبوح لعقيل بالسر الذي ترك مكة لأجله، فيزول مـا علق بذهنه من الشكوك والظنون . وتبعه سنـان ويزيد مع الذين تبعوه ...

ولو ابصر احدهما موسى في تلك الساعة ، لأبصر دموعه تبل ثيابه ولسمعه يقول : ان شؤمي سيقذف بهذا الفتى الى الهاوية .

وكان الامير قد جلس وجلس قومه ..

فقال : ابدأ الآن ايها الحجازي !

قال : مر رجالك بان ينصرفوا لأقص عليك ما اعلم .

- أتحمل في صدرك اسراراً لا تبوح بها الا لنا ؟

- نعم !

- ادخل . وقال لقومه : اما انتم فانصرفوا ، فلما اصبحا داخل السرادق ، قال صفوان :

ماذا تظن بي ايها الامير ؟

- أتسألني عمـا اظن بك وقد رأيتك في موقف تخجل منه انذال العرب ؟ أتعلم ان المرأة زوجة جاري وتنتزع حجابها على مرأى ومسمع من اهـل الحي ولا تبالي ؟!

فاجابه هادئاً: لقد حسبتها رجلاً خرجت من الحجاز في طلبه ولم اعثر عليه،
– وهل تغطي الرجال وجوهها في الحجاز ؟
– ان الرجل الذي اطلبه يفعل ما ذكرت .
واخـــذ يصف جبيراً ويروي له الروايات عنه وهو يصغي اليه والريبة في عينيه ..
فلما انتهى قال : من يثبت لي الان انك صادق في قولك ؟
فلمعت عيناه وهو يقول : انا من اشراف كنانة .
– نسب معروف ولكنه لا يكفي .
– وابن الحارث بن شجنة سيد قومه .
قال : لا اعرف احداً من كنانة غير زهرة بن كلاب .
– انه ابن عمي !
قال : هات من يشهد لك ؟
قال : ان واحداً من ضيفيك اللذين نزلا عليك قبلنا يعرف من انا فمر غلمانك بان يحضروه .
– أهو رفيقك ؟
– اجل وقد كتمتك خبره حفظاً للسر الذي حدثتك به .
– وما اسمه ؟
– يزيد بن ربيعة وهو يطلب ابن عبادة مثلي لأن اباه قتل اباه ..
قال : يظهر ان للعرب جميعها ثأراً على الرجل .
– هو ذاك فالبلد الذي ينزل فيه تنزل فيه الخيانة والغدر .
قـال : لنفرض انك لم تكذب فمن قـال لك ان امـير هذا الحي لا يغضب لكرامته ؟
قال : انها ساعة ارجو ان لا تسألني عنها ايها الامير .
– أتعترف بذنبك ؟
– اعترف به وأسألك الغفران ؛ فحرمة الجار أعرفها ؛ ولكني لم استطع ان

أهلكت نفسي كما رأيت ؛

فنهض قائلاً : سنرى ! وبعث غـلامه يدعو يزيد بن ربيعة ، وكان يزيد في الساحة ؛ فما لبث حتى دخل عليه ، ففاجأه بقوله :

قل ولا تتردد ، من هو هذا الفتى ؟

فنظر الى صفوان يخاطبه بعينيه ؛ فقال : اعترف يا يزيد بكل شيء .

فقال : هو صفوان بن الحارث من سادة الشعاب .

- أتعرف زهرة بن كلاب ؟

- وكيف لا أعرفه وانا جار بيته ؟؟

- وأية صلة لصفوان بزهرة ؟

- انه ابن عمه يا مولاي .

فتمتم قائلا : بنو مدركة وبنو كنانة يرجعون الى أصل واحد . ثم قال : أتطالب بدم ؟

- نعم وعدوي جبير بن عبادة ،

فقـــال : كفى فقد صدقت . ولكن الشرف لم يسلم بعد .. انك اسيري يا صفوان بن الحارث ..

قال : وهذا الاسير يطلب الى عقيل بن جعدة امير هـــذا الحي ان يرضى بالفداء ...

قال : لا نستطيـع الوصول الى قومك لنباحثهم في هذا الامر .

اما انا فاقوم مقام قومي ، قل ماذا تريد !

قال : الا تعلم انك تستحق القتل ؟

- بلى ولكنك لا تقدم عليه ايها الامير ..

قال : يكفي ان تعلم هـــذا لنعين فداءك .. نريد مئة دينار وخمسين ناقة وهذا فداء الامراء .

قال : اما الدنانير فاعطيكها الآن . واما النوق فتاخذها يوم تحج البيت في العام المقبل .

– أتحمل في جرابك مئة دينار ؟
– احمل ما يكفيني ويكفي رفاقي العام كله .
– بقي ان تجد من يضمن لي النوق ، عندما احج .
– اذن تخاف ان ينقض صفوان بن الحارث عهده ... !
– لا . ولكن هكذا تفعل العرب مع الاسرى ..
قال : الا ترى اني لا اجد في هذا الحي من يعرفني ؟
قال : يعرفك المال الذي تحمله .. اعطني مئة دينـــار اخرى فاترك النوق وينتهي الامر ..
– وان لم افعل ؟
– تبقى هنا الى ان يتم الفداء .
قال : لا استطيع ايها الأمير ان اعطيك ما طلبت لسببين : احدهما اني لا اطوف في بلاد العرب بدون مال ، ولا اطيق ان يقوم في العرب كلها من يشك في وفائي .
– اذن !
– اذن سأبقى في الأسر حتى يطلبني قومي ،
فنهض قائلاً : لقد رضيت ولولا حرمة الجار التي تقدسها العرب لمـا اخذت منك شيئاً . وفكه وهو يقول : انك حرّ !
فأعطاه ما طلب وخرج الثلاثة . فصاحت المرأة قائلة : عرضي ايها الأمير .
وكان صفوان قد سأله كتمان أمره ، فقال : ان جارنا لا يمس له عرض .
– ولكنه نزع حجابي يا مولاي ؟
– ان له عدواً يلبس ثوب المرأة ويخفي وجهه تحت حجاب .. !
فولولت واستجارت بالقوم .
فارتفعت اصواتهم قائلين : لقد فضحنا هذا الرجل بين العرب وثمن هـــذه الفضيحة دمه .
– قلت لكم انه كان مخطئاً ولم يفضح احداً .

- بل استخف بنا واستباح شرفنا .

قال : كان اسيراً ففدى نفسه .

- لنا حرمة ياMolانا لانبيعها بمال .

فأسكتهم قائلا : وهل تظنون ان اميركم يفعل ذلك ؟

فقالوا : دمه الفداء ولا نقبل غير هذا .

واشتركت نساء الحيّ في الصياح لا يطيب لهنّ إلا ان يسفح دم الحجازي في الساحة .

ولم يكن الأمير قادراً على اخماد ثورتهن . فلما أراد ان يأمر غلمانه بأن يتولوا الأمر عنه ، توسط الساحة فتى في زهرة عمره لا يعرفه احد من القوم وقال للأمير : اظن ان هذا الحجازي الذي يطلبون دمه لم يصف لك موقفه مع هذه المرأة !!

بلى وقد رضينا بما قال .

- ولكن القوم لم يرضوا فاعطني خنجراً أصفه لهم ،

قال : اعطوه .

فلما تناول الخنجر قال يزيد لعقيل : سيقتل نفسه .. غير ان الفتى لم يتردد بل اغمد خنجره في صدره وهو يقول : لقد كنت شؤماً على هذا الرجل فخذوا دمي فداء عنه .

وكان الفتى موسى الذي عرفت ..!!

فذعر الأمير واستولت الدهشة على الناس .

أما يزيد فجعل يقص على الأمير همساً حكاية موسى منذ خرج الى الوجود الى هذه الساعة ، وكان القوم ينظرون الى دم البريء يقذف بـه قلبه وقد طابت نفوسهم وخمدت النار في الصدور ..! وما لبثوا حتى تفرقوا كأنهم يرون ذلك الحادث كل يوم .

فصافح عقيل الفتيين قائلاً لهما :

انصرفا الآن فأنا لا أضمن قومي وسأذهب معكما حتى تجاوزا الحي ،

فقال صفوان : وهذا المسكين الذي قتل نفسه لأنجو من الأسر ؟

قال : خير له ان يموت من ان يعيش العمر كله رسولاً يحمل الموت للآخرين .

ومضى سنان فحمل اشياءهم ورافقهم عقيل الى اطراف الحي وهو يقول لهم: الى اللقاء في مكة .

فاجابه صفوان قائلاً : ستجد خمسين ناقة مع نوق زهرة بن كلاب يرعاها الراعي لك ..

وسلكوا الطريق الذي دلهم عليه ووقف يشيعهم بنظره حتى تواروا ، فرجع الى خيمته وهو يعدّ الدنانير .

*

مرت عشرة اشهر على الرفاق الثلاثة ، وهم يتنقلون من بلد الى آخر ولايرون لابن عبادة ظلاً . حتى كاد ينفد مالهم وتضيع حياتهم . فرجعوا الى الحجاز ، والغرم الذي لا يرافقه أمل ، يملأ صدر صفوان العاشق المنكود الحظ .

وهو يتردد في الذهاب الى قصر زياد خوفاً من ان تنظر اليه ليلى نظرة لوم ويهزأ به الاميران، لكن الهوى يحني كل ر س ويذل كل نفس ، ولم يكن صفوان حجراً ليطول تردّده ويغلب عاطفته .

وكانت ليلى ، في الشهور العشرة ، تحلم بـه ، وتناجي طيفه ؛ وتستلذ تلك الاحلام التي يخلقها الحب .

ثم يغمرها اليأس فتستسلم للبكاء ، وتفكر في ذلك الحبيب الحامل روحه بيده في صحاري العرب ، طالباً «الافعى» ليجعله مهراً لها . ولم تكن تعلم أمات أم هو حيّ بل لم تكن تجروء على الشكوى وارسال الزفرات . ان الفتاة مثل ليلى وان ذكرت لأبيها غرامها ، تخجل من ان تصف له لواعج ذلك الغرام ؛ وليس في مكة كلها ، على كثرة ما فيها من بنات الامراء والنبلاء ، فتاة واحدة رأتها ليلى اهلاً لحفظ سرها إلا حبى ابنة حليل ، غير ان ابنة حليل ، اصبحت زوجة لقصي ، ولم تبق لها ، مع قيد الزواج حرية الرواح والمجيء ساعة تشاء . لاسيا وزوجها أمير قومه ، لا يخطو أحدهم خطوة واحدة بدون اذنه ، وهي لا تريد

ان تزورها في الشعاب ، لأن أباها ، كما عرفت ، يكره قصياً كما يكره الموت ..
فلما أعيتها الحيلة ، عمدت الى الغلام طلحة ، تشكو له أمرها وتستعين برأيه على
حمل البلوى ؛ وكان الغلام شعلة ذكاء ، وهو يحب سيدته حباً كثيراً يملك
احساسه وشعوره ، ويحترم كآبتها المطبوعة على ذلك الجبين الوضاح .

وليس غريباً ان تبوح له بما في الصدر ، فالغلمان كانوا ولم يزالوا ، في قصور
الملوك والامراء مستودعاً للاسرار . فلما شكت اليه همها ، رأت صدراً رحباً
يحمل شيئاً من ذلك الهمّ ، واحست ان ذلك الفتى الطاهر الخلق ، يجود بدمه
في سبيل ذلك الحب الذي اعترفت به .

وهنالك شيء آخر رأته ليلى ! رأت ان طلحة كان يعرف حكايتها قبل ان
تقصها عليه ، فقالت له : أتعرف يا طلحة حكاية حبي من قبل ؟

فحنى رأسه قائلاً : نعم يا مولاتي ، سمعت بعضها ورأيت البعض الآخر !

– وكيف ذلك ؟

– سمعت الاميرين يتحدثان بالأمــــر ، ثم رأيتك ورأيت صفوان فبدت لي
صورة الهوى كما تصفينها الآن .

– ولماذا كتمتني ما علمت ؟

– لأني لم اجسر على ذلك ، والعبد لا يذكر الغرام إلا اذا حدثوه به .

فتنهدت قائلة : لقد وجد جبير بن عبادة في مكة لينغصّ عليّ عيشي .

– ووجد طلحة بن الأسود ليعيد إليك صفو هذا العيش .

– انت ؟؟

– نعم يا مولاتي اني صغير السن ولكن لي عزيمة الرجال .

– وماذا تستطيع ان تفعل وانت في هذا القصر لا تخرج منه الا الى السوق
ام تعود ؟

قال : ليس لي ان اقول الآن شيئاً .

– بل تقول !

– ولكن لا اعلم ماذا اقول قبل ان يعود صفوان .

– اخشى ان يعود وهو يتعثر بخيبته .
– ذلك خير من ان ينقضي العام كله وهو بعيد عن مكة .
فمسحت دمعة جرت على خدها وهي تقول : نعم ، ولكنه لا يلبث حتى يرحل مرة اخرى فيغيب عامين .
قال : ليرجع الآن ثم يجيء دوري في الرحيل فأعرف مقر القاتل ، ولو كان في جوف الارض .
قالت : اذا عجز صفوان والرجلان اللذان ارسلهما أبي فانت لا تقدر على ما عجزوا عنه .
– اولئك لا يشعر بهم الرجل حتى يستخفي ، اما انا فغلام فقير يبحث بين احياء العرب عن خبزه فلا يعبأ بي .
– ومن يعلم اذا كان ابي يأذن لك في المسير .
– سأجثو على ركبتي امام قدميه واستحلفه برأس مولا بي زياد ألا يرد لي طلباً .
– اما ا فسأفعل غير ذلك ، سأجثو كما تجثو انت ، واستحلفه بالهة الكعبة ان يترك الثأر فأنا لا ارغب في الزواج .
– اذا فعلت هذا خسرت صفوان .
– أوثر ان يتزوج غيري واراه ، على ان يقتل في بلاد العرب واخسره الى الابد .. نعم .. لقد نسيت الزواج الآن ، ولا اطلب إلا ان يرجع الحبيب الى بلده ويعيش بين قومه .
واسودت الدنيا في عينيها وكادت تسقط على الارض .
فقال : لقد رأيت يا مولاتي رأياً آخر ،
فتمتمت قائلة : لقد قال ابي كلمته فلا تنفع الآراء .
قال : سأقول لمولاي : اجعل دم عبدالله في عنقي حتى اثأر به ، واسق تربته بدمي ان لم افعل .
– ولكنه لا يرضى ان يسقيها الا بدم جبير .

– بل يرضى وسأستعين برأي مولاي الآخر .

قالت : أتظن ان امير صوفة يطلب كل يوم مهراً جديداً ؟

– انه لا يطلب مهراً يا مولاتي بل يضع شروطاً لغاية له .. والآن فقد مضى على رحيل صفوان تسعة اشهر ولا بدّ من ان يعود في هذين اليومين .

قالت : ما رأيت دليلا على ذلك !

– بلى ، فالفتى العاشق الذي يحن الى مكة يطوف حول الجزيرة كلها في مثل هذا الزمان ، ثم يعود على اجنحة الشوق .

وبينا هما يتحدثان ، أقبل زياد وهو يقول : لقد رجع عبداللات وعمر ، ولم يظفرا بقاتل عبدالله .

فاجابه طلحة قائلاً : وسيرجع صفوان ويزيد كما رجع هذا الرجلان . ان جبيراً يختبىء بين السحب .

قال : لقد استطاع ان يقتل واستطاع ان يفرّ . فلنصبر ، إن في الصبر فرجاً أجل يا ليلى ! ان في الصبر فرجاً .

وضمها الى صدره وطبع على جبينها قبلة الوالد البار ؛ فنهضت وهي تقول في نفسها : سأصبر وحسبي ان يكون صفوان في مكة !!

* * *

– ١١ –

عندمـــا ترك صفوان الشعاب يريد تهامة ، لم يقل لقصي ان غيبته ستطول ، بل لم يقل ان تلك الغيبة مظهر بليـغ من مظاهر الغرام .

ان القوم الذين يقيمون بالشعاب خلقوا جميعهم تجـــاراً ، وصفوان منهم ، فليس غريباً ان يترك مكة لى الاقاليم يحمل منها ما يحتاج اليه .

على ان قصياً ، لم يخطر لـه في ذلك الحين ، ان صفوان خرج تاجراً ، ذلك لأن التاجر كما عرفت لا يخرج وحده ولأن العدة التي اعدها الفتى لم تكن تشبه في شيء عدة قومه إذا خرجوا في سفر ، ولم يكن لها لون تجاري ،

إنه يريد بعض احياء العرب لقضاء حاجة له ، ثم يعود الى الشعاب بعد بضعة ايام .

هذا ما قاله لقصي قبل سفره ، وهذا ما حدّث بـه ابناء قومه ، الذين يسألون عنه . وعلى أمل ان يكون صفوان في الشعاب بعد ايام ، رحل الرجال الثمانية الى العراق كما قرأت . وانت تراهم اليوم في مكة ، وقد عادوا اليها منذ شهور وصفوان لم يرجع . فعجب قصي لغيبته ، واقبل يسأل الناس ولا يسمع جواباً ، حتى حلّ زهرة بن كلاب ذلك اللغز فقال : لقد رافق يزيد بن ربيعة في طوافه باحثاً معه عن قاتل ابيه .

وجعلت الايام تمرّ وصفوان غائب ، ولم يقم في ذهن احدهم انــه العاشق المفتون الذي يكاد يبرح به هواه .

من اين لهم ان يعلموا حكاية ذلك العشق ، وليس بينهم احد يزور امير صوفة في قصره ، وصفوان لم يحدث بأمر ذلك الغرام غير نفسه .

اجل . لقد حفظ حبه في صدره . ولم يبح به إلا ليزيد ، في ارض عقيل بن جعدة .! اتعلم لماذا اخفى غرامه ، ?? ان هنالــك سببين اثنين . عزة نفسه ، ورغبته في سلوك الطريق الذي سلكه قصي من قبله ، ومعنى ذلــك ، انه كان يخشى ان يتظاهر بحبه ، ثم يبخل عليه زياد بليلى ؛ فيتحدث الناس بهذا الفشل الذي يجرح نفسه العالية ؛ وان قصياً عندما مس الهوى فؤاده استعان بالكتمان؛ فلم يعلم احد انه عاشق ، إلا عندما شاور قومه في قضية الزواج .

ثم كثرت الظنون حول غياب صفوان ، هــذا يقول انه يبحث عن كرائم الخيل والآخر يقول : لقد بلغه ان في الصين قوماً من الصعاليك الفقراء فملأ جرابه مالاً وحمله اليهم . ولم ينسوا ان يذكروا تلك العمامة الخضراء التي يغطي بها وجهه في الحجاز .!

حتى استولى الهم على قصي ؛ فعمد الى إرسال الرسل يبحثون عنه .
ولكنه عندما هم بأن يفعل ، دخل عليه عبده قائلاً له :

لقد جاء صفوان .

فنهض عن مقعده . وخرج للقائه وهو فاتح ذراعيه .

* * *

لقد اراد سنان ان يطلق تهامة الى الابـد ، ويقيم بالحجاز مع يزيد وصفوان اللذين احاطاه ، في تلك الرحلة بالعناية والفضل .

وكان التعب قـد أثرّ فيهم ، ونهكهم المشي والسير ؛ فناموا بعد وصولهم الى الشعاب يومين كاملين لا يأكلون فيها ولا يشربون . فلما كان اليوم الثالث دعاهم قصي اليه ، وجعلوا يتحادثون ؛ وقد اراد صفوان ان يفتح لسيد الشعاب قلبه ، ليقرأ فيه تلك الصفحات المكتوبة بسطور اليأس والشقاء . انـه لا يحب ان يقتله الهوى ، قبل ان يعترف به..

ليلى نعيمه وأمله وأمنيته وحياته ؛ فاذا بخل بها ابوها فهذا هو الموت !!

ولكنه لم يشأ ان يذكر شيئاً وسنان حاضر ؛ فصبر ريثما يراه قصي ، ثم ينصرف بعد ذلك . ؛ على ان قصياً بدأ حديثه بالسوأل عن تلك الرحلة : ألم تجد الرأ لصاحبك يا ابن ربيعة ؟

– لا يا مولاي ! فكانه يقيم بين طوائف الجن التي لا ترى .

– وفي اي بلد طلبتموه ؟

– في تهامة ونجد وفي الارض والفضاء .

قال : اتخرج يا صفوان في طلب الرجل الذي يطلبه يزيد ولا تقول لنا كلمة؟

– وماذا اقول وانا اعلم انك ستمنعني ؟

قال : ان في سفرك مروءة ونحن نريدان نساعد يزيداً في امره ليبلغ غايته .

– ليس هنالك مروءة يا مولاي فعدو يزيد عدوي وانا اطلبه كما يطلبه ، ألم اقل لك شيئاً من هذا يوم كنا في يثرب ؟

– بلى ، ولكنك لم تذكر لي اسباب هذا العداء .

– كنت اظن من قبل اني استطيع ان اكتمك اياها الى النهاية .

– والان ؟

– اما الان فلست قادرا على ذلك وقد جئت لاورد لك جميع هذه الاسباب واستشيرك في الامر .

– ولماذا اردت كتمانها ؟

– لانها تتعلق بي وحدي يا مولاي .

– ولكنها رحلة خطرة قد لا تسلم في مثلها الرؤوس ؛ يقولون ان الذي يبحث منفرداً ، في بلاد العرب ، عن غرض له يبحث عن حتفه .

– اجل ولو لم نصارع الموت مئة مرة بالحيلة والدهاء لما رجعنا الى مكة . والعراق يا مولاي ؟

– اما العراق فأرض خصبة واسعة وأهلها يستظلون في ظل ملك قاس ولكنه عادل . ومن قال لك اننا ذهبنا اليها ؟

– خبروني امس وانا نصف نائم ، وماذا رأيتم فيها ؟

– رأينا الموت فاتحاً ذراعيه ليضمنا اليه .

قال : وكان ذلك في الصحراء على ما أرى .

– بل في بلاط الملك نفسه في ذلك القصر الذي يدعونه الخورنق ، والجالس في عرشه النعمان بن امرىء القيس .

قال : ألا تحدثنا بما جرى ؟

– ستسمع الآن حديثاً ما سمعت اغرب منه . لقد اعدّ لنا الملك النطع والسيف في رواق قصره وهم بأن يفصل هذا الراس عن هذا الجسم ويجعل الاثنين طعاماً لسمك الفرات !!

– اهذا هو العدل الذي ذكرته يا مولاي ؟

– نعم والعدل هو الذي اوحى اليه بهذا !

– وكيف ذلك ؟

كنا مع وفوده ، في الصباح ، موضوع رعايته ، ثم انصرفنا لنرى ما في السوق ونترك الحيرة بعد ذلك . ولكن فاجأنا حاجبه بعد الظهر ودعانا الى المثول بين يدي مولاه ففعلنا ودار الحديث بيننا عن الشام وملوك الشام .

– لقد عرفت ماذا خطر له .

– ماذ

– خطر له ان يسالك عن الملك الغساني الذي دخلت بلاطه .

– بل خطر له ان يسالني عن الاتفاق الذي جرى بيني وبين ذلك الملك الذي ينازعه نفوذه .

فجعل صفوان ويزيد يحدقان اليه وهما لا يعلمان شيئاً .

فقال : لقد استولى عليكما الاستغراب الذي استولى علي عندما وجه الي سؤاله . ولكن اتعلمان ما هو ذلك الاتفاق الذي اشار اليه ،؟ لقد كان واثقاً باني جاسوس الحارس ملك الشام وقد اشتراني بماله وارسلني الى الحيرة احمل اليه ما في بلاطها من اخبار .

– يخيل الي ان عربياً نقل اليه خبر وجودنا في بصرى فكثرت ظنونه وعمد الى الاختبار .

– بل نقلوا اليه اني انا – قصي بن كلاب ، قابلت ذلك الملك وبعته نفسي مع اني لم ار في ذلك الحين ملكا كما تعلمان .

– اذا هنالك نمام حاول ان يوغر صدر النعمان .

– نعم وكان ذلك النمام الكاذب في الرواق وانا في قاعة الملك .

– وهل رأيته يا مولاي ؟

– عرفته ولم اره وكنت ارجو ان يدخل القاعة في تلك الساعة ليسمع النعمان حديث الاثنين .

– كان عليك ان تطلب ذلك .

– لقد طلبت ولكن الواشي كان قد فر .

فأشرق جبين صفوان قائلاً :

وعندئذٍ ظهرت البراءة كما تظهر الشمس من وراء الجبال .

– اجل كما تظهر الشمس وخرجت من الخورنق والملك يعتذر لي . والآن بقي عليك يا صفوان ان تحزر .

– احزر ماذا ؟
– اسم الفاعل الشريف الذي غمرني بفضله .
– اظن انه من اعداء الغسانيين في بصرى .
– لا .
– اذاً هو احد ابناء العراق الذين يختلقون الأخبار لاجل المال .
– بل هو رجل تخلو له الساحة اذا مات قصي ؛ فارتجف قائلاً : من الحجاز ؟؟
– من الحجاز ، بل من جيران البيت . بل من الامراء ..!
فاصفر وجهه ولم يجسر على سؤاله .
ان في مكة اميراً واحداً يريد ان يقضي على قصي ، هو زياد !!
اذاً فقد قضت الاقدار ، من الناحية الاخرى ، على جميع آماله ، ومنعته من التفكير فيمن يحبّ ، وأطرق وهو يعبث بعباءته .
فقال قصي : لو قضيت العمر كله في مثل هذا الاطراق لما عرفت من هو .
فقال في نفسه : لقد عرفته وليتني لم أعش الى هذه الساعة .
ونظر اليه وهو يقول : أواثق انت يا مولاي ؟
– وهل ترى اني اتهم الناس وانا غير واثق ؟؟ ان هذا الامير الساعي ابو ضمرة الخزاعي .
فوضع الفتى يده على فؤاده وقد هدأ اضطرابه ثم قال :
لقد بدأ فتيان خزاعة يكيدون لك كأنهم يعلمون ان دولتهم ستدول في مكة بعد زواجك .
– ولكنها عداوة جاهروني بها قبل ان يروا مني شيئاً .
– تلك هي الحكمة يا مولاي .!
قال : الحكيم من يسعى لنيل غرضه دون ان تتمّ عليه الدلائل ، ومع ذلك فقد كان زياد بن كعب صريحاً فيما ذكره لي وانا لا اعرفه .
– وان رأيت زياداً ؟

– في قصر حاجب البيت يوم رجعت من يثرب .

فذكر صفوان ان سادن الكعبة دعا زياداً اليه ، وهو عنده ، فقال : وماذا جرى في ذلك اليوم ؟

– لقد مدّ اليّ يده وتعاهدنا على العداء .

واخذ يخبرهما كل ما حدث بينهما ثم قال :

اما اليوم فلم يبق الا ان نكون رجالاً ، فيرى بنو خزاعة ان اهل الشعاب ليسوا عبيداً لأحد ، ويعلم ابو ضمرة الكذوب وزياد بن كعب ان عدوهما الجديد لا يطمع فيه .

فعاد قلبه الى الخفقان . ان الذي كان يخشاه قد وقع الآن وأبو ليلى عـــدو لقصي !! فماذا يقول له بعد ذلك ، أيعترف بغرامه ويستشيره في الأمر ، وليـــلى ابنة الرجل الذي يضمر له قصي الشرّ ويحمل له في صدره بغضاً تبـــدو مظاهره في حديثه وفي عينيه ؟!

لا .. انه طيش لا يقدم عليه . ولكنه ان لم يفعل اليوم فعل غداً ، ولا بدّ لقصي من ان يعرف كل شيء ، بعد ان تظهر تلك العداوة وتشتد .

فعوّل على ان يظهر بعض ما يعلم ويخفي البعض الآخر ، اي ان يقصّ عليه ما يعني زياداً ، ويكتمه ما يعنيه ، ثم يعمد الى افشاء سره ، في فرصة اخرى ، اذا انقلب الزمان ، فقال : لم تذكر لي يامولاي كيف عرفت ان الرجـــل ابو ضمرة ؟

– رآه خداش بن عبيد خارجاً من الخورنق فتبعه الى آخر الحيرة وسأله عما يصنع في العراق .

قال : كان يجب ان يتوّلى سيف خداش أمر سؤاله .

– إنه لم يكن يعلم ما دار بيني وبين الملك .

– وماذا صنعتم بعد رجوعكم الى مكة ؟

– لقد طلبوا اليّ ان يتصدوا له امام الكعبة ويتناولوه بالسيوف ، فمنعتهم من ذلك اذ لا احب ان يجرّد سيف من غمده قبل ان تأتي الساعة .

– ولكني سأضربه عندما اراه ، ضربة يهتز لها قومه !

قال : احذر فأنك تفسد عليّ أمري اذا فعلت ،لقد رأيته مرتين عند المطاف وكنت لا اعرفه قبلهما ؛ فنظرت اليه كمن ينظر الى غريب لاشأن له معه وكانت عيناه تقدحان شرراً ، وانا لا ابالي ولا اعبأ بـه وبمن حوله من رجال عشيرته . ولكن الويل لأبي ضمرة من يوم تجول فيه الخيل .اقسم برب الكعبة انهسيكون أول قتيل تشرب دمه ارض مكة ، ثم يتبعه ذلك الأمير الآخر زياد بن كعب .

– قل يا مولاي انك ستقتل من يتصدى لك في الميدان .

قال : ستقع العين في الميدان على هذين الاثنين .

– بل على احدهما لأن زياداً سيعتزل حربك .

فظهرت الدهشة على وجهه قائلاً :

ومن اين لك ان تعلم هذا ؟

– خبرني به أحد غلمان قصره !!

قال : ان الغلمان لايعرفون مثل هذه الاسرار .

– بلى فقد كان زياد يصف لأبيه كيف رآك في قصر حليل ويذكر له الحرب التي ستضرم نارها قبل الجلوس في العرش كأنه يراهـا ، ثم رأيا ان يشهدا تلك الحرب من بعيد .

– ومـا هي علاقتك بذلك الغلام حتى ينقل اليك اخبار مولاه وانت لا تسأله عنها ؟؟

– كان فقيراً قبل ان يجعله الأمير في قصره وكنت احسن اليه ؛

غير ان الخبر ، على رغم قربه من العقل ، لا يصدقه قصي .. وكيف يصدق ان الناس يتحدثون بأمر الحرب وليس للحرب وجود ... ولم يشأ ان يخفي ظنونه ، فقال :

أتخدعني يا صفوان ؟

– وكيف اخدعك وانا أروي لك ما سمعت .

– ومتى كنت تثق بمثل هـذه الأقاويل حتى تنقلها اليّ ؟؟ أتظن اني لا

استطيع ان اتبين صحيح القول من فاسده .

قال : اقسم لك يا مولاي ان زياداً لا يجرّد في وجهك سيفاً ..!

– وهل يخضع لي مختاراً ؟

– لا اعلم !

– ان الذي يعلم الاولى يعلم الثانية .

قال : يكفي ان يقبع في بيته يوم تشتعل النار .

– وعندما تطفأ ؟

– يبقى في ذلك البيت كما كان .

فضحك قائلاً : الا يخضع زياد بن كعب اليوم لسادن الكعبة .

– بلى !

قال : لا تنس ان هذا السادن يدعى حليل بن حبشية .

– اعرف ذلك .

– ولكن هنالك شيئاً آخر لا تعرفه !

– ما هو ؟

قال : أيبقى صاحبك خاضعاً لسادن الكعبة نفسه عندما يصبح اسمه قصي بن كلاب ؟؟

فسكت صفوان .

فقال : لا تسكت فأنت الآن بحاجة الى الكلام !

قال : ما سمعت شيئاً من هذا !

– اذن تسمع في هذه الساعة . ان زياداً يريد أن يصون حياته ويحفظ امارته من مصائب الحرب ؛ فعوّل على الحياد وغايته غاية الجبناء .

ثم اراد ان يستدرج الفتى الى الاقرار من وجه اخر . فقال : ولا يعلم زياد اليوم اي فريق يخرج من الساحة ظافراً لينضم اليه . فماذا يصنع ؟؟ يمنع قومه من ان يخوضوا المجال حتى يرى الكفة الراجحة فيخوضوه . ويمنّ على الظافر بقوله ، لقد بذلت دمي ودماء قومي في ظل رايتك ، فاعطني حقي من السيادة

والسلطان .. ولكن كذب وكذبت ظنونه فالسيف الذي لا يشهره عليّ اشهره عليه ، وسأدعوه ، وهو في عقر داره الى القتال ؛ فأما أن احطم جميع الرؤوس المرتفعة في مكة واملك الحجاز وحدي او أموت !!! هذا ما تستطيع ان تقوله لذلك الأمير المتكبر الجبان الذي يبهر عينيه بريق التاج ولا يجسر ان يخطو خطوة واحدة في سبيل الوصول اليه ·

لقد جاهروا بالعداوة واضمروا لي الشر وانا لا اعرفهم ، ثم عمدوا الى السعاية التي هي سلاح العاجز النذل ليمحوا اسمي من صفحة الوجود ويستبدوا بالناس كما يشاؤون ، ولم يعلموا ان سعايتهم ستنقلب عليهم وان الحفرة التي يحفرونها لي ستكون الهوة التي يسقطون فيها .. !

فكره الفتى ان يبلغ قصي في غضبه ذلك الحدّ الذي تصبح معه حياة ابي ليلى مهددة بالموت ، ولا يقول كلمة ، ان بقاء جبير بن عبادة حياً يبعد ليلى عنه فماذا يفعل اذا قتل سيد كنانة اباها وكان سكوته هو القاضي بذلك القتل ؟؟ اذن يقطع بيده حبل الرجاء الباقي له ويعيش عمره كله حاملاً في صدره ذلك الغرام الطاهر الذي تغلل في اعماق نفسه وفي كل عاطفة من عواطف قلبه .فقال له وغرامه يتكلم :

أرأيت فاتحاً يدخل البيوت الآمنة فيقتل اصحابها ويملأها وحشة ؟؟

قال : ان الرجال تطلب اعداءها ولو كانوا في الغمام .

قال : لقد جعلت الاقدار أبا ضمرة وحده عدواً لك .

– واما الآخر فقد جعلته من الاصدقاء الاوفياء .

– إنس ماضيه يا مولاي ولا تنظر إلا الى حاضره .

– لو استطعت ان أنسى تينك العينين الناريتين اللتين كانت تحرقني نظراتها لفعلت . ذلك مشهد لا تضمحل صورته من الذهن يا صفوان .

قال : ان قصياً يستطيع ان ينسى عندما يشاء ..

– اذن لا اريد ان انسى شيئاً .. بل لا اريد إلا ان اذكر فضله ثم استعين بجميع القوى على احترام ذلك الفضل .

– ولكن الناس يتحدثون بظلمك بعد ساعة .

– بل يتحدثون بعدلي عندما اقابل اعدائي بمثل السلاح الذي فاجأوني به !

وكانت لهجته لهجة رجل لا تلين ارادته ولا يحوله القضاء عن عزمه .

وماذا بقي لصفوان ؟ بقي ان يكون صريحاً فيبوح بسره وينجو زيـــاد .

فقال وهو ينظر الى الارض : أعولت على هذا يا مولاي ؟

– اجل وكلمة واحدة من هذا القول لا تتغير !

– ولكن في قومك رجلا يؤثر حياة زياد على حياته !

– في كنانة ؟؟

– نعم في كنانة ومن اقرب الناس اليك .

قال : ابني عرشي وما ابالي به . !!

فتأججت النار في صدره . ! أيستخف قصي بقومه وهو في فجر حياتـــه الجديدة ولا يعبأ بما يطلبون إليه ؟

وكأن قصياً عرف افكاره ، فقال : إن عدوي عدو أهل الشعاب لا أستثني منهم أحداً .

قال : ألم نتعاهد على الوفاء بعد قدومك من الشام ؟

– بلى !

– وهل تحوّل عني وجهك عندما أسألك قضاء حاجه لي ؟

– انت ؟

– نعم وذلك الرجل الذي يفدي بدمه امير صوفة هو انا !

فاستوى في مجلسه قائلا : انها نغمة جديدة اسمعها منك الآن ،، مـا شأنك معه ؟

قال : لقد انقذت حياته من سيف جبير بن عبادة فلا اطيق ان يموت مـن سيف أعز الناس عليّ !

– وهل تحطّ نفسك الى حد ان تحرس الأمراء المستبدين وتساعدهم على كل ما في الحجاز ؟

قال : هذا ما كتب لي يا مولاي فلا تزد .

قال : بل أزيد لألمس بيدي هذا الوفاء الغريب وأرى اذا كان هنالك غير الوفاء .. فقل الآن أليس في القضية غير ذلك ??

فحجب وجهه بكفيه قائلاً : بلى ، فيها تضطرم في فؤادي ناره.. ني اعشق ليلى ابنة زياد يا مولاي ..

فابتسم قصي ولم يستغرب .. كأنه كان واثقاً بأن ذلك الشعاع الذي يلمع في عينيه لم يكن غير شعاع الغرام .. لكنه لم يكن يعرف ليلى ، بل لم يكن يعلم ان لعدوه زياد فتاة يستهوي جمالها احسن فتى في قومه ، ويحول ذلك الجمال بينه وبين غرضه ، وبعد سكوت قصير قال : أتخفي وجهك يا صفوان لانك عاشق ؟

فرفع رأسه وهو يقول : بل اخفيه لأن هذا العشق سيكون وبالاً علي وعلى قومي ...

– وأي شأن لقومك بهذا ؟

– لقد أحببت ابنة عدوهم وهذا يكفي . ولكن لا فعندما خلق القدر هذا الحب لم يكن لهذا العداء وجود ..

قال : متى كان ذلك ؟

– قبل ان يكون لك في الشعاب هذا الشأن ..

قال : صف ليلى .

فنظر الى يزيد قائلاً : صفها يا يزيد .

فتولى يزيد ذلك الامر ولو استطاع لجعل ليلى الهة الجمال ..

فقال قصي : انها اذاً سيدة الحسان في مكة . !

– لها وجه يخلب الالباب يا مولاي .

– وهل تمت الخطبة يا صفوان ؟

– نعم يا مولاي، على ان نتزوج بعد عام او بعد عشرين عاماً او عندما ابلغ السبعين من العمر ، اذا بقيت !!

وقال يزيد : قد يموت قبل ان تزف ليلى اليه .

-- أليس لهذه الخطبة اجل ؟

فقال صفوان : في ذمة الاقدار ذلك الأجل .

- خبرني كل شيء فما رأيت قط اغرب من هذا .

فأخذ يقص عليه تاريخ حياته منذ رأى زياداً في ميدان مكة حتى عثر عليه عبدالله ، ثم قال : وقد زرت امير صوفة بعد ذلك فكانت فاتحة عهد الشقاء الذي لا يزول ..

- ولكني اريد ان تحدثني بأمر الزواج .

قال : احدثك ببعض ذلك الأمر . ان زياداً اشترط علي ان يكون رأس جبير مهراً لابنته .!

قال : وهذا هو شقاؤك ؟

- نعم فقد طفنا في بلاد العرب كلها دون ان نجد أثراً لابن عبادة .

قال قد يكون الرجل في العراق او في الشام .

- وهل يكرهني القدر على قضاء حياتي في البحث عنه ؟

فجعل يتفرس فيه ثم قال : اذا كان زياد مصراً على طلبه فليس لك حيلة الا بالصبر .

- ثم يمر العمر كله وانا صابر وابن عبادة محتجب عن العيون .

- بل تصبر ريثما ينتهي امر الحجاز فاطلب الرجل ولو كان في حضن ملك الروم .

- ومع ذلك فهنالك شقاء آخر اخشى وقوعه !

- ماذا ؟

- سيحطم جلوسك على العرش ما بقي لي من امل ..!

فتمتم قائلاً : كلمات مجنون ورب الكعبة .

- بل انا اليوم اعقل مني بالامس ، ألم تقل الآن يا مولاي انك ستطلب زياداً وهو في قصره وتكرهه على القتال ؟

- بلى .

- وهل يستطيع زياد ان يثبت في الساحة ويخرج ظافراً ؟

- من يعلم فقد يكتب له النصر في ذلك اليوم وتضمحل هذه الاحلام .

- وهذا معناه اني سأكون في الحالين من أشقى الناس .

- ولكنك لم تقل لي كيف يكون هذا الشقاء . !

- اعلم يا مولاي اني أؤثر الموت على الحياة بدون ليلى .

- لقد عرفت هذا الآن .. ثم ماذا ؟

- وان هذه الحرب التي ستسعر نارها ستحرمني اياها الى الابد .

فقال ضاحكاً : الا تأذن لك ليلى في حمل السيف ؟

قال : اذا كان هنالك رجل يخشى ان يحمل السيف فذلك الرجل هو انا .. انا يا مولاي . !

قال : أعجب لهذا الحب الذي جعلك جباناً .

- وانا اعجب لهذا الزمان الجائر الذي سيسلبني احب الناس الي ، اسمع يا مولاي ، ان الحرب مع زياد ستنتهي بواحد من أمرين : امــا ان يقتل او تقتل انت .. أليس كذلك ؟

- اجل .

- وعندئذ يفصل الشرف بيني وبين ليلى ، ويبتعد الواحد منــا عن الآخر وهو غير مختار .. !

فقاطعه قائلاً ، لقد فهمت الآن ..

- ولكن يزيد لم يفهم بعد .. اذا قتل زياد فليلى لا ترضى بأن تعيش بين قوم قتلوا أباها .. كما اني لا أرضى ، اذا قتلت انت ، ان تزف الي ابنة القاتل .

فأطرق قصي وهو يفكر .. ان ذلك الكلام الذي يقوله صفوان لا يستطيع ان يرده .. وماذا يصنع بذينك القلبين اللذين يخفقان على الحب ؟؟ أيقضي عليهما وهو في طريقه الى المجد ولا يبالي ، ام يمهد لصفوان الذي أحبه سبل الوصول الى ليلاه ؟.. وطال تفكيره والاثنان ساكتان ، ثم قال : وكيف نفعل الآن ؟

فاجابه صفوان قائلا : أسألك سؤالاً ثم انصرف .
– ما هو ؟
– اطلب اليك ، اذا استوليت على مكة ، ان تتجاهل وجود زياد بن كعب كأنه غير موجود ..!
– ولكنه لا يريد الا ان يثبت وجوده بالدفاع عن امارته وحفظ السيادة لقومه كما قلت .
قال : لقد ظهر كل شيء الآن ، فأنا اضمن سكوته بل اضمن خضوعه لك عندما تسود الناس .
– انصح لك بالعدول عن هذا الرأي فالرجل ليس من قومك وانت لا تعرف ماضيه .
– لقد وعدني بأن يعتزل حربك ووثقت بوعده .
– اذن كان زياد يحدثك بأمر الحرب يا صفوان ..
– نعم وانا اسألك الآن بان تعدني بمثل ما وعد .
فلم ير سيد الشعاب بداً من ذلك الوعد فقال لو سألتني ان أنسى سدانة الكعبة لفعلت .. اعدك باني سأتجاهل وجوده اذا هو استسلم الي يوم تخفق فوق جيشي رايات النصر ، ولكن الويل له اذا تردد في هذا ، أترضى بهذا الوعد ؟
– رضيت على ان تذكر لي شروط هذا الاستسلام ..
قال : سأبدأ بخزاعة فانحيها عن هذه الكراسي التي يتربع فيها الامراء واخفض بالسيف جميع الرؤوس التي لا تنحني لي .
– وبعد ذلك ؟
– ثم انتظر بعد ذلك ان يفد علي جميع الذين لم يشتركوا في الحرب مستسلمين خاضعين ، على رأسهم صاحبك .!
فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : سيفعل .
قال : احذر ، فثمن هذا الوعد رأس زياد ، ان لم يرض به . اشهد يا يزيد !
قال : دمه حلال لك ان لم يرض ، والعرش قبل ليلى .

وسالت دمعة على خده ، لانه عرف ان امله كله يقوم بالوفاء بما قال ،
ثم نهض قائلاً : ولم يبق الان الا ان ارى زياداً ولا اريد ان أراه وحدي ، قم يا ابن ربيعة ..
وخرج الاثنان ، وقلب صفوان يخفق مضطرباً وهو يحدثه بالفشل ..!

* * *

- ١٢ -

انظر لقد بدأ نجم قصي يلمع في الفضاء .. هـذا حليل بن حبشية سادن الكعبة يقيم بقصره لا يخرج منه الى كرسيه بباب البيت .. أتراه مل فتح الباب واغلاقه وآثر الاقامة بين الجدر ريثما تأتي ساعته ؟؟ أم تراه سئم العيش الذي لا يغيره ولا يبدله الزمان .. لا .. انه لم يمل شيئاً ولم يسأم عيشاً بل كان مريضاً ، وقد فاجأه المرض في ليلة باردة ، هطلت فيهـــا الأمطار وغطت المياه بعض الاكواخ القائمة على جانبي الوادي ، وكانت حبى والمحترش بالقرب منه ، وقـد ذعرا لذلك الشلل الذي اصاب اباهما البار في تلك الساعة من الليل .

اجـل ، كانت حبى عنده ، تقضي بعض الايام بـين يديه وتقيم بعض الايام بالشعاب ، وهي في الموضعين شريفة القصد ، عزيزة المقام ،

وكان قصي في تلك الساعة بين قومه ، يتهيأ لرحلة جديدة يكثر بعدها ماله ، فارسلت حبى تطلبه مع احد غلمان القصر فلم يتردد في المجيء ، وقد رأى حماه في فراشه كأنه حجر لا يتحرك الا اذا تناولته الايدي ! نعم ، كان حليل جسداً صامتاً هادئاً ، لا تجول الحياة الا في لسانه وعينيه ،

فعالجوه ... ولكن العلاج كان عاجزاً عن ان يبعث الحياة في اصبع واحدة من اصابعه ..!

ان المرض قاس لا يرحم ولا يلين ..!

وقصي ينظر في وسائل شفائه ، كما كان ينظر في أمر حجابته التي خلا لـه فيها الجوّ .

بل لم يخلُ له بعد . فالمحترش حي ، وهو أجدر الناس بالولاية بعد أبيه ، كما عرفت .

ولكن قصياً لا يعبأ به ، فهو اذا استولى على الحجابة لا يلبث حتى ينزل عنها لصهره مختاراً غير مكره .

اذن فقد دنت الساعة التي تشهر فيها السيوف وتسرج الخيل ، وتوضع الرؤوس الكبيرة تحت الاقدام ..!

وويل الحجاز منها . ان الدماء ستسفح في الساحات ، وتلبس النساء السواد على الرجال الذين يغوصون فيها الى الاعماق .

* * *

لم ينم أهل القصر ليلتهم . وقصي لم يشأ ان يأوي الى فراشه . وكيف ينام وهو يحصي ماله ، ويعد الدروع والرماح والجيش ؟!

بل كيف ينام وهو يسمع هزيم الرعد وصفير الرياح ، ويرى ثورة الطبيعة التي تشبه ثورة الرجال في الميادين !!

لقد كان جالساً في تلك الليلة على العرش الذي بناه ، وهو يمهد للحجاز اسباب المجد الذي لا يبلى مع الدهر ، وكل ذلك بالفكر .! الفكر الحديدي الذي لا تضعضعه الحادثات .

ولم يبزغ الفجر ، حتى قبض على الحجاز ، ووضع يده على كل ما فيه ، من اقصاه الى اقصاه . وقام في ذهنه انه ملك يلبس التاج ويحمل الصولجان .

هكذا فعل عظماء الرجال من قبل ، وهكذا يفعلون اليوم . تضع ادمغتهم اسس العروش التي يحملون بها ، ثم يثبون بالعزيمة الثابتة ، والارادة الجبارة ، ويتربعون فيها كأنها ارث اعدته لهم الايام .

وكان خبر حليل قد انتشر في مكة وتناقلته الافواه . فأقبل بنو خزاعة الى القصر يعودون صاحبه ، وهم يخشون ذلك الرجل الآخر الذي سيخلفه فيه ..
وفي القصر تلاقت العيون . العيون الملتهبة الحمراء . وفي قاعة واحدة ، وعلى

مقعد واحد ، جلس ابو ضمرة الخزاعي وقصي بن كلاب ، الطامعان في الحجابة وكلاهما يحس بما يحمل صدر الآخر من بغض وحقد . وبعد قليل اقبل زيـاد بن كعب وزعماء قومه ، ثم دخل بنو بكر ورؤساء الشعاب ، والسكوت ينشر ظـله في الأروقة والدهاليز . فرأى حليل .. حليل المتألم الصامت ، ان نواب العشائر كلها مجتمعون في قصره ، وهو يعلم كما قرأت ، ان فريقاً منهم يطلب موته ليمد يده الى كرسيه فقال وصوته يرتجف ، وعيناه تنظران الى أبي ضمرة .

« يا أهل مكة ، لقد اتت الساعة التي لا مفرّ منها » .

فاجابه أبو ضمرة قائلا : نفديك بالأرواح يا حليل .

قال : انها ساعة لا يفدي فيها أحد احداً ..

– سنطوف حول البيت ونسأل هبل ان يشفيك ..

قال : لكل شيء حد وقد انتهيت الآن . ثم نظر الى قصي وهو يقول : يا أهل مكة ، انظروا في امركم قبل ان يغيبني القبر .

فقال ابو ضمرة : لقد سلمنا امورنا اليك ،

– ومـاذا يفعل الحاجز الذي يصارع الموت ؟ امامكم البيت الذي هو كعبة الناس فتشاوروا واحفظوه .

وتلك فرصة لم يضيعها ابو ضمرة فقال : « انتشاور لنحفظه وانت حي » ؟

– نعم وخير لكم ان تفعلوا هذا اليوم في هـذا القصر وانا بينكم ، من ان تفعلوه غداً في جوف الكعبة وانا ميت .

قال : رأيك ايها الأمير . !

فسكت قليلا كأنه يطلب الراحة ثم قال : اذا اردتم ان يبقى لكم هذا البيت العظيم فاتركوا المطامع .

قال : ان مكة يسودها الهدوء ، كما ترى ، .

– اما القلوب فلا تهدأ .

قال : هؤلاء امراء خزاعة فاجعل احدهم خليفة لك . !

فاختلجت عينا المريض واصفرت شفتاه. ان ابا ضمرة يستهين به وهو على فراش الموت ،

لكنه اراد ان يستعين بالدهاء الى النهاية ، فقال : « انت خيرهم يا ابن العم »

قال : قد يكون هنالك رجل آخر توءثره عليّ العرب .

فقال امير آخر : نختار اربعة ونضرب عليهم بالقداح امام الآلهة وهذا خير الاراء .

وقام آخر فقال : ان خزاعة لا تعمد الى مثل هـذا وفيها النبالة والشرف ، أليس فينا رجل يصلح للحجابة ؟

فابتسم قائلاً : لقد اذنت لكم ان تختاروا حاجبكم .

ونظر ثانية الى قصي كأنه يقول له : لقد دبّ الفساد في الصفوف وهذا مـا رغب فيه . وجعل يتنفس بتعب وهو لا يسمع جواباً .

ولبث القوم ساكتين وهم يتشاورون بالعيون .

فقال : ماذا فعلتم ؟ فلم يقولوا كلمة . !

فغضب أبو ضمرة لان القوم لم يجسروا ان يختاروه ، وظهر ذلك الغضب على وجهه وهو يتمتم قائلاً : اختر انت من تشاء !!

فقال : اسأل الان بني بكر .

فقال زعيمهم : نرضى بالذي يختاره الامير .

– اذن اسأل بني صوفة فلهم رأي .

فأجابه زياد قائلاً : ليكن سادن الكعبة من خزاعة ولا نبالي .

– وانتم يا اهل الشعاب ؟

فقال خداش بن عبيد : ليس لاحد منا ان يتكلم وسيدنا في القوم . !

– من هو ؟

– أتجهله يا حليل وهو زوج حبىّ ؟

قال قصي ؟

فرفع صوته قائلاً : نعم قصي بن كلاب الذي ترون . فـاتجهت الى الفتى

النظرات ، وكلها السنة نار .

فقال : هات يا قصي ؟

قال : متى كان لبني كنانة رأي في حجابة البيت ؟

– بنو كنانة منا وهم اصحاب مكة من قبل .

– اذا كان هذا فقد رأيت غير ما يراه هوءلاء الامراء !

– اذن لا تريد ان تختار احداً .

– بل لا اريد ان افكر في الاختيار وانت باق .

– ولكني ذاهب الى الآخرة بعد ايام .

– سلمت يا مولاي .

– اذا سلمت اليوم لم اسلم غدا . قل كلمتك .

قال : اذا ذهبت فالحجابة باقية في بيتك حتى يفنى آل حليل .

والتفت الى الناس قائلا : ألا يخلف المحترش اباه في الولاية ؟

فقال ابوضمرة وعيناه تلمعان : لقد كنت جريئاً الى حدّ ان اذكر ما أعلم ولا أعبأ بأحد ، ان المحترش اعجز عن ان يقوم بالحجابة كما قام بها اباوءه .

فاجابه وهو هادىء : بل يفعل مثلما فعلوا وترضى العرب .

والخمر ؟

– اما الخمر فيشربها صرفاً جميع الناس كما يشربها هو ، وهو يعنيه بذلـــك القول فقد كان شراباً لا يرتوي .

فقال : اذا شربها الناس فليسوا حجاباً للكعبة .

– واظن ان شرف البيت يعلي عليك هذا الكلام .

– اجـل واضنّ بمقام البيت ان تحجه الملوك فيجدوا حاجبه سكران لا تمتد يده الى بابه من شدة السكر .

وكان المحترش صاحياً وهو يسمع ذلـــك القول ووجهه يصفرُّ ، فقال : أبا ضمرة .! من هو احق الناس بالامارة بعد حليل ؟

– انت ، ولولا الخمر لسلمناها اليك .

- لقد عرفت الآن اني لا اصلح لها ولا تصلح لي ، ولكن الا تقول لي من هو احق الناس بعدي .

وذلك سؤال دهاء وحكمة .

فقال : واحد من خزاعة تختاره العشيرة . !

فقال لأبيه: هؤلاء ابناء عمنا يريدون ان يسلبونا ما نملك وانت بيننا! ويلك يا أبا ضمرة أنسيت ان لحليل ولداً آخر غير المحترش الذي لا ترضى به ؟

- لا اعلم ان له ولداً آخر !

اذن ليس لحبى اخت المحترش وجود !

فصاح قـائلاً : اتريد يا ابن حليل ان يخضع الامراء والقبائل في الحجاز لواحدة من النساء ؟

- اجل فليس في الحجاز مثل حبىّ ونحن لا ننزل عن هذا الحق . فارتفعت اصوات القوم قائلين : لا نجعل الحجاز في يد المرأة .

الا زياداً فلم يرتفع له صوت . فحاول حليل ان يخفي بصوته الضعيف تلك الاصوات القوية التي ملأت القاعة فلم يقدر ، ولكنهم اصغوا اليه وهو يقول : اتركوا الاختيار فساوصي الآن بالحجابة لمن اشاء .

وشريعة الوصية محترمة مقدسة عند العرب لا تؤثر فيها المطامع ولا تفسدها قوى الامراء المستبدين .

فساد السكوت كما كان سائداً من قبل . ثم قال لقصي : اين زوجتك ؟

- في القاعة الاخرى مع نساء الحي .

- عليّ بها الساعة .

فقالوا في نفسهم : اذا أوصى لحبى فكانه اوصى لقصي . وجعلوا يتهامسون وقد اضطربوا لذكر الوصية التي لا يستطيعون ردها والشر في العيون ، ثم اقبلت حبىّ وعيناها ذابلتان من كثرة البكاء ، فقال : لقد علمت يا ابني اني تارك هذه الدار ولاحق بآبائي .

فكفكفت دموعها وهي تنظر الى الارض .

قال : كفي عن البكاء فانت الان بين امراء مكة وقد دعوتك لأمر فيه صلاح اهل الحجاز .

فتمتمت قائلة : قل يا مولاي فانا سامعة .

قـــال : كرهت ان ارحل عن هذه الدنيا قبل ان أجعل لقومي رئيسا يرجعون اليه كما كانوا يرجعون اليّ .

فادركت كما ادرك المحترش وقصي مغزى قوله ، فقالت : لا يخرج احد من قومك عن الطاعة يا مولاي .

– بل خرجوا الان وكادت الفتنة تظهر في القصر وانا في فراش مرضي والآمي ، انتظر الموت .؟!

فقال قصي : انهـــا سحابة صيف يا مولاي ... ورفع حاجبيه كأنه يقول لزوجته : لا تقبلي بالوصية .

اما حليل فقال : هب انها عاصفة مثل عاصفة الامس فانا لا أعبأ بهـــا ولا انظر اليها ، اسمعي وصيتي يا حبى ، واسمعوا ايها القوم ..

« انا حليل بن حبشية سادن الكعبة أجعل ولاية البيت لابنتي حبى التي هي زوجة قصي بن كلاب الكناني .. وصية مقدسة اتركها في اعناق بني قومي ثم في اعناق أهل مكة » .

فأطرقوا . لأن تلك الكلمة وقعت كما تقع الصاعقة . ولكن حبى لم تسكت بل رفعت رأسها قائلة : « قد علمت اني لا اقدر على فتح الباب واغلاقه » .

قـــال : اني اجعل الفتح والاغلاق الى رجـل يقوم لك به » . فكاد القوم يلفظون اسم ذلك الرجل فقد حسبوا انه قصي ، غير ان حليل ازال تلك الريبة من النفوس بقوله :

« هو ابو غبشان »

« واسمه سليم بن عمرو بن بوي بن ملكان » .

فقالت لا اقدر يا مولاي ، فأوص لغيري . والتفتت الى زوجهـــا فرأت الابتسامة على شفتيه .

قال : أطيعي يا بنية ..

ـ لا اقدر يا مولاي على ما يعجز عنه الرجال :

فسألها مرة ثانية ان تطيعه فقالت : عار على اهـل مكة ان يولوا النساء .. هذا اخي المحترش فاجعل له ما اردت ان تجعله لي .

قال : مر زوجتك بان ترضى يا قصي .

قال : ما كنت لاخرج عما الفته العرب . لقد تعود الناس ان يكون حاجب البيت رجلا فأوص لرجل .

قال : وقد تعود الامراء ان يوصوا لبنيهم بما يملكون هذه وصيتي اعيدهـا للمحترش ولا احب ان اسمع كلمة بعد .. انك سادن الكعبة بعد ابيك يا بني .

فتظـاهر بأنه يهم بالكلام فأسكتته حبى قائلة : انك لا تستطيع ان تعتذر كما اعتذرت فكن خليفة حليل . فرأى ابو ضمرة ومن حوله ان الامر قد انقضى ولم يبق سبيل الى الرفض الا اذا عمدوا الى السلاح.. ولكن السلاح يتركونه الى زمن آخر يكون الموقف فيه اكثر خطراً واشد وقعاً . وخير لهم ان يرضوا الآن بحجابة المحترش فيجمعوا كلمة القوم ويصونوا حرمة الامير المائت من ان يرفضوها فتنقسم خزاعة الى قسمين وتثور الرجال .

فلبثوا صامتين لا تبدر من أحدهم بادرة . وعـاد حليل الى الكلام فقال : اكتبوا بذلك عهداً .

فقال قصي : لقد كتب هذا العهد في الصدور .

فقال ابو ضمرة : اكتبوه حتى اذا عمد احدهم الى نقضه بعد حين كان جزاؤه النار . وأبو ضمرة يعرف ماذا يقول. لقد كان واثقاً بان قصياً نفسه سينقض ذلك العهد يوم يستقل المحترش بالأمر .. وزياد بن كعب يثق ايضاً بما يثق الآخر .. ولكنهم ، كما رأيت ، لم يجسروا على اغضاب حليل خوفاً من الفتنة . انهم كانوا ينتظرون موته ليثبتوا وجودهم . !

وقد عرف قصي مقامه ، فتدلل ما طاب له الدلال ..

اراد ان يجعل المحترش سادناً للكعبة فكان له مـا اراد . ولم يشأ ان يكتب الناس ذلك العهد فلم يكتب ، فكان في ذلك سيد الموقف يملي ارادته على سادة العشائر من وراء الستار، وبالكثير من الدهاء، دون ان يدل مظهره على الغرض الذي يسعى اليه .. وساعده في امره حليل المتألم ، بذلك الاسلوب النـاعم الذي شاور فيه الامراء . ولا يعلمون منه شيئـاً . أضف الى ذلك ذكاء حبى . وفطنة المحترش حاجب البيت الجديد . ولم ينس حليل ان يختم دهاءه بالموعظة فقـال لأبنه : ستصبح بعد موتي سيد العرب يا بني فاترك الخمر ..

فاجابه الآخر قائلاً : لن اذوقها وانا بباب الكعبة ..

– بل عدني انك لا تشربها وانت في القصر !!

– ولا اشربها وانا في القصر .

– وانك لا تميل مع الهوى ولا تحابي احداً فيما يعني حرمة البيت .

قال : سأفعل كل ما تقول يا مولاي ..

– والآن فصافح امراء مكة واحداً واحداً وهو يقول في نفسه: ان لم اشربها بالباب وفي القصر فسأشربها وانا في المطاف ، وعند حياض الماء مع الغلمان .

وعندما قارب قصياً هامسه قائلاً : لقد رضي قومك فلم نشهر السيف .

فقال : لولا خوفهم من السيف لرفضوا كل شيء .

وقام الناس فانصرفوا وأبو ضمرة يقول لقومه : سننسى انفسنـا وستنتقل الحجابة الى اهل الشعاب .

ولو نظر اليه زياد بن كعب في تلك الساعة ، لرأى عينيه ترسلان اليه سهماً مسموماً من سهام الحسد والبغضاء .

* * *

لقد عاد عبد اللات بن حارثة وعمر بن الأسود من طوافهما ولم يبصرا جبيراً فماذا فعلت انت يا صفوان ؟

قالها زياد وهو يدعو ليلى لتسمع حديثهما .. ولعله دعاها لترى ذلك الحبيب

القادم من سفره ، فقال صفوان : لم اكن اسعد حظاً منهما ايهـا الأمير ، ان ابن عبادة يقيم بمدائن بهرام جور ام ببصرى ،

– ولماذا لا يقيم باليمن ؟

قال : لم يقل لنا احد انه سلك الطريق الذي يؤدي اليها .

وقدمت ليلى ويدها بيد أبي زياد ، فصافح يزيد وصفوان الاثنين وارتجفت يدا العاشقين ، ثم جعل صفوان يروي للقوم مـــا حدث لهما وهو يلعن الاقدار ووجه ليلى يتجهم ، وقلبهـا يضطرب ، وذلك النور في عينيها الذابلتين ، نور الأمل والرجاء ، يختفي وراء الكآبة والألم .. ان القضاء يكاد يحرمها صفوان . وأية حياة هي التي تقضيها بعيدة عنه ؟!

بل هو ابوهـا الذي اراد ذلك الحرمان .! ولولا خاطر الثأر الذي خطر له لكانت اليوم زوجة لذلك العاشق الذي هو اتعس العاشقين .

حتى حكى الفتى حكايته كلها ولم يكتم اليأس الذي يتغلل في اعماق نفسه .

وزياد ساكت ، والابتسامة التي لا لون لها تبدو على ثغره من حين الى حين، كأن الأمر لا يعنيه ، أتراه كان يرغب في ان يتحد الحبيبان ، ام يتظـاهر بتلك الرغبة لغاية له لا تدركها العقول ولا تراها العيون؟! لقد كان زياد في قضية ذلك الحب الطاهر الذي يغمر عواطف الفتيين ، لغزاً لم يستطع صفوان وليلى ان يحلاه فهو لا يكاد يزهو جبينه حتى يقطب حاجبيه ، ولا يبتسم لغرامهما حتى يعبس وجهه لأقاصيص ذلك الغرام .. كأنه بين عاملين قاهرين لا يدري ايهما يفوز في مجال النزاع .

اجل ، كان هنالك عاملان يتنازعان عاطفته ، احدهم مجده الذي لا يريد ان يخسره . والآخر سعادة ليلى ورضاهـــا كما مر بك ، وكلا الاثنين قادر وعظيم الأثر ...

وبعد ان اطرق لحظة ، رفع رأسه وقد زها جبينه ، وتلاشت آثار التردد التي بدت على وجهه ، ثم قال : اذن تكاد تضيع الرجاء يا صفوان .

– بل ضيعته يا مولاي وانقضى الامر .

قال : أيختفي ابن عبادة فلا يظهر في بلاد العرب الى الأبد ؟ — لو كان في بلاد العرب لرأيناه ، انه يعرف كيف يحتجب عن عيون الناس .

فقال هازئاً : بقيت الشام فقد تجده فيها والا ففي العراق .

-- ثم أعود منهما الى اليمن اذا لم أره !!

— اجل الى اليمن فهذا هو الرأي ..

— واذا كتب لي الفشل في اليمن رحلت الى البحرين ثم الى بلاد العجم حتى يظفرني الله به . !!

قال : لو كنت عاشقاً كما تقول لفعلت كل هذا .

— ولكني لا استطيع ذلك يا مولاي .

— أتعترف بالعجز وانت في ربيع عمرك ؟

— بل اعترف بان هذا القلب لا يطاوعني في أمر الرحيل عن مكة بعد اليوم، واحمر وجهه بعد هذا الاعتراف .

اما ليلى فابتسمت كما يبتسم البائس الذي خسر كل شيء .

فقال زياد : هب انك ترحل مع قومك في طلب المال .

قال : ما رحلت قط الا لأعود بعد شهر وليس لأقضي العمر كله باحثاً عن رجل ليس له في البلاد ظل .. ألم ترسل ايها الامير رجلين من عشيرتك يبحثان عنه فعادا اليك بعد عام يتعثران بالخيبة ؟ ألم يطلبه يزيد بن ربيعة هذا كما نطلبه نحن ورجع كما رجعنا ودم ابيه يهتف به داعياً اياه الى الثأر؟ فماذا يصنع صفوان ابن الحارث الذي لا يعرف بلاد العرب كما يعرفها ابناء صوفة ولا يدري اي بلدٍ ينزل فيه ذلك اللعين الذي لا تريد مهراً لليلى غير رأسه ؟! أتحسبني يا مولاي جنياً أغوص في البحار واخترق بطن الارض ، وأطير في الفضاء ساعة أشاء حتى اجد القاتل ؟، ام تظن اني من الآلهة آمره بالظهور فيظهر ، ثم بالاحتجاب في الاعماق فيغيب ؟؟ اني يا مولاي شقي لا حظ لي ، أحبب فلم يبسم لي عهد الحب وكتب لي ان اخنق حبي بيدي واعيش بدون قلب حتى تجيء ساعتي .

فلم تستطع ليلى ان تسمع اكثر مما سمعت فنهضت تحاول الخروج من القاعة

لتبكي هواها فاستوقفها زياد قائلاً : امكثي بيننا الى النهاية فهذه بادرة من بوادر الغرام لا تلبث حتى تزول ثم قال : اصبر فسيخدمك الحظ يا صفوان بعد حين.

– لقد عرفت حظي فلا سبيل الى الامل .

قال : سأرسل بعد ايام الى الشام والعراق ثلاثة رجـــال يطلبون فيهما ابن عبادة وانا اظن انهم سيعثرون عليه .

– وانا واثق بانهم لا يجدونه ..!

قال : وارسل ثلاثة آخرين الى بلاد الفرس ثم الى اليمن فنقوم بواجب الوفاء نحو ذلك القتيل البريء الذي خسر حياته من اجل مولاه .

– وبعد ذلك ؟

– انتظر رجوعهم ، حتى اذا لم يكن لابن عبـادة وجود في الاقطـار التي ذكرت زوجتك ليلى ولا ابالي بمـــا يحدث بعد ذلك والتفت الى ابيه قائلاً : الا توافقني في هذا يا مولاي ؟

قال : بلى .

– وانت يا صفوان ؟

فتمتم يقول : وما حيلة صفوان اذا كان مكرهاً على الرضى .. ولم يسأل ليلى رأيها ، بل لم ينظر اليها لئلا يرى في عينيها الدموع .

وغير حديثه فجأة قائلاً : ماذا رأيت بعد رجوعك ؟

– كل شيء في الشعاب باق كما تركته .

اما فقد رأيت طوائف الخيل ترد من يثرب ومن حي بني هذيل وهذا معناه ان القوم يتهيأون للحرب .

قال : لعلهم يتهيأون للدفاع يا مولاي .!!

فضحك وقال : انه دفاع لا اسباب له .

قـــال : من هذه الاسباب ان الأفعى تنفث سمها من وراء الجدر وهي لا تجسر على الخروج الى الساحة .

فأسكته يزيد قائلاً : ليس لك ان تبوح بأسرار سواك .

– بل أبوح بكل شيء فإن الحرب لا بد منها وحسبي ان يعلم الأمير ان اهل مكة يوقدون نارها من خلف الستار .

فقال زياد : اهل مكة يوقدون النار ونحن منهم ولا نعلم ؟..

– نعم وقد بدأوا بأضرامها في العراق بل في بلاط ملكه النعمان بن امرىء القيس ليبلغوا الغاية !!

فاستوى في مجلسه وهو ينظر الى ابيه والاستغراب على وجهه .

قال : لا تستغرب يا مولاي فـان اميراً من امرائكم مثل بين يدي ذلك الملك ونقل اليه حكاية كاذبة املاها عليه البغض !!

– اذكر اولاً هذه الحكاية .

وأصغى أبوه وليلى كي لا تفوتهما كلمة ، فقال : ذُكر للنعمان ان قصياً صنيعة الملك الغساني وجاسوسه يبعث اليه بأخبار البلاط وما يجري فيه .

– وهل عرف قصي العراق قبل ان يقدم الحجاز ؟

– لم تطأ قدماه أرضه غير مرة واحدة في العام .

– وماذا صنع الملك ؟

– لم يخرج قصي من مجلسه حتى دخل ذلك الأمير يروي له الأكاذيب فأوغر صدره وبعث حاجبه يستقدمه من جديد والغضب يغلي في ذلك الصدر .

ثم اعاد عليهم القصة كما سمعها من قصي . فغضب زياد لهـذه السعاية السافلة وصاح قائلاً : الامراء الذين يفعلون هذا هم انذال ، من هو الرجل ؟

– هو ابو ضمرة الخزاعي سيد القوم بعد حليل .!

فارتسم البغض بصورته الرائعة على جبينـه وجعل يقول وشفتاه ترتجفان ويل للساعي الخائن ، الجبان .

وانفجر البركان .. ان صدر زياد يحمل حقـداً على ابي ضمرة ، لم يحمل مثله على سيد كنانة !! بل كان يحس انه لا يستطيع ان يبغض احداً كما يبغض هـذا الخزاعي . يرجع أصل هذا البغض ، الى ذلك الزمن الذي سلم فيـه ابو كعب امارة العشيرة الى ولده . كان ابو ضمرة حسوداً ولا وجدان له ، يريد ان يستأثر

بكل شيء ، ويطمع في الاستيلاء على اموال الحجاج بالحرام ، لا يطيق ان توجه اليه نصح من حليل او من سواه. وفي مكة نفر لا يحترمون غيره ،ولا يعترفون بالنفوذ والجاه الا له . ولا يريدون ان يندب سادن الكعبة سواه لقضاء حاجات الحجـاج .. فبطر .. كالقليل العقل ، الصغير النفس ، الذي لا يقدر ان يحتمل النعمة، واستهواه السلطان والمال فوضع نفسه في صف الآلهة واخذ يحلم بالحجابة وما يتبعها من نشر الهيبة في الاقطار ، وذلك حقه ، لو كان له ما للأمراء النبلاء من اخلاق بل لو كانت له خصلة واحـــدة من خصال الرجال اصحاب الشرف والأدب . وكان يحب نفسه الى حد انه يؤثر ناقته على جميع من حوله ..! دون ان يتسع له المجال ليحب غيرها ..! وهو مغرور .. يقوم في ذهنه ان سماء مكة تهبط على اصحابها اذا هو ازاح يديه التي يسندها بها.

ويحب ان يكون كل ما في مكة ملكاً له !! وان يخضع له كل من فيها من ابناء البشر . وان تحني له الرجـــال رقابها كلما راح وجاء حول المطاف وفي السوق .

وزياد يعرف كل هذا ويراه كل يوم ، ونفسه تضطرب وتهتز لهذا الزهو الذي لا يجد له سبباً غـــير الجهل والضعف ، حتى زاره كما قرأت وحدثه بأمر قصي وأمر الكعبة ، فآثر ان يقبع في بيته ، ويصبر ريثما تتلاحم سيوف القوم فيسقط ابو ضمرة ضحية غروره ،

ويفعل بعد ذلك ما يطيب له .

ذلك ما كان يضمره زياد ، فلما ذكرت له حكاية الرجل انفجر بركان بغضه كما مرّ ، واخذ يستنزل عليه لعنات الآلهة ، ثم قال : وماذا فعل قصي بعـــد رجوعه الى مكة ؟

– لم يفعل شيئاً كأن الحادث الذي جرى له لم يكن قط .

– اذن لم يرَ أحدهم الآخر .

– بل تلاقى النظران في فناء الكعبة وقصي لا يبدو على وجهه أنـه يعرف من هو !!

فقال : ان صاحبك أجبن من رأيت

قال : اذا جالت الخيل كنت أول من يعترف لصاحبي بأنه سيد أبطال الحجاز . !

قال : يرى عدوه الذي تعمد قتله ويسكت عنه ثم تقول هذا ؟؟ ورأس أبي لئن فعلها معي لأضربنّ عنقه وهو في جوف الكعبة يصلي لهبل .

قال : اراك تنتصر لأبن كنانة يا مولاي ؟

– انتصر للشرف ولا اعبأ بالاشخاص .

– بل يخيل اليّ انك لا تحب الخزاعي .

اجل لا احبه ولا اطيق ان اراه ، كما اني لا احب ابن عمك الذي تدعونه سيد الشعاب !!

– حسبي انك لا تشهر عليه السيف .

قال : لقد وعدتك بهذا الا إذا جاوز حده في الغرور كما يفعل ابو ضمرة .

قال : وحسبك انه لا يمدّ اليك يداً ولا يفكر في حربك .

– اتعدني باسمه يا صفوان ؟

– بل انقل اليك حديثه الذي قاله لي وليزيد منذ ساعة .. لقد عاهدتماني انتما الاثنين على ان لا يعرض الواحد منكما للآخر وانتهى الأمر .

قال خبرنا ذلك الحديث اذا شئت .

قال : يكفي ان تعلم اني كنت رسول صلح بينك وبينه وأني جئت الآن اسألك ان تعاهدني على السكوت من جديد .

– ان زياداً يَعِدُ مرة واحدة ويعرف كيف يفي بما وعد . ولكن لا تنسَ اني أتصدى له إذا استخف بي وبعشيرتي ومدّ يده الى الشؤون التي لا تعنيه . ثم قال : وهل قصصت عليه حكاية غرامك ؟

– نعم فأنا لا اكتمه أمراً وليس هنالك من هو أبرّ بي منه .

– ورأيه ؟

– اما رأيه فالصبر الذي لا اعرف وسيلة للوصول اليه .

قال : ليس لدائك الآن علاج غيره ولولا قسمي لتم زواجك قبل ان أثـأر بعبد الله وقبل ان اعرف مقر جبير .

فقال يزيد : ولكن متى يذهب رجالك يا مولاي للبحث عنه ، كما ذكرت

– بعد ايام والذي صبر عاماً يصبر عامين آخرين .

قال : لقد ذكرت سودة الكاهنة ان التفتيش عنه في تهامة خير من الطواف في الجزيرة ومع ذلك فلم نره .

قال : اذا صدق الكهان مرة فليسوا آلهة ليصدقوا في ما يقولون كل حين .

وقامت ليلى عندئذٍ وهي تقول : أبقي شيء تريد ان اسمعه يا مولاي ؟

– لم يبق إلا ان تعالجي الأمر بالهدوء فلا تطمن فينا العرب ، فخرجت وهي تنظر الى حبيبها نظرات الحب . وما لبثت حتى دخلت مخدعها لتستدلم للبكاء ، وكان الغلام طلحة يسمع ويرى كل شيء وهو يلعن الأقدار الجائرة الـتي تفصل بين العاشقين .

وبعد لحظة انصرف صفوان واليأس ملء قلبه ، ولم ينس ان يغطي وجهـه بعمامته كما تعود ان يفعل ، وتبعه يزيد وهو مطرق ، ولو سأله الشيطان في تلك الساعة ان يهب له نصف حياته على ان يساعد صفوان في أمره لما تردّد لحظـة واحدة في القبول .

كان ذلك ، قبل ان يجتمع الامراء حول حليل المريض ، بعشره ايام .

يقول بعض المؤرخين ، وهم النفر القلائل ، ان ابن حبشية سادن الكعبة ، أوصى لحبى بحجابة البيت ، وجعل فتح الباب واغلاقه لأبي غبشان الذي قرأت اسمه ، ولكن البعض الآخر ، وهم الفريق الكثير ، يقول ، ان هذه الحجابـة جعلها حليل لولده المحترش ، كما تقدم .

* * *

– ١٣ –

من هو أبو ضمرة هذا ؟؟

انه كما عرفت ، من اولئك الناس الذين يمشون الى اغراضهم على جثث القتلى

ولا يبالون . بل من اولئك الناس الذين تقوم جرأتهم بالخبث والرياء وشجاعتهم بالغدر والطعن من الوراء . والحجابة التي هي فوق العروش ، كانت امنية نفسه ومطمح نظره . يستهوي لأجلها قومه ، ويسعى بالحيلة والدهاء ليجعلهم جميعهم انصاراً له في أمره ، يوم يغمض الموت عيني ويخلو له الجو .

ولم يكن هنالك من يخشاه غير زياد بن كعب . . بنو بكر بن عبد مناة راضون بما قسم لهم الزمان، وبنو مالك بن كنانة ينسأون الشهور للعرب ولا يطمعون في المزيد، وليس في ولد حليل من يسبقه الى التربع في عرش الكعبة، إلا بني صوفة ، فسيدهم طماح ينظر الى العلاء . ولا يقف في كبريائه وطموحه عند حد .

ان زياداً وحده هو الذي يخشاه ، فمظاهره مظاهر رجل قوي الشكيمة شديد المراس ، لا يلين له ولا يعبأ بزهوه .

وقد نقل اليه انه يقول لقومه : ابو ضمرة يطمع في الحجابة كما يطمع المرء في الوصول الى الشمس .

وهذا القول وحده يكفي لأن يجعل الواحد منهما عدواً للآخر ومن ذلك الحين ، اي قبل ان يبرز قصي الى الساحة، بل قبل ان يقدم مكة خلقت حجابة البيت في صدري الرجلين بغضاً هائلاً قاتلاً لا تنزعه يد القدر ، ولا تمحوه ظواهر النعومة والأنس البادية على الوجهين .

فلما قذف القضاء بقصي الى الحجاز وملأ دهاءه وعظمة نفسه قلب سادن الكعبة ، اضطرب الاميران الطامعان من جديد ، وأيقن كل واحد منهما بأن هذا الشامي سيحول بينه وبين غايته ، وقد مرّ في الفصول التي قرأت ، كيف تلاقى زياد وقصي في قصر الامير الاكبر ، وكيف ان زياداً لم يستطع في ذلك الاجتماع ان يخفي بغضه وعداءه وراء ستار من المجاملة والخبث .

على ان ابا ضمرة كان ادهى وأبعد نظراً ، فهو لم يشأ ان يرى قصياً وجهاً لوجه ، لئلا يخونه هدوءه فيفضح نفسه . بل عمد الى وسيلة هي اضمن الوسائل

وافظعها لنيل الاغراض ، وكتم جميع الناس سره إلا رجلين اثنين باح لهما به كما سيجيء . اجل عمد الى الخلاص من عدوّيه بالقتل ، ليس كما يقتل الرجل رجلاً ، في براز ، وفي وضح النهار ، بل بالسعاية التي قام بها في بلاط النعمان ، وبتدبير آخر اعدّه لزياد .

انه لا يجسر على الظهور بمظهر العدو ، بل يلبس للناس ثوب الصديق ثم ينفث السم الذي يقتل لساعته . وقد أراد ان يبدأ بقصي .. ا قصياً في نظره أبعد اثراً وأعز موقفاً من أمير صوفة ، فإذا تمت له الغاية من قتله هان عليه ان يقتل الآخر ساعة يشاء . وكان قد عرف من اهل الشعاب انفسهم ، ان ولدي كلاب دخلا بلاط الحارث الغساني ليريا ما فيه ، فخلقت قريحته تلك الفكرة القاتلة وشدّ رحاله قاصداً العراق ليقضي على الجاسوس العربي الذي يشتغل لحساب الشام . ! ولا تنس انه شاور زياداً في أمر الحجابة على رجاء ان يستميله في الساعة الأخيرة فلم يستفد شيئاً ، فخرج من قصره وهو يضع المنهاج الذي يبني عليه حياته . ومرت الايام حتى شلت يدا حليل ورجلاه وآوى الى فراشه ، وكانت تلك الجلسة التاريخية التي لم يستطع خوفاً من الفتنة ان يظهر فيها نفسه ! فرأى ان يجمع رؤساء الاحياء . وينظر معهم في الأمر الذي صاروا اليه دون ان ينمّ عليه طمعه . وفي ذلك الاجتماع يعرف كل ما يقوم في الاذهان .

وراح غلامه ، سراج بن الاسود ، وهو شقيق طلحة بن الاسود غلام زياد ، يسأل الامراء بأسم مولاه ان يوافوه الى الموضع الذي تعودوا ان يجتمعوا فيه ، وكان مجلس الشورى عندهم ، في ظل شجرة كبيرة تقوم وراء الكعبة لجهة الشرق .

فبادر الامراء اليه ، سعد بن بكر ، وزياد بن كعب ، وثمانية آخرون ينوبون عن البطون والاحياء . وليس فيهم من يجهل الامر الذي دعاهم لأجله ، فلما ظللتهم شجرة الشورى ، قال ابو ضمرة وهو هادىء ، كأنه يحدثهم بما يعنيهم جميعهم من أمر البيت : أتوافقون سادن الكعبه ايها الأمراء في كل ما صنعه أمس وانتم تعرفون ضعف المحترش واستهتاره وانصرافه الى الخمر يشربها من الفجر الى الليل

لا يبالي بشوؤن العرب ؟

قالها ، وجعل ينظر الى زياد بعينيه الناريتين ،

فقال سعد بن بكر : وماذا نفعل وقد لجأ حليل في آخر الامر الى الوصية وهي شريعة البيت منذ كانت الولاية لجرهم الى اليوم ؟

– ولكنها وصية جائرة .

– ومع ذلك فنحن مكرهون على قبولها كما هي الا اذا عمدنا الى العصيان وحملنا لواء الثورة .

واي شيء يمنعنا من هذا .؟

فسكتوا .. ! اذا لا يجسر احدهم على ابداء الراي .

قال : أتخشون حاجب البيت وهو عاجز ؟

– بل نخشى ابناء عمنا الذين حوله .

– لا أحسبهم ينتصرون له وهو يصارع الموت .

– ونخشى ايضاً ذلك الكناني الذي يطيعه قومه .

قال : لا يطيعه من قومه غير الفتيان وهم أضعف من ان يبرزوا الى الميدان.

فقال زياد : ألم تسمع خداشاً يقول ان قصياً سيدهم جميعاً .؟

– تلك كلمة خرجت من الشفتين . وهب ان اهل الشعاب جنود له فهم لا يقاتلون أهل مكة .

قال : الشجاع لا يفرّ من الساحة عندما يكثر القوم . انكم تنظرون الان في امر الحرب قبل ان تنظروا في أمر آخر .

قال : ما هو ؟

– أترون ان المحترش أهل للولاية ام ماذا ؟

– لقد رأيت انه ليس أهلاً لها .

– اذن يريد الأمراء ان يخلعوه ليولوا سواه .

فبرقت عيناه قائلاً : نعم .

– ولكن ، انخلع رجلاً ونحن لا نعلم من يخلفه في ولايته ؟

فقال القوم : اذا كان لا بد من الحرب فقد اصاب زياد . اذكروا من يخلف المحترش .

فقال أبو ضمرة : يخلفه الذي تختارونه الان . اختر يا ابن كعب من تشاء .

فقال دون ان يتردد : لقد اخترت هذا .!

واشار الى سعد بن بكر ، وهي قنبلة اراد ان يقذف بها لتظهر اغراض أبي ضمرة .

وكانت قنبلة كما ظن . فان الاضطراب بدا على الرجل وتحيّر الأمراء في ذلك الموقف الفجائي الذي دفعهم زياد اليه . ماذا يقولون الآن ؟ أيرضون بسعد بن بكر سادنا للكعبة وهم يعلمون ان أبا ضمرة يطلبها لنفسه ، ام يهينون سعداً وهو حاضر ويظهرون له انهم لا يرغبون فيه ؟

وطال سكوتهم حتى حسب زياد انهم لم يسمعوه . فـــأعاد قوله وهو ينظر اليهم واحداً واحداً .

فقال سعد : ما فكرت قط في الحجابة ولم يخطر لي ان اطلبها ،. فاذا اردتم فاختاروا لها غيري .

فأجابه زياد قائلاً : ليس لك ان ترفض قبل ان تسمع اراء القوم فيك ، اني اراك أجدر الناس بها فلا تتردّد في القبول .

– أبو ضمرة اجدر مني بها فاسألوه .

فقال أبو ضمِرة : انا لها اذا ارادها القوم لي .

فابتسم زياد وهو يقول : ونحن قد اخترناك ، على ان تتهيأ للحرب وتعدّ العدة للصفوف .

قال : نحن متضامنون .

– نعم وذلك في القتال وحده ، اما المال والسلاح فهما منك

– أتطلبون هذا وانا منكم والقضية قضية الحجاز كله ؟

- ليس هنالك شأن للحجاز كما ترى ، انها قضية اشخاص وانت تريد ان

تكون صاحب عرش فافعل كما يفعل اصحاب العروش وابذل مــــالك لقومك الضاربين حولك بالسيوف .!

وكيف يبذل أبو ضمرة درهما واحداً من مال الحرام الذي انقضت الاعوام وهو يــــدفنه في دهليز قصره ??! وكيف يعدّ السلاح وعند أهل مكة الشيء الكثير منه ?? انه رأي لا يستطيع ان يرضى به وله عقل ، فأصفر جبينه وهو يقول : اذا فعلت هذا أمسيت فقيراً يا زياد .

- ولكن الحجابة ، اذا توليت أمرها ، تمطرك مالاً .

قال من يعلم فقد يغلبنا المحترش ومن حوله .

فأجابه وهو هازيء : اراك تقول ان بني كنانة لا يقاتلون أهل مكة ثم تخشى ان تنتهي الحرب بظفر المحترش، اتراه يظفر بالفريق القليل الذي يبقى له؟

قال : يخيل اليّ ان ولدي كلاب يحملان قومهم على الدفاع .

- اذن لا تطمع في ولاية تخاف ان يسلبوك اياها .

- ونرضى بحاجب البيت السكران .?

- أجل فليس لنا حيلة الا بهذا الرضى .

قال : أتقبلون ?

فقال سعد : نعم وذلك خير من ان نقسم قومنا وتشمت بنا العرب .

- ولكن الولاية ستنتقل الى قصي ، ان لم يكن اليوم فغداً .

قال : لا تنظر الآن في شيء لا وجود له .

- سيوجد بعد حين فتدبرّوا أمركم في هذه الساعة .

فأجابه زياد قائلاً : اذا حدث هذا الانتقال كانت الحجابة لك لا لسواك . قوموا ننصرف .

ونهض عن الارض ولم يترك لأبي ضمرة مجالاً ليسأل سؤالا آخر فتميز الرجل غيظاً وقال في نفسه : لاتصبح الكعبة ملكاً لي وقصي وزياد باقيان ، فلتقتلني الآلهة ان لم اقتلهما !

ومشى يريد قصره والنار تتأجج في صدره. اما ابن كعب فكان يهزأ في سره
لابتسامة لا تفارق شفتيه .

* * *

في قصر أبي ضمرة الخزاعي ، مخدع صغير يقوم وراء قاعـــة السلاح وفي المخدع صنم من تراب ، وضعه خالد بن هبيرة جـــدّ ابي ضمرة يوم بنى القصر الذي ذكرت وكان يسجد ويصلي لهوهو في آخر عمره لا ينتقل مـــن بيته الى الكعبة ليخاطب أصنامـــها . فلما توفاه الله ، بقي الصنم لولده ثم لحفيده كما كان له . لا تمتد اليه يد ولا تمس له حرمة .

وليس للمخدع غير باب واحد يخرج منه الى قاعة السلاح ، كما قرأت ، وغير نافذة واحدة تطل على الوادي ، ونسا القصر وغلمانه يعرفون ما فيه ولكنهم لا يعلمون ان له سرداباً يؤدي الى الخـــارج . وبابه ، في النهار والليل . مغلق على صنمه ، لا يفتحه غير أبي ضمرة في ساعـــات ليس لها أجل ، وقد يدخله معه غلامه سراج ثم يخرج منه ويبقى مولاه . فتقول النساء : لقد كثرت صلاة ابي ضمرة في هذا العام . وهنّ لا يجسرن ، بناء على امر رب القصر ،على الدنو منه ساعة يكون فيه ، وعندما يخرج ، يغلق بابه وباب قاعة السلاح ويضع المفتاح في حزامه لا يسلمه الى احد من الغلمان . ولم يكن يفعل ذلك فيما مضى ، بل لم يكن يدخل ذلك المخدع الا بضع مرات في السنة ، وفي ايام معلومة هي اعياد العرب في الحجاز ،

فلما كثر دخوله وخروجه ، كثرت الظنون ، وقام في الاذهان انه يفعل هذا لاجل المال الذي يضعه فيه وليس لاجل الصلاة .

ولو دنا احـــد العبيد من الباب ، لسمع صوت مولاه يهامس صنمه . بل يهامس رجلاً او رجلين من لحم ودم .

نعم ، كان هنالك رجلان يرسلان لحيتين : احداهما سوداء والاخرى بيضاء وعيونها كعيني الذئب لا تهدآن في محجريها ، وأهل القصر ، الا سراجاً ، لا يشعرون بوجودهما في المخدع المقدس الذي جعله خالد بن هبيرة للعبادة .

ومن اين لهم ان يشعروا بهما ، وجميع حاجاتهما تقضى من السرداب الداخلي وسراج يحمله اليهما ما يطلبان دون ان تراه العيون . !

وكـأن الرجلين في بيت منفرد بعيد عن الناس ، لا يبصران غير الذي يزورهما ، بل لا يتنشقان الهواء الحر الا من النافذة ! انهما سجينان . ولا يريدان ان يخرجا الى العالم الا اذا تم لهما الأمر الذي يسعيان اليه . ولماذا يخرجان ورب القصر كثير العناية بهما . بـل لماذا يخرجان والافق مكفهر . والسماء تحجبها الغيوم السود . والجو الأغبر المضطرب ينذر بالعاصفة الهوجاء ، فليبقيا اذن ، في قدس الاقداس ما طاب لهما البقاء . ولنقص على القارىء حكاية وجودهما فيه ، بعد ان نعرفه بهما .

* * *

لنعد الى الزمن الماضي الذي قتل فيه عبدالله مولى زياد بن كعب ، ولنمش وراء جبير وعدوان بعد ان تركا الوادي ، على ذلـك الطريق الذي يؤدي الى اليمن ، وهما هاربان ،

انظر انهما تركاه .. تركا الطريق الذي ذكر ، وصعدا الجبل العالي القائم على الجانب الغربي ، الذي يفصل بين تهامة والحجاز . واستترا وراء الصخور ، ريثما يسدل الليل حجابه ويبسط ظله الاسود على ذلك القطر ، الذي يخافان من فيه . وبعد بضع ساعات رأيا الخيل . والقوم يتفرقون في طلبهما وسمعا اللعنات يقذف بها فم زياد ويستنزل عليهما غضب الآلهة ، فجعلا يبتسمان لذلك المشهد الجديد الغريب ويهزآن بالرجال الذين يروحون ويجيئون باحثين عنهما . . !

ولماذا لا يبتسمان وهما على القمة والقوم في الوادي لا يـكاد أحدهما يصعد الجبل حتى يهبطا منه الى موضع آخر يختفيان فيه !

ذلك ما كان يفكر فيه عدوان وهو ينظر الى القوم ، غير ان ذلك التفكير لم يجاوز المساء ، فان الرجال لم يلبثوا حتى تراجعوا يتعثرون بالفشل .

ومضت ساعة اخرى وهما جالسان في ظـل الصخر وجبير لا يفكر إلا في الفرار ، على ان يقوده مولاه الى البلد الذي يشاء ،

هذا يطيع الآخر دون ان يتردد في الطاعة ودون ان يقول كلمة .

فلما سكتت الاصوات وساد الصمت الوادي ، قال عدوان لسيده : لننزل الآن فقد رجع القوم ليحملوا جثة قتيلهم الى مكة ، ويبكوا العبد الصالح الذي تصدى لنا ففاجأه الموت .

قال : أتريد اليمن ؟

فهز رأسه قائلاً : أنرحل الى اليمن فيتبعنا القوم بعد شهر ويبثوا حولنا العيون ..

– ولكن الى اين ؟

– الى تهامة فلنا فيها اخوان وانصار .

وتقدمه نازلاً من الجانب الآخر حتى بلغا تهامة يسترهما الظلام وقد أمنا كل خطر في ذلك الليل .

وليس أخبر من عدوان بطرق الجزيرة ومغاورها ، وسهلها وجبلها ، فهو يعرف اين يختبيء واين ينام ، حتى وصلا الى البلد الأول فاستراحا فيه يومين كاملين على ان يتركاه في اليوم الثالث الى بلد آخر يضيع في السهل الذي يشبه الصحراء ، وكان سراج بن الاسود ، غلام ابي ضمرة ، في ذلك البلد ، يحمل لمولاه منه بعض صنوف المسك والطيب ، فرأى الاثنين وعرفهما رغم ذلك المظهر الغريب الذي يظهران به .

وكان يعلم ان مولاه وجبيراً صديقان . وبين الاثنين صلة ولاء وثقت عراها الاخلاق .. والايام ، فدنا منهما وهو يجهل الحادث الفظيع الذي جرى ، وفاجأ جبيراً بقوله : لقد قيل في مكة انك في ضواحي يثرب ولم اكن اعلم انك تقيم بهذا البلد . فذعر جبير . ثم تردد في الجواب ، ذلك لأنه سمع الصوت قبل ان يرى صاحبه .

اما عدوان فكان قد رآه فقال : انا هنا كما ترى .. ولكن من قال في مكة اننا نقيم بيثرب ؟؟

– سمعت الناس يتحدثون بهذا وخبرت مولاي ابا ضمرة بما سمعت ويقولون

فيها ان جبيراً لا يجسر على الاقامة بمكة بعد الذي حدث بينه وبين زيـــاد بن كعب .

قال : تعال نجلس وراء هذا الجدار ثم تقص علينا ما تعلم.

وجلس الثلاثة وسراج يروي لهما الاخبار كأن الاثنين لا يعرفان منها شيئاً وقد فاته انهما كانا في مكة وهما يعلمان كل شيء.

ثم قال عدوان : ماذا فعل مولاك ؟

– أوصى رجاله الذاهبين الى يثرب ، بأن يبحثوا عنكما فيها ويسألوكما بأسمه ان ترجعا الى مكة لتقيما بالقصر .

– أتقسم برب الكعبة انه فعل ذلك ؟

– أقسم برب الكعبه اني صادق فيما قلت ...

وكان عدوان يعلم ان أبا ضمرة الخزاعي يكره زياداً كما يكره الشيطان ولا يتردد لحظة واحدة في ان يدفعه بيديه الى اشداق الموت ، إذا استطاع ، فقال : نقيم بالقصر وزياد يطلبنا ؟؟

– نعم ومولاي لا يبالي به ولا يعبأ بما يفعل ، كما انه لا يسلم جـــاره الى عدوه ولو كان من الملوك .

– اعرف ذلك يا سراج ولكني لست واثقاً .

– ألا تثق بي وانت تعرفني كما تعرف مولاي ؟

– لقد ثبت لمولاك ان زياداً يطلبنا أليس كذلك ؟

– بل ثبت له انه لا يريد ان تقيما بمكة .

قال : هذا يكفي ومـــع ذلك لم نبصر له وجهاً ولم نسمع له صوتاً يرتفع في سبيل الدفاع عن جبير .

قال : ليس من الرأي ان يوقد نار الحرب لأجل هذا .

كما انه ليس من الرأي ان يجعلنا في قصره فيستهدف للأخطار .

– انصح لكما بالرجوع الى مكة فذلك خير من الالتجاء الى الناس الذين لا يطيقون ان يغضبوا ابن كعب .

– دع عنك هذا يا سراج فقد حدث في مكة اليوم ما لا تعلم .

فقال مستغرباً : ماذا حدث ؟

– لقد قتل عبدالله ودفن في الوادي .!!

– ومن قتله ؟

– نحن الاثنين وعندما يبتسم لنا الحظ مرة اخرى نقتل زياداً.

– ومع ذلك فأنا لا أفهم ما تقول ، أتقيان بتهامة وتقتلان عبدالله وهو جار البيت ؟؟

– بل كنا في مكة نقيم بها ولم نبلغ تهامة إلا منذ يومين .

وجعل يروي له الحادث كما جرى وهو يتفرس فيه كأنه يقرأ افكاره واسرار قلبه .

فقال : اذن سيملأ زياد جزيرة العرب عيوناً .

– اجل وسنترك تهامة بعد حين وقد نذهب الى الحيرة فنستجير بالنعمان ونعيش في ظله .

– بل تعودان الى مكة وتمكثان فيها حتى تجيء الساعة التي تستطيعان فيها ان تذبحا زياداً كما ذبحتما مولاه !!

فتظاهر اللعين بالتفكير ثم قال : ومن يضمن لنا ان أبا ضمرة يرضى بأن نقيم عنده بعد الذي جرى ؟

– انا أضمن ذلك .

قال : نسيت ان اذكر لك ان طلحة ابن الاسود يخدم أمير صوفة !

– طلحة أخي ؟؟

– نعم اخوك وهو الذي دلّ عبدالله على المضرب الذي كنا نقيم به .

قال : اعرف ان طلحة يطوف في الاسواق ليخدم الحجاج وقد يجلس عند حياض الماء في فناء الكعبة يومين وليلتين لا يذوق فيهما طعاماً حتى يحسن اليه احدهم بما يكفيه يومه !

قال : يخيل اليّ ان زياداً سيجعله من غلمانه .

– وهذا معناه ان الزمان يمهد لك سبيل الظفر . !

– أتعني ان طلحة سيكون عوناً لنا على سيده ؟

– ان طلحة لا يخون احداً فهو نبيل الخلق طاهر الوجدان . ولكننا نحمله على الخيانة دون ان يعلم من أمرنا شيئاً .

و كيف ذلك ؟

– آخذ منه اسرار مولاه وانقلها الى مولاي .

– وتضمن هذا ايضاً يا سراج ؟

– اجل وأقسم برأس أبي ضمرة ورأس الصنم الذي وضعه في القصر جده خالد بن هبيرة .

فأطرق . وقد بدا على وجهه ، انه لا يثق بذلك القول ، على رغم الصراحة التي يحدثه بها غلام الخزاعي .

وقد قرأ سراج تردده فقال له : ألا تريد ان تكون آمناً ؟

– وماذا اريد غير هذا .

– اذن ارجو ان تعمد الى الوسيلة التي تبلغ معها الغاية .

ففاجأه بقوله : اقترح عليك ان تبعث احد الغلمان الى مكة يحمل رسالة الى مولاك وتبقى انت في تهامة ريثما يعود .

– وتكتبها انت ؟

– بل يكتبها مولاي جبير بأسمك وتنتظر الجواب .

قال : لقد فهمت الآن فأنت تؤثر ان تسمع رأيه قبل ان تخطو خطوة واحدة الى مكة .

– قل اني سأدعوه الى تهامة واحادثه كما احادثك الآن .

قال : افعل ما يطيب لك فقد رضيت . ومشى الثلاثة يبحثون عن ذلك الرسول الذي يحمل رسالتهم فلم يلبثوا حتى وجدوه ؛ فكتب جبير : الى ابي ضمرة الخزاعي ، من مولاه سراج بن الاسود :

« ارجو ان يجيء مولاي الى تهامة عندما يقرأ هذه الرسالة ورسولي اليه

يدله على الموضع الذي انتظره فيه »..

وحمل الرجل رسالتهم واقاموا ينتظرونـه ،وعدوان لا يغفل عن الطريق الذي يؤدي الى البلد ، يتفحص فيه احوال القادمين . حتى انه لم ينس ان يراقب الفضاء ويتفرس في طيور السماء ؛ وكان مضطرباً خائفاً ، لا يغمض لـه جفن ، لأنه يعرف ان أمير صوفة لا ينام على ضيم .

* * *

عندما مثل الرسول بين يدي أبي ضمرة ، كان زياد بن كعب يفكر في ارسال عبد اللات بن حارثة وعمرو بن الاسود للبحث عن جبير ؛

ولم يكن يزيد بن ربيعة قدهم بالسفر لهذه الغاية .

فلما تناول ابو ضمرة الرق المكتوب خيل اليه ان سراجاً اصيب بسوء، فقال للرجل قبل ان يقرأ : ويلك من اعطاك هذا

قال : ستقرأ فيه اسم من اعطاني اياه ..

قال : أسراج حي ؟

– لا اعرف اي رجل من الثلاثة هو سراج ، اقرأ يا مولاي ، ثم مر بما تشاء ...

فقرأ ، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : الرق من سراج ، ويقول الرسول ان ثلاثة رجال اعطوه اياه ، فمن هما الاثنان الآخران ؟

فاجابه الرجل : لا اذكر الاسماء يا مولاي .

– وماذا تذكر اذن ؟

– اذكر انهم ارشدوني الى الموضع الذي يقيمون به لأدلك عليه اذا اردت الرحيل غداً ، عند الفجر .!

– ولكنك تصفهم لي ؛

فجعل يذكر اوصافهم فلم يعرف منهم غير غلامه ، ذلك لأن جبيراً وعدوان كانا يخفيان وجهيها فلم يقدر الرجل ان يصف ذينك الوجهين .

فقال : صف الجسمين ..

فلما وصف جسم جبير لمعت عينـــاه وهو يقول : لقد عرفته وسنترك مكه غداً عند الفجر كما قلت ..

وكان الامر كما قال ، فان ابا ضمرة يركب بعيره في فجر اليوم الثاني يريد تهامة ، ودليله ذلك الرجل الذي يذكر الصفات ، ولا يحفظ الاسماء .

* * *

وفي تهامة تلاقى المتآمرون ..

اجل . كانوا متآمرين يحملون من الحقد شر ما تحمله الصدور ؛

وقد عتب ابو ضمرة جبيراً ، على تحجبه في مكة ، واقدامه على قتل عبدالله دون ان يقول له كلمة ؛ فقال عدوان : خفنا ان يعلم زياد اننا في جوارك فتنشب الحرب وهذا ما لا يريده مولاي ..

– والآن ؟

– أمـــا الآن فقد سألنا سراج ان نرجع الى مكة فـلم نشأ الرجوع قبل ان نراك ...

قال : سنرجع اليها قبل ان تخرج رسل زياد الى الجزيرة .

– أيبعث رجاله للبحث عن جبير ومولاه ؟

– نعم وهؤلاء الرجال يعدون عدة السفر كما عرفت .

قال : لنتحدث بجلاء يا مولاي ، أتريد ان نعود لتظهر للناس اننا جيرانك ام ماذا ؟

– بل نعود لنقتل رجلاً آخر تهتز له اركان البيت .

– ولكن لا اظن انك تريد قتله اليوم .

قال : نهيء الاسباب وننتظر الساعة التي نخرج فيهـــا من وراء الستار ، أعرفت الرجل الذي أعنيه ؟

– عرفته فهو زياد نفسه .

– احسنت وقد يكون هنالك غير زياد ..

– اذن تريد ان تقتل رجلين احدهما امير صوفة .

-- نعم .

- ونحن لا نعود الا على هــذا الامل فان مولاي لا يطيب له العيش الا اذا استراح من زياد ومن صفوان بن الحارث .

- ويتبعهما قصي بن كلاب الطامع في العرش .

- أتظن ان حماه يجود بها عليه ؟

قال : يظفربها بعد موته فالمحترش لا يستطيع ان يحتفظ بشيء .

- ولكن الامراء لا يرضون .

قال : سيبذل الجهد كله ليستولي عليها بالسيف .

- وماذا يبقى لك ؟

يبقى ان أخضع له كما يخضع جميع الناس ،

فابتسم قائلاً : اذا تحدت خزاعة كان اضعف من ان يمد اليها يداً .

قال : لا تتحد وابن كعب يرغب في الحجابة .

لقد فهمت الآن فان الاثنين يجب ان يموتا ليخلو لك الجو .

- اجل وهذا ما ننظر فيه ونحن في القصر .

- واي امر تعد لحليل ؟

-- ان الزمان يعد له ذلك الامر .. ألم تره يجر رجليه جراً وهو ذاهب الى الكعبة واذا هم بالجلوس ارتمى على مقعده كما يرتمي السكران لا يطيق ان يرفع رأسه ؟ انه شبح فانٍ لا نعبأ به ولا ننظر اليه الا كما ننظر الى السحابة السوداء تغطي وجه السماء ثم لا تلبث حتى تزول ..

اذن تبدأ بقتل قصي .

- لا أعلم الآن فقد أبدأ بزياد .

قال : اما زياد فقد سلم اليّ القضاء امره فلا يموت الا من يد مولاي .

فقال جبير ، وكان ساكتاً : دعوا زياداً فهذا لي . ورب الكعبة ان لم يظفرني الله به في المجال ، دخلت قصره في وضح النهار ، وطعنته بخنجري هــذا طعنة واحدة يلفظ بعدها روحه في حضن ابنته وعينا ابيه تنظران ... ثم ابحث عن

صفوان بن الحارث واضع الطعنة في صدره حيثما وضعتها في صدر الآخر وينتهي الامر؛ فضحك عدوان وهو يقول: ولا يبقى بعدئذ الا ان يشهد الحجاز زواجك وتنعم بليلى الى الابد ..

قال : لا تهزأ فسترى بعينيك جثتي الرجلين ..

قال : بل جثة زياد وحده اما الآخر فخير لك أن يبقى ليشقى في غرامه كما تشقى ويضيع رجاءه ..

فقال ابو ضمرة : أيؤثر حياة صفوان على موته ؟

- اجل ولكنها حياة افضل منها الموت ،!

غير ان جبيراً لا يرضى الا بان يعرف كل شيء فقال : كثيرا ما سمعت منك هذا وانا لا اعلم غرضك ..

- سيظهر هـذا الغرض بعد حين ، يكفي الآن ان تحتفظ بالعمامة الخضراء وهذا كل ما استطيع ان ابوح به ..

فقال ابو ضمرة : واي رأي لك في قصي ؟

- لو لم يكن عدواً لك لرأيت ان يعيش ، أتعلم لماذا ؟

قال : لا .

- ليسابق زياداً في ميدان الطمع ، ثم يقهره .. ثم يموت بعد ذلك مكسور القلب .. نعم ، ان قتله لا يبرد لنا غليلاً ؛ فيجب ان يموت في حياته عشرين مرة قبل ان نسفك ذلك الدم ، افهمت الآن ؟ ولكنه عـدوك وانت تريد ان تنجو منه فليكن ما تريد ..

وكيف نقتله يا عدوان ؟

- اذا رجعنا الى مكة نظرنا في امر قتله ..

- ولكنك راجع مع جبير ..

- اخشى ان يفسد رجوعنا علينا امرنا ..

قال: كنت في وادي مكة لا يحجبك غير اربعة استار من الصوف ولم تكن خائفاً ، أفيدب الذعر في قلبك عندمـــا تقيم بقصر امير خزاعي لا تصل اليك

فيه العيون .؟

ـ يكفي ان يرانا فيه الغلمان فيفضحونا ..

ـ لا تقع عليك غير عين سراج هذا .

ـ وكيف ندخل قصرك وهو يغص بالعبيد والنساء ؟

ـ ندخله من باب صغير لا يعرفه اهل القصر واجعل لكما مخدعاً سرياً تقيمان به هو مخدع صنمي ..

ففكر عدوان قليلاً ثم قال : نرجع والويل لزياد ..

ومكثوا في تهامة بضع ايام ثم رحلوا عنها الى مكة . واغرب ما في الامر ان الليلة التي دخلوا فيها القصر كانت الليلة التي خرج في صباحها عبد اللات ورفيقه الى بلاد العرب . ثم لحق بها يزيد وصفوان يفتشون عن قاتلين لا يبعدان عن كعبة العرب غير بضع خطوات ...

أعرفت الآن ايها القارىء ذينك اللذين يحرص عليها ابو ضمرة في قصره ؟ انها جبير وعدوان قاتلي عبدالله !

* * *

عندما نزل الاثنان في ذلك القصر ، اصبح عدوان وحده دماغ المتآمرين لا تطرف لرفاقه الثلاثة : ابي ضمرة وجبير وسراج ، عين الا باذنه .

هو يفكر مـا طاب له التفكير ، ثم يجعلهم رسلاً لأفكاره . فكان في ذلك سيداً لهم تنحني له رؤوسهم ولا يسألونه عن امر ولو كان فيه الموت ، وهو الذي اشار على ابي ضمرة بان يدعو امراء القوم ويحدثهم بشأن الحجـابة ، بعد ان اوصى بها حليل لولده كما مر .

فلما تصدى زياد لأبي ضمرة ، في ذلك الاجتماع ، ووافقه القوم في الاعتراف للمحترش بحق الامارة ، ترك ابو ضمرة مجلس الشورى كما قرأت ، واقبـل على المخدع المقدس ينقل الى عدوان وابن عبادة مـا سمعه وكان يرتجف من الغضب وهو يقول : لقد فرغ الصبر ولم يبق الا ان نعمد الى الخنجر ؛ فضحك عـدوان ولم يكن يفرج كربه ذلك الخزاعي غـير تلك الابتسامة الجهنمية التي تبدو على

ثغر اليمني ؛
ثم قال : أعد علي كلام زياد ،
فأعاده فقال : انه ادهى وابعد نظرا من القوم .
– ومن اين لك ان تعرف دهاءه ؟
– من حديثه الذي تقصه علينا الآن ، أرأيت انه كان اسبق الناس الى الاعتراف بابن حليل .
– واي دهاء يقوم باعترافه ؟
– انه يثبت لمن حوله احترامه مقام البيت ، ويظهر لهم – وهو الطماح الكثير الطمع ، ان ما يراه سادن الكعبة يراه اهل مكة جميعهم دون ان يستثني احداً .
– والغاية من هذا ؟
– اما الغاية منه فهي أنه اذا بدرت منك بادرة ارتفعت اصوات القوم قائلين : هذا عصيان .. وخروج عن العادة .. وقاموا الى سيوفهم يلتفون حول زياد ويحفظون تقليدهم الذي انقضت عليه الاجيال ، ثم ينتهي الامر بان يضربك احدهم ضربة يصرعك فيها فتتم لهم الغاية من قتلك .
قال : ليخرج جبير من عزلته وليظهر في فناء البيت وانا احميه .
– لماذا ؟
– لكي يراه زياد ثم يأمر بالقاء القبض عليه فأتصدى له كما تصدى لي ويعرف من هو الظافر .
قال : ذلك امر لم تأت ساعته ايها الامير .
– ومتى تأتي هذه الساعة ونحن نعيش كما ترى بالتحجب كما تعيش الاسرى
– نعلم اولاً ما في صدر زياد من اسرار ثم نفعل ما نشاء .
– أيبوح لك الرجل باسراره وهو ادهى الناس كما تقول ، وانت عدوه لا تجسر على الظهور ؟
– بل يبوح بها غلامه طلحة لأخيه سراج وسيذهب سراج الآن .

– ولكن احذر يا سراج ان يراك ابن كعب فهو يعلم انك غلامي .

قال : اني اعرف اين ارى طلحة والويل له إذا ذكر اسمي لمولاه .

فقال عدوان : ولا تنس كلمة واحدة مما قلته لك. اما انت ايها الامير فاختر لي من غلمان قصرك اثنين يحسنان الطعن من الوراء ، كما يحسنان الكتمان .

– وهل جاء دور قصي ؟

– نعم فاذا كان لا بد من قتله فليقتل اليوم ..

قال : في القصر عشرة غلمـــان هم اشجع فتيان مكة فسأختار لك منهم من تشاء .

– ولكن ارجو ان تعلم في اي هزيع من الليل ينزل قصي من الشعابهي الى قصر حاجب البيت ..

– ذلك سهل عليّ فسأرسل من يعلم ذلك .

– وتستطيع منذ الليلة ان تحلم بسدانة الكعبة ، بل تستطيع ان تثق بانها لك كما تثق بنفسك ..!

قال : اذا توليت امر البيت يا عدوان جعلت لمولاك جبير امارتين وسلمت اليك شؤون الحجاج وهم حول حياض الماء .

قال : يكفي ان تزف ليلى الى مولاي وتكون له امارة واحدة .

فاجابه جبير قائلا : نفسي عطشى الى الدم اكثر منها الى الحب .

فقال : ستغذي العاطفتين وتسكر من الخمرتين . !

* * *

– ١٤ –

كان طلحة يعد نوق سيده كل صباح ومساء كما كان يفعل عبدالله ولا يرجع الى القصر الا عندما تأوي النوق الى المربط ويقوم حولها الرعاة .

وطلحة كما علمت شريف النفس طاهر القلب ، اذا احبّ احبّ باحساس طيب وشعور ، والموت عنده خير من ان يخون زيادا في امر او يكذب في قول،

ولم يتعود منذ صغره ان يبغض احد . بل نشأ يحب اباه ، ويذكر امه التي لا يعرفها ، ويحفظ الجميل والفضل لاخيه سراج ، الذي كان يعطف عليه ويحن اليه بعد موت أبيه .

ولم ينس ، وهو في قصر امير صوفة ، ان يوافي اخاه ، من حين الى اخر ، الى الموضع الذي تتلاقى فيه الغلمان . ويقصّ عليه ما يراه من معروف زياد وبره به. على انه لم يكن يعلم من قبل ، ان مولاه عدو لابي ضمرة سيد اخيه ، وهو الى الان لا يعلم ان سراج نفسه يضمر البغض لزياد ، ويحاول الاطلاع بواسطته على جميع اسرار القصر ، ومن اين له ان يعلم وهو حديث العهد في حياة القصور ، وخلقه الكريم النبيل لا يسمح له بأن يشك في احب الناس اليه .

كان يبوح لأخيه بكل ما يعرفه ، بنفسه مطمئنة وضمير هادىء ، وكان اخوه ، قبل هذه المؤآمرة الجديدة ، يستقبل تلك الاسرار بالنفس المطمئنة والضمير الهادىء،دون ان يكون هنالك اغراض يسعى لنيلها بالتحبب والدهاء. اما اليوم ، ففي سراج ، غير ما كان في نفسه بالامس ، وهو اذا حدّث اخاه فانما يحدثه لاجل تلك الغاية التي هي خدمة المتآمرين . وقد اقبل عليه في مساء ذلك اليوم والابتسامة على ثغره وهو يقول : اراك تقضي بعد الهزيع الاول من الليل وانت خارج القصر . !

— وماذا اصنع ومولاي لا يثق باحد كما يثق بي ، وانا اكره ان يضيع مال المحسن اليّ ويخسر منه شيئاً .

— وكيف يخسر مولاك وعشيرته تمطره مالا واهل مكة يحبونه وليس له بينهم عدو .

قال : أما العشيرة فكما قلت ، واما اهل مكة فله فيهم اعداء احدهم الامير الذي تعيش في ظله .

— ابو ضمرة !؟

نعم ابو ضمرة ! ولكن هذا العدو لم يظهر بعد .

قال : لم اشعر قط ان في صدر مولاي شيئاً من هذا .

قال : نعم انه يستطيع ان يخفي بغضه وراء مظاهر حب كاذب .
- ليبغض ما طاب له البغض فليس لنا في ذلك رأي ونحن لا نعلم اسبابه .
- بل نعلمها فهي هذه الحجابة التي نطمع فيها الاثنان .
قال : انها حكاية جديدة يا طلحة !
- اجل وستتبعها حكايات عندما يطوي التراب سادن الكعبة .
قال : لقد كثر طلاب الحجابة في مكة حتى ان قصي بن كلاب يحدث نفسه بان يخنف حماداً .
- هكذا يقولون وسيتنازعها الثلاثة بالسيف والنار .
- اذن فمولاك لا يحب ذلك الكناني !
- نعم لا يحبه ولا يريد ان يستولي على الارث الذي لا يملك مثله النعمان بن أمرىء القيس ،
- ولماذا لا يتفق عليه الخزاعيان ؟
- الان مولاك لا يرغب في ذلك وقد قصد العراق ساعيا بقصي لدى النعمان ابن امرىء القيس ،
- واي شأن لزياد بهذا ؟
- معنى هذا ان أبا ضمرة لا يريد ان يشارك احداً في مساعيه فهو يمشي الى غرضه في ظلام الليل .
- ومن قال له ان مولاي سافر الى العراق ؟
صفوان بن الحارث ابن عم قصي .
فجعل يهز راسه ويقول: خير لنا نحن الغلمان ان لا نسمع مثل هذه الحكايات .
- ولكنا سمعناها ونحن نرويها كما وردت ولا نزيد عليها كلمة .
- لقد ذكرت لي من قبل ان صفوان لم يعثر على جبير وان زواجه لا يتم الا إذا حمل لليلى رأسه أفيصر مولاك على طلبه ؟
- اجل ولكنه سيبعث بعض رجاله هذه المرة الى بلاد الناس يبحثون عن القاتل فإذا فشلوا ترك البحث واذن في الزواج !

– أسمعت اليوم شيئاً عما جرى في اجتماع الامراء ؟
– لا ولكني رأيت مولاي يحادث اباه وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف ..
قال : لقد اجمعوا على الرضى بالمحترش .
فسكت طلحة قليلاً ، ثم قال : لقد حان موعد رجوعي الآن وسأراك غداً في هذا المكان .
قال : أيقضي مولاك ايامه ولياليه كلها في قصره ؟
قال : يطوف بين مضارب عشيرته كل يومين او ثلاثة وقد يذهب وراء نوقه الى الجبل عندما يضيق صدره .
– ولكن نسيت ان اسألك عن ليلى فكيف هي ؟
– عاشقة .. يبعد الزمان عنها من تهواه وحالها حال جميع العشاق الذين يقطعون الرجاء . ان ليلى يا سراج اجدى نساء الجنة والرجل الذي يضمها الى بيته هو اسعد الرجال .
فتمتم يقول : مسكينة لقد ظلمها زياد .
فخفض صوته قائلاً : ماذا تقول ؟
– اقول ان زياداً لو زفها الى جبير في ذلك الحين لكانت اليوم ربة بيت كبير من بيوت العرب .!
– لا اعرف جبيراً هذا ولكني اسمع انه ليس من النبلاء .
– يكفي ان المال الذي يحمله في جرابه يزيد على مال الحجاج .
– أما المال فبعض الناس لا يحبونه وليلى منهم ،
وترك سراجاً وهو يقول : الى اللقاء .

* * *

كانت علة حليل تزيد وتشتد .. وحبى تقوم بالعناية به لا تفارقه لحظة واحدة ، وقد شعرت ، بل لمست بيديها الاثنتين ، ان الموت قريب منه .
وقصي ، بين مكة والشعاب يعنى بأمر مريضه وامور قومه لا ينسى شيئاً ولا يغفل عن شيء .

اما المحترش ، فكان يجلس بباب الكعبة ساعة ، وفي القصر ساعة لا يطيق ان يمكث اكثر من ذلك في الموضعين . ليس لأن اباه يصارع المنون ،. بل لأن الحجابة من ناحية ، ووفود الناس في القصر من الناحية الاخرى ، تحول بينه وبين الخمر التي كادت حشاشته تذوب شوقاً الى طعمها المسكر الخلاب .! ولولا مرض ابيه لما كان يعبأ بالناس.. ! إنه يشربها على أقدام الآلهة في جوف الكعبة ولا يبالي .! وقد نسي ما وعد به اباه يوم اوصى له بالولاية ، نسياناً كاملاً تاماً لا يذكر منه كلمة ! كأن ذلك الحديث لم يكن قط .!!

اجل ، لولا ذلك المريض لما رآه احد صاحياً ولما استطاعت الحجابة ان تحرمه لذة السكر .!!

كان يخشى ان يسكر فيثور القوم ويطلبوا بأن تخرج الامارة من يده بعد ان اصبحت له . إنه اذا خسرها خسر قضيته التي اشتغل لأجلها بضعة اعوام ؛ اي منذ رأى اباه يرغب في قصي بن كلاب .. وتلك قضية سياسية كما رأيت .. فيها الحكمة والدهاء .. لقد كان يكره ان يتولى أمر البيت واحد من خزاعة ، وذلك رأي ذكره لأبيه وصهره يوم تحدثوا بشأن الزواج . بل كان يكــــره كل خزاعي مهما يكن أمره . ولا يطيق ان يرى الكلمة الاولى في الحجاز لرجل من هؤلاء ..! وكان يعلم كما يعلم سواه ، ان الوصية لا تردّ إلا بالسيف ، وبنـــو خزاعة اضعف من ان يردّوها، في ذلك الحين ، فبات شديد الحرص على حجابته خوفاً من ان يغير حليل رأيه فتنتقل الى غيره . وهو لا يريدها لنفسه ولا تخطر بباله ، بل يريدها لصهره فيضمن في ذلك عزه وعـز اخته . وينصرف الى لهوه وسكره كما كان يفعل في حياة ابيه !. ويحرم عشيرته اياها الى الابد .

وهذا ابلغ عمل يرضي به حقده ، على القوم الذين قضوا زمانهم يستخفون ويهزأون به ، وكانت سياسته ان يهجر الخمرة ويصبر ريثما يموت ابوه . ويصبح هو سيد الناس ، فيعمد عندئذ الى ذلك الحق الذي عمد اليه حليل قبله ، ويهب الولاية لقصي .. وفي تلك الهبة يمشي الفريق الكبير من خزاعـــة الى جانب

صي ، ويكثر اشياعه وانصاره .

هذه هي سياسة المحترش ، واغرب ما فيها انها سياسة رجل ضيعت نصف عقله الخمر ، ووضعت البلاهة يدها على النصف الباقي .

وكان قصي يعرف ما في صدره ، ولا يفوته سر واحد من اسراره ، وهو الذي كان يملي عليه الترفع عن الخمر ، والصبر الى النهاية ..

على ان للخمر حكاية اخرى لم يقصها قصي على احد ، ولكن الزمان الذي يفضح الاسرار قصها عنه ، ونشر للناس بعد اجيال ، ما اراد الكناني الداهية ان يطويه .

كان يمنعه بالحسنى عن الشراب ، ليس لأنه يخشى ثورة القوم فحسب ، بل لكي تحرقه الخمر بنار الجفاء . ويبرح به الشوق ، فتتوق نفسه اليها كما تتوق نفس الظمآن الى الماء . ذلك كان هوى قصي ، فإن المحترش كان يذكرها لمنْ حوله في نهاره ، ويحلم بها في ليله ، وهي امام عينيه دائماً مشعشعة في الكأس. وأي غرض لابن كلاب بايقاد النار على ما رأيت ؟؟ كان غرضه ان يستعين بها على أمره ويجعلها الوسيلة لنيل غايته . وهو لم يقف عند ذلك الحد ؛ بل بعث رجاله يشترون الخمر الموجودة في مكة ، بالمال الذي يطلبه اصحابها ، دون ان يعلم احد ما في نفسه ويضعها في مكان له لا تراه العيون . واوصى اولئك الرجال بان يظهروا للناس انهم سيرسلون ما اشتروه الى يثرب ليبعد عنه الظنون فاصبح المحترش وليس في الحيّ زق خمر يجرع منه جرعة واحدة اذا طاب له الشراب . ثم انصرف قصي بعد ذلك الى وضع المنهاج الذي ينهجه في حياته الجديدة ، ولم ينس ان يراقب عدويه زياداً وابا ضمرة ومن حولهما من امراء .

حتى بلغه ان القوم في مجلس الشورى احترموا الوصية وان كل شيء انتهى كما اراد . وهي ابتسامة فتانة من ابتسامات الاقدار ، فطابت نفسه وقام على العناية مع زوجته بالشيخ الفاني الذي هيأ له اسباب الجلوس على العرش .. وقد ذهل عن الزمان وجور اهله .

ولم يقم في ذهنه قط ، ان أبا ضمرة الجبان يجرأ علـى الظهور مرة اخرى بظهر الحسود الغدار .

* * *

الطريق الذي يؤدي الى الشعاب طريق واسع تصعد فيه كل يوم النـوق والخيل ، ولكنه طويل يكره الناس ان يسيروا عليه . فيعمدون الى طريق آخر اقصر منه ، يشبه لضيقه السراديب . غير انهم ، قبل ان ينتهوا من الجبـل ، ويطأوا ارض مكة ، يدورون حول صخور صغيرة تقوم على شفير الوادي ، ثم تنبسط الارض امامهم وتمتد وراء البيوت ، كـأن ذلك المضيق وراء الصخور دهليز لا سقف له ، وليس في مكة واحد لا يعرفه ، لشهرة ذلك الوادي تحته ، وكثرة الحكايات التي يروونها عنه . حتى بالغت العرب في وصفه فقالت : انـه مضيق الموت .

اجل ، كان الموت يكمن في واديه ، ويفتح شدقيه لاولئك الناس الذين تقصر اعمارهم فيهوون الى الاعماق .

ولكن .. كيف يهوون والى جانبهم ذلك الحاجز الصخري الذي لا تزعزعه العاصفات ؟؟

انه اذن موضع جعله اللصوص والغادرون مضيقاً للموت ، ويكفي ان يضرب احدهم عدوه ضربة واحدة ثم يحمله بين يديه ويقذف به الى الهـوة .. فتسحق عظامه ، ويقول الناس في اليوم الثاني : لقد ذهب هـذا المنكود الحظ ضحية لظلام الليل .. !

* * *

كان مضيق الموت ، طريقاً لقصي الى مكة ، كل مساء ، ينام في قصر سادن الكعبة ، ثم يصعد الجبل كل صباح ليقضي نهاره في الشعاب بين قومه .

وماذا يصنع في الشعاب كل يوم ؟ يساعد فتيان كنانة ونساءها في بري السهام ثم ينصرف الجميع الى السيوف يلعبون بها على ظهور الخيل ، وبعد ذلك يجلس في فنـاء بيته لينظر في شؤون الناس حتى تغرب الشمس فيتقلد سيفه ، ويضع

خنجره في حزامه ثم يهبط مكة كما رأيت ، ولا يبلغ المضيق إلا وقد جنّ الليل ولبس حلة قاتمة سوداء تبعث الرعب الى كل قلب !

غير ان الاشباح التي تتراءى فيه لقصي ، كانت أضعف من ان تؤثر في ذلك الفتى الحديدي الذي لا يعرف قلبه الخوف . وهو في صعوده ونزوله لا يكون وحده ، فإن سودة الكاهنة أمرت كنانة بأن تختار له تابعاً لا يفارقه لحظة واحدة في الرواح والمجيء .

وقد عمد اركان حربه ، خداش وشيبة ، وزهرة وصفوان ومن حولهم ، الى الوسيلة التي لايعرفون غيرها في الاختيار .

يضربون بالقداح .. فالذي تخرج عليه يتناول سيفه ويمشي امامه الى مكة ثم يعود معه في صباح اليوم الثاني . كأن سودة كانت تعلم ان الاخطار تحيط به وانه منذ بدأ نجمه بالظهور بدأ هو يستخف بتلك الاخطار .

ففي احدى الليالي ، خرج قصي يتقدمه شيبة بن حبيب الذي خرجت عليه القداح في تلك الليلة ، واحتجبا ذلك الحاجز الصخري ، سمع شيبة صوت انسان يهامس آخر ، ثم هدأ الصوت . ولم يلبث حتى رأى شبحاً على قيد ذراعين ثم تبعه شبح آخر . ! وقد لمع السلاح في يد الشبح الأول ؛

فجرد شيبة سيفه ومدّ يده به قائلاً لقصي : احذر يا مولاي .

لكن الشبح الاول وثب كما يثب الذئب . وهمّ بأن يضع خنجره في عنق ذلك الكناني الجريء . فأصاب السيف المدود صدره فغاص بين الاضلاع .. فصرخ قائلاً : لقد قُتلت ..

فانتزع شيبة سيفه وهو يقول : لا اصدق انك قتلت ايها اللعين حتى اخذ رأسك بين يدي .

وكانت يد الشبح الآخر قد سقطت على الارض بضربة من سيف قصي فتراجع قليلاً الى الوراء وهو يصيح من الألم ، ثم ادار وجهه ولجأ الى الفرار ودمه يكتب على التراب سطوره الحمر ..

فقال قصي : لقد فر ذاك فلا سبيل للوصول اليه في هذا الليل . ولكن نسأل

هذا الجريح عنه .. اين خنجرك ايها اللعين ؟

فلم يجب .. فقال : اضرب عنقه يا شيبة واقذف بجثته الى الوادي ؛

فقال وهو يتململ من الالم والخوف : هذا خنجري فخذه فلا خير فيه .

فانحنى فوقه وهو يلمس سلاحه حتى وجده فقال : خذه يا شيبة ، اما انت فما اسمك

– واي نفع لك من ذكر هذا الاسم ؟

قال يطيب لي ان اعرف اسم الغادر النذل الذي اراد قتلي .. اذكره قبل ان يفرغ الصبر ولا تكذب ..

قال : سنان !

– ألأنتما اثنان أم اكثر ؟

– لو كنا اكثر من اثنين لما انتهى الامر عند هذا الحد ..

قال : أصبت ..! ومن هم قومك ؟

– لا قوم لي ولا أعرف لي نسباً ..

– ويلك ألا تعرف أباك ؟!!

– أبصرت نور الوجود وانا بين حجرين امي والآخر ابي !!

– وفي أي حي نشأت ؟

– في عشرين حياً من احيـاء العرب حتى قذفت بي الاقدار الى مكة منذ عشرة اعوام .

– ومن علمك ان تكمن للناس وتـفك دماء الابرياء ؟

فخفض صوته وهو يرتجف قائلاً : عدني انك تحفظ حيـاتي اقص عليك كل شيء ..

قال : تحاول ان تشتري حياتك ايها الجبان بحكاية كاذبة يمليها عليك خوفك من الموت الآن ؟

– بـل أقسم اني ابوح لك اذا وعدت ، باسم من علمني القتل ، وسلح يدي بهذا الخنجر لأطعنك به .!

– انا ؟

– نعم انت قصي بن كلاب صهر حاجب البيت ،

فخفق قلب الفتى ، وعرف عندئذ ان الجريح يعرف من هو وانه صادق فيما يرويه، فقال له : حياتك بيدي فلا اعدك بشيء، ولكني اذا رأيت سرك يستحق العفو صفحت عنك وحملتك الى اول بيت في مكة تعالج فيه جرحك .. قل الآن ولا تتردد والا فستنام في جوف هذه الهوة الى الأبد ، ووضع السيف على عنقه فرأى المسكين ملاك الموت يمد اليه يديه القويتين ، فاضطرب قائلاً : ارسلنا الى هذا المكان ... مولانا .. بو ضمرة لخزاعي ..

فارتجفت ركبتا قصي وجلس بالقرب منه وهو يقول : أهو مولاك ؟

– نعم وهو منذ عام يفكر في قتلك ولا يجسر على ان يتصدى لك وجهاً لوجه ...

قال : لقد أنسانا أبو ضمرة هذا جميع من حولنا من الاعداء .

وقال شيبة : أبو ضمرة في العراق .. وفي مكة ، وفي كل مكان اذن فليمت ويجب يا مولاي ان تهدر لقومك دمه ..

قال : اذا استعان على امره بالغدر استعنا على امرنا بالصبر حتى تجمعنا الاقدار . هات ايضاً يا سنان .

قال : سل عما تشاء !

– اسألك عن رفيقك الآخر فمن هو ؟

– غلام من غلمان ابي ضمرة اسمه مرة بن شهر من بني قيس .

– لقد عاد الى مولاك بيد واحدة يقص عليه ما جرى وهو واثق بانك قتلت .

قال : واخشى أن يجيء مولاي الآن ومعه رجاله فيبلغوا الغاية من قتلك فانج بنفسك وانا ازحف زحفاً الى البيوت .

فابتسم بمرارة قائلاً : لو كانت لمولاك هذه الجرأة لما عمد الى السعاية التي هي سلاح الجبناء ولما استعان بالليل ليغدر بعدوه . اني لا اخاف مولاك ولو كان

وراءه ألف رجل .

قال : اسأل ايضاً ان شئت قبل ان ينزف دمي .

فـــاجابه هادئـاً : اين كانت جثتي وجثة شيبة الآن لو استطعت ان تغمد خنجرك في الصدرين كما علمك مولاك ؟

فتمتم يقول : في هذا الوادي .

– وماذا يمنعني الآن من أن أمثل معك الدور الذي اردت ان تمثله معنا منذ ساعة ؟

فاختنق صوت المسكين في صدره ثم جعل يبكي كما تبكي الاطفال .

فقال : رجال الخنجر والسيف لا يبكون .

– وما هو ذنبي يا مولاي وانا عبد لأبي ضمرة .

قال : يقدر العبد على رغم مولاه ان لا يكون غادراً .

– ولكن العصيان جزاؤه الموت .

كما ان الطاعة ، كما هي الآن جزاؤها الموت ، احمله يا شيبة وارم به فتتحطم عظامه .

قال : أتفعلها يا ابن كلاب وقد خنت مولاي لاجلك ؟

– بل خنته لاجل هذه الحياة الخبيثة التي تريد حفظها . اطلب ما تشاء قبل ان تموت .

قال: اذا قتلتني، سألت الآلهة قبل ان الفظ الروح، ان تحرمك العرش الذي تطمع فيه ، فقال لشيبة : لقد أمست اسرار الأمراء على شفاه الغلمان . ان هذا العبد يعرف من امر الحجابة ما لا تعرفه انت !!

– بل اعرف مـــا لا تعرفه انت يا قصي ، الا تريـد ان تشتري بالعفو سر مؤآمرة اخرى لا تعلم منها شيئاً ؟

قال : يظهر ان مولاك يطبخ المؤآمرت في قصره ثم يوزعها على الناس بالخناجر المسمومة في ايدي انصاره . وقام في ذهنه ان المؤآمرة التي ذكرها تعني المحترش فقال :

لقد اصبح المحترش سادنا للكعبة وابو ضمرة غير راضٍ أفيبعث اليه مـن يقتله ليمشي الى الحجابة على جثث اعدائه ؟

– بل هنالك امير آخر لا يطيق مولاي ان يبصر ظله .

– من هو ؟

زياد بن كعب وسيجيء دوره بعد ايام ، فردد اسم زياد اكثر من مرة ، ثم نهض عن الأرض وهو يقول : ما نحب ان نسمع شيئاً بعد .

– وهل نجوت ؟

– بل تموت فلا خير في غلام يفضح سيده عندما يلمع السيف فوق رأسه .. وحمله الاثنان وهو يصيح ويستغيث ويستحلفها بكل ما في الكعبة من اصنام وقصي لا يبالي .. حتى وضعاه فوق الصخور ولم يبق الا ان يدفعاه بأيديهما فيتدحرج ، ويصبح جسده قطعاً واشلاء قبل ان يبلغ الارض ؛ فانبطح على الصخر وقبض عليه بيديه وقد صبغتهما الدماء وهو يقول : استبقني يا قصي اكن لك عبداً ما بقيت ..

قال : لا احتاج الى العبيد الخونة الأذلاء ...

قال : اجعلني عيناً لك انقل اليك اخبار القصر الذي اعيش فيه .

قال : ما كنت قط غادراً لألجأ الى الغادرين ..

ثم خطر له خاطر فقال : اصفح عنك على أمل أن أراك مرة أخرى ، أتقسم لي انك تفعل ؟

– أقسم بالسماء والارض اني اطيعك طاعة عمياء لا قيد فيها ولا أسألك عما تأمرني به ..

فساعداه حتى استوى في مجلسه وقال له : متى يرسل أبو ضمرة غلمانه ليقتلوا زياداً ؟

– لا اعلم ولكنه لم يشأ قتله قبل ان يحمل اليه رأسك ، انه يريد يا مولاي ان يغدر بخصومه واحداً بعد واحد حتى لا يبقى منهم في مكة احد يفسد عليه أمره ...!

قال : حسناً نحملك الآن الى البيوت فتستغيث بأصحابها ، وتذكر لهم انك من غلمان الخزاعي فلا يترددون في حملك اليه .

- وبعد ذلك ؟

- ولكن احذر ان تذكر لهم او لمولاك سم قصي وشيبة ؛ انك ان فعلت انتزعتك من بين يدي ابي ضمرة وقطعت لسانك ، كما قطعت يد مرة الآن وعين مولاك تنظران ...

- سأقول يا مولاي ان اللصوص تصدوا لي وطعنوني هذه الطعنة القاتلة التي لا يجف دمها !

- قل مـــا تشاء فمن كان مثلك لا يستصعب اختـلاق الحكايات التي ليس لها أصل ...

ثم ماذا ؟

ولا تقل لمرة انـّا عرفناك .

اهذا ما ترغب فيه يا مولاي ؟!

- اما الذي أرغب فيه فهو انك ستعرف الساعة التي يكمن فيهـــا رفاقك الغلمان لزياد بن كعب أليس كذلك ؟

- نعم ..

- وتعرف المكان الذي يقتلونه فيه .

- نعم ..

- اذن فاعلم انه يجب ان أعرف الزمان والمكان كما تعرفهما انت .

- ومعنى هذا ان انقل اليك خبرهما ..

- اجل وذلك قبل الذهاب الى القتل بيوم واحد .

- واين اراك ؟

- في قصر سادن الكعبة او في الشعاب ، على ان لا تنسى ان تجيء الي قبل الموعد كما ذكرت لك . ثم قـال : ولا تحسب يا سنـــان انك نجوت من يدي ، فورب البيت ان لم تفعل ما آمرك به طلبتك ولو كنت فوق الغمام .

– سيتم كل شيء كما اردته يا مولاي ولكن لنفرض ان أبا ضمرة جعل هذا الموعد بعد عام ..

– واذا كان هذا ؟

– ونفرض ايضاً انك لم تكن في الحجاز في ذلك الحين . فكيف استطيع ان أفي بوعدي .

– اذا كنت بعيداً عن الحجاز تبحث عن شيبة بن حبيب هذا وتقول له ما تريد ان تقوله لي ، وان لم يوجد شيبة فاذكر ذلك لحبى ، أفهمت الآن ؟

قال : لو ذكرت لي يا مولاي ما تريد ان تفعله في ذلك اليوم لساعدتك فيه. أتريد ان يقتل زياد ام ماذا ؟

فضحك قائلاً : لست أبا ضمرة لأبوح للعبيد بالاسرار ، اكتف بما سمعت وقم نحملك الى البيت الأول .. وتعاون الاثنان في حمله . فأحس الجريح ان روحه تخرج من جسده ، فصاح قائلاً أخشى ان اموت قبل ان ابلغ الحي ..

فاجابه قصي : لو كانت عينا الموت تنظران اليك لما بقيت الى هذه الساعة اخفض صوتك وضع يدك على الجرح فستعيش .. ومشيا بتعب ، حتى وصلا الى البيت الاول فوضعا حملها خارج الفناء واتجها الى قصر حليل وهما يتلفتان الى الوراء .. ان الغدر كثير في مكة فيجب ان يحذرا ..

وكانا ساكتين حتى جاوزا ذلك الحي . فقال شيبة : أتريد ان أسألك يا مولاي عن بعض ما سمعت ؟

سل ما تشاء !

– اي شأن لك مع زياد بن كعب حتى تهتم له ؟

– اما زياد بن كعب فهو عدوي وانا اريد ان احفظ حياته كما احفظ حياة ابي ضمرة ..

– تفعل هذا وهما يكيدان لك ؟

– اجل واوصيك من الآن ان تكتم جميع الناس ما سمعت ورأيت لأني لا اريد ان يتحدث اهل مكة بامر يعنيني وحدي .. ولي ايضاً وصية اخرى ارجو

ان ترددها في نهارك وليلك كي لا تنساها .

– ما هي ؟

– هي اني لا احب ان يموت زياد كما قلت ..

– لقد فهمت ذلك يا مولاى !

– ولكنك لم تفهم ما اريد بهذا القول . ان ابا ضمرة سيرسل رجاله في احدى الليالي ليقتلوا امير صوفة وسينقل الي سنان اخبار هذا القتل قبل وقوعه كما رأيت .

– : نعم .

– واخشى ان يطلبني سنان في ذلك اليوم ، فلا يجدني في مكة فينفذ السهم ويذهب زياد ضحية الغدر .

قال: ألم توصي الغلام بان ينقل الخبر الى مولاتنا حبى ثم الي اذا كنت غائباً؟

– بلى وهذا ما اريد ان اوصيك واوصي حبى به ، فأصغى شيبة كي لا تفوته كلمة من تلك الوصية .

فقال قصي : عندما يذكر لـك سنان موعد القتل تبحث عن صفوان بن الحارث وتقص عليه الحكاية كما سمعتها .

– وبعد ذلك ؟

– تأمره باسمي بان يزور زياداً ويذكر له ما ذكروه لك، ثم يدعوه الى الحذر دون ان يعلم اني ذلك الرجل الساهر علي حياته .

– اذن يجب ان يكون صفوان وحده صاحب الفضل .

– نعم وليبق معه حتى يجيء اصحاب ابي ضمرة ليأخذوا رأسه ولا يفارقه قبل ان يلمس بيده نجاته من الموت .

– ولكن لماذا لا تدعو صفوان غداً وتأمره بما سأنقله اليه بعد ايام ؟

– لاني اوثر ان اخفي حادث الليلة عن جميع الناس الا حبى فلا تلج في السوءال .

قال : أتأذن لصفوان ان يبوح لزياد باسم ابي ضمرة ؟

- اجل على ان يعده زياد بالكتمان . والان فاذا دخلنا قصر حليل فاتبعني الى الدهليز الغربي لنخفي اثار الدماء .

وعادا الى السكوت حتى وصلا ، وحليل على فراشه تحسبه ميتاً لولا اختلاج عينيه .

* * *

في غرفة صغيرة من غرف القصر ، خبر قصي زوجته ما جرى له في ذلـــك الليل واوصاها بعدوه زياد كما اوصى شيبة .

فاطرقت حبى ملياً ثم قالت أليس لك ياقصي غرض خاص في اختيار صفوان بن الحارث لانقاذ ابن كعب ؟

- بل لي غرضان . ولولاهما لا كتفيت بارسال عبد من عبيد كنانة يحمل الى امير صوفة خبر المؤآمرة .

قالت : اذكرهما اذا شئت !

قال : اما اختياري صفوان فهو انه يحب ليلى ويرغب في ان يجعلها زوجة له .

فابتسمت وهي تقول : اعرف ذلك كما تعرفه انت .

- ولكن هذا الحب سر لم يبح به صفوان لاحد الا لي وليزيد بن ربيعة .. فكيف تعرفينه كما اعرفه ؟!

- لقد اعترف لي احد العاشقين بهذا الحب .

- صفوان نفسه ؟

- لا ، انه لم يعترف الا لك كما قلت ، كما ان ليلى لم تعترف إلا لي .

- وهل تزورك ليلى في هذا القصر ؟

- ليتها تزورني فأرى ذلك الوجه الضاحك والثغر البسام . اني لم ارها منذ تزوجت .

- ومتى كان اذاً ذلك الاعتراف ؟

- كان قبل الزواج ، فقد باحت لي بغرامـها وبحت لها بغرامي؛ ومنذ ذلك الحين وهي تعلل النفس بالامل وتعدها الاقدار بلقاء من تحب .

– وبعد ذلك ؟

– لم ادرِ ماذا جرى بعد ذلك ، اجل لقد رأى الناس صفوان في قصر زياد اكثر من مرة ؛ ولكنهم لايعلمون اي مقام له في ذلك القصر .

قال : حبى ! ايحدثكِ الناس بأمر ليـــلى وانتِ لا تسالينها ؟ إنْكِ إذاً لا تذكرين عهد الولاء وايام الصبا .

– بل أذكر ليلى ولا أنساها .

– اذن ماذا ؟

– لقد كرهت ان اسألها عن شيء وابوها عدوٌ لك .

– ولكن هذا العداء لا يؤثر في خلقي . ان صفوان إبن الحارث اخي وهو في نظري خير من في عشيرتي من رجال ؛ كذلك هي ليلى ، احبها صفوان فاحببتها انا ، وسأسعى لأجعل الإثنين زوجين ، وقد بدأت بهذا السعي الآن .

قالت : ألا يكفيهما الحب الذي يبسط فوقهما جناحيه ؟

لا ، ان الحب لا يكفي ، اذا كان والد ليلى غير راضٍ به ؛

فاستغربت قائلة : زياد لا يرضى ؟

– هذا ما ظهر لي وسأحمله على الرضى .

قالت : ما حسبت قط ان ابن كعب ينسى المعروف ويرد المحسن اليه .

قال : لم يرده ولكنه يتردد في القبول ويطلب منـــه رأس ابن عبادة مهراً لأبنته ، وفي هذا الطلب شيء من الدهاء .

وروى لها رواية صفوان مع آل كعب .

فقالت : والآن ؟

– اما الآن فقد ارسل زياد بعض رجاله يبحثون لـه عن جبير ووعد الفتى بالزواج عندما يعودون .

إذاً كان صفوان يفتش عن قاتل عبدالله في بلاد العرب .

– نعم واذا اردتِ الآن ان تعرفي الغـاية من اختيار صفوان لإنقاذ زياد من سيف الغادر فاسمعي .

قالت : عرفتها فانت تريد ان ينقذ حياته مرتين ليستحق ليلى .

– اجل وهذه خير وسيلة يظهر معها صفوان بمظهر أشراف العرب الذين يحفظون الولاء ويظهرون النبالة والمروءة الى النهاية .

– وانت ترى ان زياداً يرضى بعد ذلك بان يزف ليلى اليه وينتهي الأمر

– لا أدري ولكنها وسيلة لا أرى بداً من الالتجاء اليها لأحيط بني كعب بنطاق من الجميل والفضل .

– وغايتك الاخرى ؟

فظهرت الابتسامة على شفتيه قائلاً : يجب ان يعيش ابو ضمرة وزياد ويتنازعا السيادة، لأبني مجدي على ذلك التنازع ،وأرى الواحد منهما يسحق الآخر .

ثم قال : وقد وعدت صفوان ان لا أعرض لزياد بسوء إلا إذا تصدى لي .. وعدته وانا اخشى صاحبه . ويقوم في ذهني انه سينفخ في صدور رجاله من وراء الستار ، روح الثورة والعصيان . ومن يكفيني شره اذا فعل ، وهو لا يبرز الى الساحة ، وانا لا استطيع ان أرى خيانته بعيني والمسها بيدي ؟. ان ابا ضمرة وحده يكفيني هذا الشر .

واعلمي يا حبى ان رجال مكة اليوم فرق ثلاث : الاولى وهي اضعفها تتبع المحترش اعترافاً بفضل ابيه واحتفاظاً بذكرى الاخلاص والولاء ، وتمشي الثانية وراء أبي ضمرة وهي شر الفرق واشدها بطشاً وابعدها اثراً ؛ وأما الاخرى فهي بنو صوفة ومن حولهم من فروع القبائل في مكة ، وسيدهم زياد بن كعب . فهي الآن ان المنتمون الى المحترش ينتمون اليّ ويستظلون بظل اللواء الذي احمله فمن يبقى في الميدان ؟

– بنو صوفة الذين ذكرت وبعض بني خزاعة وبني بكر .

اجل ، وهؤلاء رجال الاميرين الطامعين أليس كذلك ؟

– بلى .

– ولكن اذا قتل احدهما وخلا الجو للاخر فماذا يحدث ؟ . ان القوم عندئذ ينسون احقادهم ويجمعون صفوفهم ثم يحملون السيوف ليرفعوا قصياً

ناني الى العرش الذي يحلم به .
- بل يرفعون الأمير الباقي الى هذا العرش ..
قـال : يخيل الي انهم يؤثرون الغريب على احدهم .. هكذا يفعل اصحاب المطامع الذين تغلي مراجل الحسد في صدورهم وتتأجج فيها نار البغض ... أترين ان أبا ضمرة الذي يستعين عـلى امره بخناجر الغلمان واللصوص ، يرضى بان يرى العرب جميعها تحني رأسها لزياد وتعترف به اميراً للكعبة؟.
قالت : من يعلم فقد يخلق الزمان هذا الرضى ..
قال : يخلق الزمان جميع العجائب الا هذه وسترين !
- ومن يضمن لنا ان زياداً لا يشارك القوم في الدفاع ؟
- أما صفوان .. فقد وعده بذلك وسيتظاهر بالوفاء بما وعد غير اني لخشى ان يدفع قومه الى الثورة كما قلت .
قالت : لقد جعل الغرام صفوان رسول صلح .
- نعم وقـد تغلل هوى ليلى في اعمـاق نفسه ، كما تغلل حب الخمر في قلب المحترش . وسأبذل الجهد كله لتزف ليلى اليه قبل ان تأتي تلك الساعة التي يموت عندها الجهد ..
ثم غـيّر حديثه قائلاً : ماذا صنع المحترش اليوم ؟
- كان اليوم مثل امس ، يجلس بباب الكعبة حيناً ثم يترك مقعده ويجيء سائلاً عن ابيه ، وعيناه تبحثان عن كأس يشربها فيسكر ، كما كان يفعل قبل ان يصير حاجب البيت .
- ومن كان في القصر من امراء خزاعة ؟
ابو ضمرة نفسه وجعل يحدثه بامر الحجابة وهو لا يعبأ به ؛
فضحك قصي قائلاً : لقد اراد اللعين من وجوده في القصر غير ما تظنين ، انه كان ينتظر ان يجن الليل فينقل النـاس اليك خـبر قتلي في مضيق الموت وينصرف مطمئناً آمناً ، يحمل نصف الحجابة في يده ، عـلى ان يستأثر بالنصف الآخر يوم يقتل زياد ..

قالت : اصبت فهو لم يغادر القصر الا منذ ساعة .

– وسيحمل اليه غلامه الذي فر خبر نجاتي من الموت ثم يرى تلك النجاة يظهرها البليغ في جرح غلامه الآخر .. قومي الآن فان الساعة التي انتظرها قد أتت .

وتقدمها الى غرفة المريض، والأمل يكبر في صدره؛ وقد استيقظت ، لذلك الحادث الفجائي ، احلام نفسه ..

* * *

كان ذلك الغلام الجريح صادقاً في قوله .. وعد قصياً بان لا يذكر لأحد اسمه ووفى بوعده .. واهل ذلك البيت الذين استغاث بهم ، حملوه الى قصر ابي ضمرة وهم يقولون :

لقد تصدى له اللصوص وجرحوه ؛ فذاع الخبر في مكة في اليوم الثاني ، وتناقلته الافواه . غير ان الغلام الآخر الذي لجأ الى الفرار ، كان قد خبر مولاه كل شيء وذكر له موقف قصي ورفيقه في ذلك المضيق ؛ لكنه لم يكن يعلم ذلك لان الاتفاق جرى بعد فراره كما قرأت ؛

فتميز ابو ضمرة غيظاً .. ان غلاميه جريحان يجران اذيال الخيبة . هذا قطعت يده ، والآخر اخترق السيف صدره ، وقصي بن كلاب حر لم يصل الى جسمه الخنجر الذي اعده له ..

واقبل على سنان يستعيد الرواية . ويسأله ان يقص عليه النصف الباقي من الحادث الذي لم يشهده مرة بن شهر .. وكان سنان قد خسر نصف دمه وبدا عليه الضعف ، فقال له وهو لا يبالي بضعفه : لو رآك احد تطعن بخنجرك الهواء وتضرب بسيفك الفضاء ؛ لقال انك امهر الضاربين وهو لا يعلم انك شجاع في فناء القصر جبان في مضيق الموت .. ويلك كيف استطاع الكنانيان ان يغمد احدهما سيفه في صدرك ويقطع الآخر يد مرة ، وانتما تكمنان وراء الصخور كما يكمن الذئب ؟

فاجابه بصوته المختنق : لقد تصدينا لهما فكانا اسبق الى الضرب وهذا هو الخطأ ...

قال : كان يجب ان يمر الاثنان فتعمدا الى الخنجر ؛ ولكن مضى الآن ما مضى وقد ضيعتما املي واخشى ان تضيعاه مرة اخرى عندما تذهبان للقضاء على زياد بن كعب .

قال : اذا خاننا الحظ مرةً فلا يخوننا مرتين .

– وكيف استطعت الوصول الى الحي وانت جريح والدم يتدفق من صدرك ؟

– اغمي عليّ حتى ظن الرجلان اني لفظت روحي ؛ ثم صحوت بعد ساعة وقمت اتلمس الصخور واجرّ رجلي حتى وصلت .

– ألم يذكر قصي اسم رفيقه الذي استقبلك بالسيف ؟

تذكر سنان وعده فقال : كان يخاطبه وهو لا يذكر اسمه ولا اقدر ان اصف لك وجهه الذي اخفاه الظلام .

– ولكنك تستطيع ان تعلم من صوته أكان فتىً ام كهلاً ..

– انه اقرب الى الكهولة ..

قال : اتعرف صفوان بن الحارث ؟

– اجل ، فهو رفيق قصي في رواحه ومجيئه ولم يكن هو الضارب .

– وهل انت واثق بهذا ؟

– نعم فلو كان صفوان لرأيت عمامته التي يخفي بها وجهه وقد اشتهر امرها في مكة حتى تحدّث بها الغلمان .

قال : لصفوان ساعات يكون فيها سافراً ايها الابله .

– ومع ذلك فانا اقسم برب الكعبة انه لم يكن احد الاثنين !

قال : اجتهد الآن ان تشفى لننسى هذا الفشل .

– اسأل الآلهة ان تشفيني لأخدم مولاي .

فقال مرة : اما انا فليس لي امل بالحصول على يد اخرى استعين بها على

تنفيذ امرك .. وجعل يئن ويبكي من الألم .

فقال ابو ضمرة : هذا جزاء البلاهة والجبن . فاندب يدك وليبكِ سنان دمه الذي خسره حتى تعود اليكما الحياة.. واوصى عبداً له بالعناية بها وتركها لينظر في امره ، مع جبير وعدوان في غرفة الوحي ، وهو يلعن الاقدار التي خانته في العراق ، وفي الحجاز ، وجارت عليه بجرح غلاميه ..

* * *

مات مرة ، بعد خمسة ايام ليس غير ؛ وسنان يمشي بخطى واسعة الى الشفاء. وكان سكان المخدع المقدس يتشاورون ويضعون خرائط القتل .. وقد اختاروا ثلاثة رجال بينهم سنان ليقتلوا امير صوفة .. وقلب أبي ضمرة مضطرب غـــير مطمئن.. لقد كان يخاف ان ينتهي امر زياد بالفشل كما انتهى امر قصي ؛ فيفضحه بنو صوفة ويملأوا مكة اخباراً..بل كان يخشى ان يفشل رجاله فيسلم ابن كعب، والوصول الى الحجابة صعب عليه وابن كعب حي ..

أمـــا عدوان فكان يبتسم ابتسامة الخبث ويهزأ بمخاوفه والامير يراه وهو يعجب لمظاهر استخفافه .. ومن يستطيع ان يعلم اي فكر شيطاني يخطر لذلك الشرير الداهية الذي لا يطيب له غير التخريب والقتل ؟ بـــل أي رجل يخلق دماغه الوسائل المدمرة التي يخلقها دماغ هذا اليمني ؟...

مخيلة نارية.. وفكر من الفولاذ، وقوة غريبة مدهشة في التصور والاختراع. فهو أدهى المجرمين واعظم المفكرين كما رأيت ، الى حد انك لو اردت ان تدرس اخلاق ابي ضمرة الجاني ، سافك الدمـــاء وقاتل الابرياء ، لرأيته في جانب عدوان - ملاكاً من السماء . !

نعم... ابو ضمرة ، صاحب الحول والطول في مكة ، ضعيف ، عاجز يغمره الخوف ؛ وعدوان العبد الذليل والشيخ الفاني ، قوي قاهر لا تستطيع الادمغة الكبيرة ان ترد سلطان تصوره ، وتستهين بقوة رأيه ! ومنذ دخل ذلك الهيكل السري في قصر الأمير الخزاعي ، احس انه سيد الموقف ، يملي ارادته على مولاه

وعلى صاحب القصر كأنها من اتباعه ، والابتسامات الشيطانية لا تفارق ثغره ، في مواقف الشدة ومواقف الرخـاء ، حتى ليخيل اليك ان حياته كلهـا ضحك واستهزاء .

وتلك هي احدى طبائع الخبث والخداع في نفس ذلك الانسان الوحش؛ إنه يضحك كما يضحك النمر لفريسته ، وليس وراء ابتساماته غير الموت .

اجل ، وفي تلك الساعة ، ساعة حكموا على زياد بالموت كان ثغره ضاحكاً ، وكانت ملامحه ملامح فرح وحشي ..

وصاحب القصر يخاف الخيبة في المؤآمرة الجديدة كما مر ؛ فقال لعدوان : يقوم في ذهني ان زياداً سينجو من السيف، فحدق اليه ولم يجب، كأنه كان يحلق بالفكر في فضاء جديد مصبوغة غيومه بالدماء ..

فاعاد ابو ضمرة قوله وصوته يرتجف ؛ فاجابه قائلاً : اما انا فيقوم في ذهني انه سيموت ..

– كما قـام في اذهاننا جميعاً ، ان ابن كلاب لا يصل الى قصر حليل في تلك الليلة ، بل يموت بين صخور الوادي ..

– تلك بلاهة غلاميك فلا تعد الى ذكرها .

– ان البلاهة لا تفارق الغلمان وقد يخطىء الثلاثة غداً كما أخطأ الاثنان بالأمس ..

قال : لقد اعددت لهذا الخطأ دواء .

– خير لك ان تعد للغلمان عقلاً اذا استطعت .

قال : لينجُ زياد هذه المرة ولا ابالي .

– وماذا تصنع اذا نجا ؟

– ارسل اليه رجلاً يضربه بالسيف على مرأى ومسمع من رجاله .

– لا اظن ان في مكة رجلاً يجسر على ذلك .

فجعل يهز رأسه وهو يقول : ان الرجـــل الذي ذكرت لا يخشى الامراء وسترى بعينيك ..

قال : من هو هذا البطل العربي الذي لا اعرفه ..

– هو صفوان بن الحارث عاشق ليلى .

فاستولت الدهشة على الرجل . صفوان العاشق الذي برّح به الهوى والذي يبذل ماله كله لتكون ليلى زوجة له يكون قاتلاً ؟.. تلك كلمة لا يصدق ابو ضمرة انها خرجت من فم عدوان ؛ فاستعادها .. فاعادها اللعين وهو هادىء ..

فقال : لقد تحيرت فلا اعلم كيف اسألك عن هذا ..

– ستجلو الايام هذا الغموض الذي تراه الآن . قلت اني سأرسل ابن الحارث ليقتل زياداً وسأفعل .

– ولكن الفتى لا يفعل الا اذا خسر ليلى وحل اليأس في صدره محل الرجاء.

– ذلك شأني وسأنظر فيه .

– ومن يصدق انك تستطيع ذلك وصفوان بن الحارث عدو مولاك وانت لا تجرؤ على الظهور خوفاً منه ؟

– وهذا ايضاً من شؤوني يا مولاي فلا تسألني عنه .

قـــال : يجوز ان يخرج الفتى عن حده ، فتثور نفسه ويعمد الى خنجره ، فيقتل من تشاء ، واما ان تسلح انت يده وتبعث به رسولاً الى الموت ، فهذا لا يجوز ولا يخطر بالبال .

– اذا نجا زياد لمست بيدك هذا الذي لا تصدقه .

قال : ارجو الاّ تحدثني بالاسرار .

– وانا ارجو ان تحترم سري يا مولاي ولا تلج في الطلب .

قال : كلمة واحدة تقولها فتذهب ظنوني .

– لا استطيع الآن ان اقول شيئاً .. بل استحلفك بتربة ابيك وحرمة هذا الصنم ان تسعّر نار الحرب في مكة اذا قدرت .

– لا تنشب هذه النار الا اذا مد الكناني يده الى الكعبة ، واي غرض لك بالحرب ؟

– غرضي ان افصل رأس زياد عن جسده ولا يفصل هـــذا الرأس الا اذا اصطفت الصفوف في الميادين .

– اذن لا يقتل صاحبنا الا في ظلال السيوف .

– هذا الذي اراه الآن وليس لي حيلة الا في الصبر ريثما تتلاحم الرجـــال وتسفح الدماء .

وعـــادوا الى حديثهم عن المؤآمرة ، فجعلوا لها اجلاً ، وبدأوا يشحذون الخناجر التي اعدوهـا للقتل ، ثم حمـل ابو ضمرة ذلك « الوحي » الى سنان ، ووضع بالاتفاق معه خطة الهجوم في ظلام الليل؛ ثم دعا غلامين آخرين واطلعهما على ذلك الحكم الذي يريد تنفيذه ، واطمأنت نفسه بعد ذلك الاضطراب ، فقد وثق بان امير صوفة لم تكتب له الحياة وعدوان في الوجود .. ولكنه لم يصدق كلمة واحدة من ذلك الحـديث الذي ذكره اليمني عن صفوان بن الحـارث ، اذ ليس من المعقول ان يصبح العاشق المفتون عدواً وقاتلاً .

* * *

– ١٥ –

قيل لقصي وهو في قصر سادن الكعبة ان بالباب رجلا يريد ان يراك الآن .

فقـال : ادخلوه الى الدهلـيز الخارجي .. ثم خرج ويده على سيفه ، فرأى ملثماً جالساً في زاوية المكان وهو خائف مذعور .

فقال : أأنت الذي تطلب قصياً ايها الفتى .

– نعم وارجو ان تخرج معي الى الفناء فانقل اليك ذلك السر الذي ترغب فيه .

فوضع يده على جبينه كأنه ذكر الصوت ثم قال : ما اسمك ؟

فخفض الفتى صوته قائلاً : سنان يا مولاي ..

قال : سنان الجريح ؟ لقد عرفت الآن .. ماذا فعل رفيقك مرة ؟

– لقد مات .

– ويلك أيموت غلام ابي ضمرة ولا يعرف جيران قصره ؟

قال : لعله يكره ان يتحدث الناس بأمر هذا الموت ..

– بل يكره ان يقولوا ، ان اللصوص يجرأون على قتل غلمانه وهو من اكبر الامراء . وماذا صنعت انت ؟

– اتيت الآن اقص عليك ما عرفت وفاء بالوعد .

– وهل قضي الامر ؟

– نعم وحكم عليه كما حكم عليك من قبل .

ولم يشأ ان يقص حكايته وهو في الدهليز لئلا يراه العبيد ويسمعوه ، فسأله بخضوع وذل ان يرافقه الى الخارج .

فقال له : وأين خنجرك ؟

– ولماذا تسألني عنه يا مولاي ؟

– لأني اريد ان أراه واعلم اي موضع في جسمي امرك مولاك بان تضعه فيه.

– لو اردت ان افعل ما تقول لما جئت الى القصر في هذا الليل اسأل العبيد عنك ...

قـــال: قم فاتبعني فانا لا ابالي بالغادرين ! وخرجا الى الفناء حيث باح الغلام بالسر الذي يحمله ، وقصي يعجب لذلك الاخلاص الذي يظهره ؛ ثم قـال : لي كلمة اخرى قبل ان تنصرف يا سنان .

– وانا لي كلمة اقولها قبل ذلك ، مر يا مولاي بما تشاء .

قال : ألم تخدعني بهـذه الحكاية التي قصصتها الان ؟ قالها ليختبر لآخر مرة ذلك الاخلاص ؛

فاجابه قائلاً : اقسم بمن بنى البيت اني لم افكر فيما ذكرت .

– خيل الي انك خبّرت مولاك كل شيء، ثم وافقته في نقل هذه الرواية الي لتنصبا لي شركاً جديداً .

– واين هو هذا الشرك يا مولاي ؟

– يقوم هذا الشرك بوثوقي بك ..

قال : ارسل من تشاء من رجالك في الموعـد الذي ذكرته لك يتضح لك اني صادق في كل ما قلت..

قال : سأفعل كل ما يجب فعله في ذلك الموعد . قل كلمتك الان .

قال : انا اعلم يا مولاي ان القوم يتآمرون عليك ليقتلوك ؛ فيخلو لهم الجو في الحجاز ..

– وبعد ذلك ؟

– واعلم ايضاً ان الامر سينتهي بجلوسك في مقعد حليل .

قال ذلك امر لا يعرفه الا الآلهة .

– وانا من الآلهة يا مولاي ..

فجعل يتفرس فيه وقد احس ان هذا الغلام سيكون اصدق الناس في خدمته في حياتـــه الجديدة التي تعدها له الاقدار ، قال له : هب ان الأمر انتهى كما ذكرت فأي غرض لك ؟

اطلب ان تجعلني من غلمانك يوم تسود العرب .

– وتترك مولاك الذي نشأت في ظله ؟

فابتسم بدهاء قائلاً : عليّ عليّ الوفاء الّا اتركه اذا بقي .

فرأى قصي انه اذكى من رأى من الغلمان ، فقال : سأنظر في هـــذا اذا صدقت ظنونك .

– بل عدني الآن يا مولاي فانصرف مطمئناً .

قال : لقد وعدت فأذهب ولا تنس ما اوصيك به . ورافقه الى باب الفناء ، فخرج وهو يرى الرجال على الجانبين ، فتصدى له احـــدهم قائلاً : ويلك من انت ؟

فاجابه قصي من الداخل : دعوه ينصرف فهو من المخلصين .

فعرف سنان انهم من رجـال الشعاب ؛ فمشى وهو يقول في نفسه : ان الرجل الذي يحرسه هؤلاء الرجال لا يغلب .

وعاد الى قصر مولاه فخلا بسراج بن الاسود ساعة طويلة حدّثه فيها بأمر القضاء على زياد ، وسأله ان يشرح له من جديد خطة القتل . ففعل والاثنان يضحكان ويبتسمان لذكر الدم واحاديث الموت كأنها في عيد .

أما قصي ، فارسل الى صفوان من يدعوه إليه ، فلم يتردد صفوان ، في ذلك الليل ، في المثول بين يديه .

وكان حليل بن حبشية يتململ في فراشه ، ويئن من ألمه ؛ كان صهره يهامس ذلك العاشق الشقي ويطلعه على ذلك السر الهائل الذي هبط عليه من السماء ..

وكما اتفق سنان وسراج على تنفيذ الحكم ، اتفق الكنانيان على الدفاع دون ان يعلم صفوان ان غلام ابي ضمرة يخون مولاه .

وبعد ان وصف له قصي كل شيء ، وذكر له المواضع التي سيكمن فيها القوم خفض صوته قائلاً : اذا لم يزوجك زياد بعد نجاته هذه المرة من الموت فاتركه فلا خير فيه ، واسلُ هواك اذا استطعت .

فقال : عشت عمري وانا لا ارضى ان يكون ملك العالم كله ثمناً لمروءتي ... وسأبقى كما كنت .

— وماذا تصنع اذن

— انقذ حياته ثم انصرف فلا اراه إلا بعد ان يمر الشهر .

فضمه سيد الشعاب الى صدره وطبع على جبينه قبلة الاعجاب والحب .

* * *

لم يكن لليلى وصفوان حيلة الا الصبر كما قرأت . وهمـا ينتظران اولئك الرجـال الذين ذهبوا الى الشام والعراق ، وزياد في سره ، يرثي للعاشقين ، ويتفطر فؤاده للكآبة التي تبدو على جبين ليلى .

غير انه كان يجد لنفسه العذر في التردد الذي يبـديه ، ويرضى كل الرضى بذلك الموقف الرصين الذي لا يحيد عنه .

ان مستقبل ليلى مظلم فيجب ان يجعل ظلامه نوراً ، ونفوذه في مكة ينهار إن لم يستعن بالحكمة لتثبيت اركانه .

وكان يعلم أن ذلك النفوذ لا يتزعزع اذا هو وضع يده بيد قصي كما اراد صفوان ، وساعده في الأمر الذي يسعى اليه ، لكن امير صوفة لا يخون قومه وابن كعب الأبي الشريف لا يمهد للغريب اسباب السيادة والسلطان في قومه .. ومع ذلك ، فالحجابة في الحالين ليست له . ان الرجلين اللذين يتنازعانها ابعد منه صوتاً واكثر رجالاً ، وابو ضمرة الخزاعي اثقل ظلاً من ذلك الكناني ... فآثر السكوت كما مر ريثما ترتفع الاصوات وتمتد الايدي ؛ فيرفع صوته ويمد يده الى الناحية التي لا تموت فيها آمال نفسه . ولأجل هذه الغاية وعد صفوان بالحياد لكنه لم يعده باظهار خضوعه لابن كلاب اذا تم له الأمر ؛ لأن صفوان نفسه لم يحدثه بهذا يوم كان رسول صلح . مع ان قصياً لم يوافق صفوان في السكوت عن زياد إلا إذا عاهده هذا على اظهار خضوعه ؛ وقد ضمن صفوان لسيد الشعاب ذلك الخضوع .

اجل ، إن عاشق ليلى لم يشأ ان يحدّث اباها بمثل هذا الشأن إلا بعد ان يثق بالخلاص الوثوق كله ، ويعده الوعد الاخير بالزواج الذي لا يهنأ الا به ، اما اليوم ي بعد طلاعه على المؤ مرة ، فقد اراد ان يدعوه الى ذلك الأمر ، عندما يسلم من أيدي المتآمرين .

وعند الصباح مشى يريد قصره ، وهو معجب باخلاق قصي التي أملت عليه العفو عن عدوه وهو قادر على النجاة منه ، فلما وصل ، دخل طلحة يقول : لقد أقبل صفوان .

فقال زياد لابيه وابنته : ان ابن الحارث لا يقدم في مثل هـذه الساعة الا لأمر !

وفاجأه بقوله : ما وراءك يا صفوان ؟

فقال : ألعلك تنكر عليّ قدومي عند الصباح ايها الأمير ؟

– نعم وانا احلف ان في صدرك خبراً ؛
فجلس وهو يقول : اصبت ولولا هذا الخبر لما قدمت الآن .
– وهو من الاخبار الغريبة على ما ارى !
– اجل فقد اصبحت من الكهان اقرأ حوادث الزمان وما في صدور الايام من الغاز واسرار .

قال : منبت الكهانة في بني كنانة فلتهنأ العرب . وماذا فعلت سودة وهي كاهنة الشعاب ؟

– لا تعرف سودة ما اتنبأ به .
قال : هات ما عندك اذن !

قال : لقـــد خبرني الزمان ان بعض الامراء في مكة يتآمرون على الناس ويسلحون ايدي الغلمان ويرسلونهم للفتك بالابرياء .

– اما نحن فلم نسمع قط هذه الاخبار التي ذكرت !
– وكيف تسمعها وهي لم تظهر بعد ؟
– ومن نقلها أليك ايها الكاهن ؟
– الهواء الذي يملأ فضاء مكة .
قال : اضرب لنا مثلاً أن شئت .

قال : بعد ان تمر ساعتان على غروب شمس هذا اليوم يدعى احد الغلمان الى جوار البئر التي يجتمع حولها بنو بكر .

– ثم ماذا ؟
– وفي جانب البئر ثلاثة رجال يكمنون له وفي ايديهم الخنـــاجر القصيرة فيقبضون عليه ثم ينتظرون .
فنظر زياد الى ابيه قائلا : ماذا فهمت يا مولاي ؟
– لم افهم شيئاً !
فضحك صفوان ضحك المضطرب وهو يقول : ثم ينتظرون قدوم رجل آخر

هو سيد ذلك الغلام ليغمدوا خناجرهم في صدره ويطلقوا غلامه .
قال : خبر هائل يا كاهن الشعاب .

– نعم وذلك الرجل الذي يريدون قتله يهتز لموته نصف اهـــل مكة ، ويضطرب له قصر سادن الكعبة وسكانه

فبان الذعر على وجه ليلى واصفرّت شفتاها من الخوف ، ان الرجل الذي يصفه صفوان هو أبوها ، وقلبها يحـدثها بان النكبة ستقع كما يقول ، فهمّت بالسؤال ؛ فإذا طلحة يدخل وفي يده وعاء الطيب ، ففاجأ صفوان القوم بقوله: اما الغلام الذي يدعى الى ذلك البئر فهذا ، وأومأ الى طلحة

فرقصت لحية الشيخ وارتجفت يداه .

ولكن زياداً كان اعظم من ان يظهر الضعف فقال وهو يتكلف الابتسام : واما سيد الغلام فهذا : ووضع يده على صدره وهو يعني نفسه .

قال : نعم فانت هوّ الامير الذي يكنون له في هذه الليلة على امل ان يسلبوه الحياة .

قال : اخشى ان تكون واهماً يا صفوان .

– ابذل نصف مالي لأكون كما ذكرت يا مولاي .. ولكن الخـــبر صحيح لسوء الحظ ؛ وستغيب الشمس بعد ساعات فترى كل شيء .

– اذن لم يبق الا ان تذكر الاسماء .

– بل بقي ان تسمع حكايتي الى النهاية وتأمر طلحة بان يحفظ كل كلمة اقولها له دون ان يكون لك وله مجال للرد .

– لقد امرته بهذا فقل ما تشاء .

وكان طلحة واقفاً وقد اصيب بالذهول فقال له : ان لك في مكة اخاً اسمه سراج أليس كذلك ؟
وزياد واهل بيته لا يعلمون ان لغلامهم اخاً في الوجود ؟

فقال : بلى !

قال سيأتيك اخوك بعـد غروب الشمس قائلاً لك : ان في حي بني بكر بالقرب من البئر ، قتيلاً من ابناء عمنا فاذهب لنراه .

– أيطلب اليّ هذا وانا في القصر ؟

– لا ، بل تكون في ذلك الموضع الذي تعودت الوقوف فيه كل مساءعندما تأوي نوق مولاك الى المرابط .

– وماذا أقول له ؟

– تضطرب أولاً ، كما يضطرب الآمن المطمئن عندما تدهمه الحادثات ، ثم تعده بالذهاب بعد ان تدخل جميع النوق .

– ثم اذهب ؟..

– ثم تذهب دون ان يبدو عـلى وجهك مظهر واحد من مظاهر التردد والخوف أفهمت الآن ؟

– ولكن لم افهم ماذا اصنع هناك .

– لا تستطيع ان تفعل هناك شيئاً؛ ان الاشقياء سيتولون أمرك عندوصولك وسيجعلونك في كوخ تهدمت جدره ، وعلى رأسك احـدهم يحمل خنجره بيده ولا يتردد في ان يطعنك به إذا ارتفع لك صوت .

– ذلك يجيء احدهم فيدعو مولاي .

– اجل ويقول له : ان غلامك بين ايدي لصوص يسألونه ان يفـدي نفسه بقبضة من المال .

فقال زيادٍ : لقد جاء دوري الآن .

– نعم وليبدِ كل واحد منكم رأيه .

قال : اتناول سيفي وارافق من يدعوني الى ذلك المكان حيث اظهر نفسي للقوم قائلاً لهم : انا زياد .

– ولكنك لا تعلم في تلك الساعة من اين تـأتيك الخناجر .. انه رأي ليس فيه شيء من الحكمة يا مولاي .

فقال الشيخ : يخرج من القصر وأمامه وخلفه عشرون رجلاً يضربون اعناق الثلاثة ويحملون رؤوسهم .

– اذا فعل هذا لا يرى عند البئر غير ذلك الكوخ المتهدم وفيه جثة طلحة اتظن ان اولئك الرجال ليس لهم عيون تبصر الامير واتباعه ؟

فرفعت ليلى رأسها قائلة : خير الاراء ان يقبض ابي على الرسول الذي يأتيه ويعرف منه اسماء رفاقه .

قال : لا تنسي ان ذلك الرسول لا يبوح بتلك الاسماء ولو رأى الموت بعينيه، ولنفرض انه باح بها فمن ينقذ طلحة من الخناجر التي يشهرونها فوق رأسه ؟

قال زياد : لننظر في هذه الاراء ثم نختار .

– ولكني لم اذكر رأيي بعد ، لقد رأيت ان نقبض على الرسول الذي هـو سراج نفسه .

فصاح طلحة : اخي ؟

– نعم اخوك ، ثم انزع ثيابه فالبسها واخرج مع الامير الى ذلـك الموضع الذي ينتظره فيه اولئك المجرمون .

– وعندئذ اذكر لهم اسمي ثم ينوب السلاح عن الكلام .

– بل تبقى ساكتاً يا مولاي ، اما انا فاقول :

« لقد جاء الفداء » وهي الكلمة التي امروا سراجاً بان يقولها لهم بعد رجوعه ؛ فيمشون اليك والشفار تلمع في الايدي ولكنها لا تصل اليك .

فأطرق الامير يفكر في امره وهو يتردد في الجواب .

فقال ارضيت يا مولاي ؟

– أر الى الآن ما يدفعني الى الرضى .

-- لماذا ؟

– لاني لم اكن قط جباناً لأرضى بان تقذف بنفسها الى الهوة لتنقذني مرة اخرى من الموت .

– لا تذكر الجبن يا مولاي فانا سأفعل هذا رضيت ام ابيت ، وليس في مكة من يمنعني منه .

ولكن يجوز لي ان اسألك سؤالين قبل ان نتفق .

– سل ما تشاء .

– الى من ينتمي اولئك الاشقياء ؟

– ستعرف كل ذلك قبل نصف الليل .

– وكيف استطعت ان تعلم جميع هذه الاسرار ؟

– تقدر يا مولاي ان تسألني عن كل شيء الا عن هذا السر فلا ابوح لأحد به . يكفي ان تعلم اني اهتم بكل امر يتعلق بك .

-- وهل بقي لك ما تقول ؟

– بقي ان اوصيك بالسكوت عندما يهاجمنا القوم .

– أأضرب ولا اقول كلمة ؟

– نعم ثم نعود الى القصر لتباحث سراجاً وترى رأيك فيه .

فقال طلحة : اعطوني خنجراً اضعه في حزامي فقد احتاج اليه .

فاجابه صفوان : اذا لجأت الى الخنجر وانت بين ايدي القوم اغمدوه في عنقك .

– ولكني لا الجأ اليه الا في الساعة الاخيرة عندما تصلان الى البئر .

– ان زياد بن كعب وصفوان بن الحارث يبارزان عشرة رجال ولا يستعينان بأحد . احفظ ما قلته لك وهذا يكفي .

فدمعت عينا ليلى وهي تقول : اخشى ان يكون هناك اكثر من ثلاثة .

– لا تخافي يا ليلى فانا اضمن حياة الأمير .

وكان على زياد ان يقول لها : وانا اضمن حياة صفوان .

لكن زياداً لم يقل شيئاً لانه كان قد غاص في لجة التفكير .

اما الشيخ فكانت الكلمات تبدو على شفتيه ثم تختفي كأنه لا يريد ان يظهر مخاوفه وظنونه في تلك الساعة .

وكان الشك قد دبّ في صدره وبدت الريبة في عينيه .

وبعد سكوت قصير خرج صفوان على ان يعود قبل المساء واوصى طلحة بالكتمان . وكان قلب ليلى يخفق بشدة ، عند تصورها ان حياة ابيها وحبيبها تهددهما الاخطار .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين ٢٥ ل.ل.